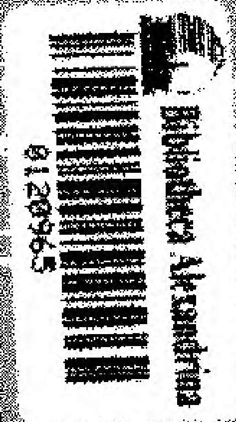
جمال البنا

مسئولية فشل الدولة الإسلامية في العصر الحديث

وبحوث أخرى



بـ ... ـامة ومجهولة عن رأس الإخوان المسلمين
... ـمدة العربية في دمشق سنة ١٩٥٤م

دار الفكر الإسلامي
١٩٠ شارع الجيش — الظاهر — القاهرة
ت: ٩٣٦٩٩٤٠

جمال البنّا

مسئولية فشل الدولة الإسلامية في العصر الحديث

وبحوث أخرى

دار الفكر الإسلامي
١٩٥ شارع الجيش - الظاهر - القاهرة
ت : ٩٣٦٩٩٤

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

هذه بحوث ومقالات يجمعها أن كل واحدة تعالج هماً من الهموم ، وقرحاً من القروح ، وتحدياً من التحديات التى تشغل البال وتنزف الدم وتُعْرض الخطر وتوحى الأسى والقنوط . ولكن المعالجة تفتح أبواب الأمل وتحدد معالم السبيل وهى تتسم بالمصارحة والمجابهة التى تبعد بها عن المواربة واللف والدوران والحيف على الحقيقة لحساب المصالح المكتسبة والنظم الحاكمة والفهم التقليدى .

وقد نشرت ثلاث أو أربع منها فى صحف معظمها أمريكية محدودة التوزيع . وارتؤى اثباتها هنا ليعم بها النفع ولتنجو عما يطرأ لما يكتب فى الصحف من نسيان .

وبالإضافة إلى الطريقة المتميزة للمعالجة التى تعرض الحالة الواقعة وتكشف وجوه النقص ثم تصف طرق العلاج فإن موضوعاتها تعطى فكرة عن الأهمية العظمى لها . فأى شىء أهم من **دراسة أسباب فشل تجربة إقامة دولة إسلامية فى العصر الحديث** . وأى شىء أجدر

بالعناية من دراسة كبرى الحركات الإسلامية الحديثة – أى الأخوان المسلمين وتحديد ما يكون من الخير أن تقوم به فى نداء حار **«إخوانى الإخوان»** . وبالمثل فإن الدراسة الثالثة عن **«غياب الرؤية الإسلامية»** تكشف جانباً من جوانب النقص فى المعالجات الإسلامية . وتعرض الدراسة الرابعة «**بين التقوقع والتميع**» محنة الطالب المغترب والعامل المهاجر وتقدم حلولاً آنية وسريعة كما تضع «استراتيجية» طويلة الأمد . وتقدم مثالاً لمذهبنا فى تركيز العناية على اللب والجوهر وليس على القشر والمظهر .

أما مقال **«الإسلام خط الدفاع الأخير فى مواجهة الإذابة»** فيتضمن الأفكار الرئيسية لكتاب عن هذا الموضوع نأمل أن يظهر قريباً . وهو يجمل أبرز تحديات العصر وكيف يمكن مواجهتها . وهناك فكرة **«نحو إطار لامركزى لحماية وحدة الأمة الإسلامية»** الذى يدعو لتناسى الخلافات المذهبية فى سبيل الوحدة وتدعيم هذه الوحدة بمشروعات تهدف لتعزيز التواصل بين الدول الإسلامية وتحقيق التكامل الاقتصادى بينها . وبعث الكتاب من محاضر قضية «عربية الجيب» ١٩٤٨ **صورة لدستور إسلامى وضعه أحد المتهمين فيها** أردنا بنشره إيضاح الفرق مابين تفكير الإسلاميين قبل الحقبة الناصرية وكيف أنه يخلو من التعسف والتعصب ودعاوى «الحاكمية الإلهية» ... إلخ مما يوضح أن هذه الأخيرة هى ثمرة مرة للبذرة التى غرسها عبد الناصر فى سجونه ونماها حكمه المتسلط وسياساته الفردية المتعسفة .

وثمة بحث موجز عن **«الإخوان والعمل النقابى»** الذى أصبح ساحة للوجود الإخوانى فى المجتمع المصرى . أفلتت من قيود الحظر المسلطة عليهم وهو وجود يمكن أن يتضمن خيراً للإخوان وللحركة النقابية بشرط أن يتخلى الإخوان عن «النفسية البرجوازية» التى تسيطر عليهم .

والبحث التاسع هو عن بعض العوامل التي تحكم ظاهرة الصحوة الإسلامية ، ولفظ القوة والضعف فيها .

ويختم الكتاب بوثيقة هامة ومجهولة تبرز رأى الأخوان المسلمين في الوحدة العربية بتفصيل ، قدمت منذ خمسين عاماً وهى توضح أن الأخوان يناصرون هذه الفكرة بقوة ولايرون فيها ما يخالف الأصول الإسلامية .

وقد يلمس القارىء تكراراً لبعض المعانى وهو مايعود إلى أن كل موضوع من موضوعات الكتاب كتب على حدة ، وفى فترات زمنية متباعدة فضلاً عن أن التكرار يغتفر للداعية ، إذ لامناص منه لتركيز وتثبيت المفاهيم حتى لايذهب بها النسيان والمشاغل الأخرى .

إننا رغم ما انحدر إليه المسلمون من ضعف ، وما يتبجح به الطغاه من قوة ، لم نفقد الأمل ، ولم يتطرق إلينا اليأس وكيف نيأس ونحن نقرأ قوله تعالى ﴿حتى اذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا أتاهم نصرنا .. فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ يوسف ١١٠ .

القاهرة رجب الفرد ١٤١٥ جمال البنا
ديسمبر ١٩٩٤



— ١ —

مسئولية
فشل تجربة الدولة الإسلامية
في العصر الحديث(*)

لابد أن نعترف – والأسى يعتصرنا – بأن محاولات إقامة الدولة الإسلامية في العصر الحديث قد فشلت[1] ، رغم توفر بعض مقومات النجاح ، مما يؤكد أنه لابد من توفر ما هو أكثر منها . وسنستبعد من أسباب الفشل التآمر الخارجي عليها ، رغم تأثيره الكبير ، وأنه هو الذى تعلق عليه أسباب الفشل لأننا نؤمن بأن التآمر الخارجي إنما يحقق غرضه عندما لا يكون هناك شعبية مؤمنه حقاً ومشاركة فعلاً . وهو ما حدث لتجربتي محمد علي وعبد الناصر في مصر ، ومن أجل هذا نجح التآمر الدولي عليهما في « نافارين » و « حرب الأيام الستة » .

والمفارقة أن هذا السبب لفشل مشروعي محمد علي وعبد الناصر ، انتفى من مشروع الدولة الإسلامية في العصر الحديث . فهو في معظم الحالات يقوم على قاعدة مؤمنة ومشاركة ، ولكنه فشل لأن ايمان ومشاركة القاعدة وإن كان يحمي

(*) نشر القسم الأول من البحث في جريدة «القدس» اليومية التي تصدر في لندن العدد ١٦٨٩ في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٤ .

(١) قد لا يصدق هذا الحكم تماماً على تجربة السودان . التي تكافح في ظروف قاسية وغامضة .

المشروع من التآمر الخارجي إلا أنه لا يكفل بالضرورة النجاح للمشروع . لأن من المحتمل أن لا يكون هذا الايمان سليماً رشيداً . وهذا هو ما حدث لمعظم محاولات إقامة الدولة الإسلامية فى العصر الحديث ، وكان من أبرز أسباب فشلها .

أصولية الدولة الإسلامية .

لقد طعن بعض الكتاب فى « أصولية الدولة الإسلامية » لعل أبرزهم الشيخ على عبد الرازق الذى رزق بسبب كتابه « أصول الحكم فى الإسلام » شهرة كبيرة ومع أن هذه النقطة ليست من صلب الموضوع الا أنها ترتبط به وتمثل شبهة كبيرة فى أذهان لفيف من المثقفين ويكون من الخير الفصل فيها .

لقد بنى الطاعنون طعنهم على الأسباب الآتية :

١ – أن القرآن الكريم حصر دور ومهمة الرسول فى التبليغ وصرح بأنه ليس له على الناس أى سلطان وأنه ليس مسئولاً عن ايمانهم لأن هذا ليس مما يملكه ولكنه مسئول عن التبليغ ، وأنه ليس وكيلاً عنهم أو جباراً عليهم .

٢ – لم ترد كلمة « دولة » بالمعنى السياسى الشائع فى القرآن ولكن « أمه » والفرق بين الدولة والأمة كبير وهو يميل لتأييد وجهة نظرهم .

٣ – ما يتطرق إلى أذهان البعض من تعارض بين الرسالة النبوية التى تقوم على التبليغ وتتسم بالحكمة والموعظة الحسنة والايمان القلبى ، وسلطة الحكم وما يتسم به من قهر [سجون ، بوليس ، جيش ...] .

ولكن يرد على هذه الاعتراضات .

١ – أن القرآن الكريم أصلاً كتاب هداية الى العقيدة . وإذا عالج شيئاً آخر غيرها من تاريخ أو علوم أو جغرافية فمن باب الاستدلال وإعمال الذهن ، وليس من الضرورى أن ينص القرآن على الدولة الإسلامية .

٢ – أن بعض أركان العقيدة نفسها كالزكاة تتطلب سلطة تتسلح بالإكراه

عند الضرورة فضلاً عن نصوص أخرى عن أمور تدخل فى إطار الدولة كموادعة أهل الكتاب ومقاتلة الباغين ... الخ .

٣ – أن التبليغ يدخل فيه الايضاح والتبيين – خاصة وأن القرآن الكريم يغفل ذكر التفاصيل حتى فى أخص ما يتعلق بالعقيدة كالصلاة والزكاة ، والصوم ... الخ . ففى هذه كلها لم يضع القرآن سوى التوجيه العام بدون التفصيل الخاص وقامت « السنة » بذلك ولا يعد هذا افتئاتاً على القرآن ، بأى وجه وعندما نصف أمراً ما بأنه « إسلامى » فإن هذا يختلف عن أنه « قرآنى » لأن الإسلام يضم القرآن والسنة أو « الله والرسول » .

وما يمكن أن ننتهى اليه هو أن مبدأ أصولية الدولة الإسلامية ، أو أن الدولة تدخل فى اطار الإسلام أمر لا نرى أنه محل جدل ويمكن أن يستخلص من القرآن نفسه ، وإن كانت الدولة الإسلامية الأولى من انشاء الرسول **وما يجوز الاجتهاد فيه ليس هو أصولية الدولة الإسلامية ، ولكن تفاصيل وطريقة ونظام الدولة الإسلامية ، لأن معظم هذا من إنشاء الرسول ، ولم يختلف أئمة الفقهاء فى أن ما يقوم به الرسول بصفته الأمام أو الحاكم ليس له إلزام ما يقوم بتبليغه كرسول عن العقيدة .**

وهذا ما يضيق الشقة بين وجهتى النظر وإنما احتدم الخلاف لجهل فريق بأن نظام الدولة الإسلامية اجتهادى وإن كان مبدؤها أصولياً ، وشدة تعصب وضيق أفق فريق آخر يريد أن يجعل تفاصيلها أصولية لا اجتهاد فيها .

الدولة الإسلامية تاريخياً .

ونحن نرى أن الدولة الإسلامية ظهرت بالفعل مع بداية وصول الرسول إلى المدينة . وبدأت على يدى الرسول نفسه عندما أشرف على بناء المسجد ، وشارك فيه . والمسجد فى الإسلام هو ملتقى المسلمين كما هو مكان عبادتهم ، إذ لم يكن هناك مكان عام آخر غيره للاجتماع واتخاذ القرارات العامة ومناقشتها .

وبعد إقامة المسجد مارس الرسول برضا وتسليم كل المؤمنين : مهاجرين وأنصار

مسؤليات رئيس الدولة فقاد الجيوش فى المعارك وأبرم المعاهدات وتولى توزيع الزكاة والمالية العامة ... الخ . وهذه كلها من صميم اختصاصات رئيس الدولة بحيث لا يمكن **القول إنه كان نبياً فحسب أو أنه أوجد « أمة » ، لقد أقام أمة ودولة ... وكان رئيس دولة قدر ما كان رسول دعوة .**

وظهر أثر ذلك فى أنه عندما توفى لم يعد العرب إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام . وعندما أراد البعض ذلك اعتبروا مرتدين وأعلنت عليهم الحرب وكان لابد من الابقاء على الدولة التى أقامها محمد حتى لو اختلفت شيئاً ما لان أحداً ما كان يمكن أن يملأ مكان محمد بملكاته ومواهبه وقدراته ، فضلاً عن خصوصيته الفريدة كرسول ونبى وهكذا وجدنا أنفسنا فى « السقيفة » وتمت بعد بعض المناوشات بيعة أبى بكر .

وعندما أحس أبوبكر بمرض الموت ، أهمه أمر الطريقة التى يأتى بها من سيخلفه ، كانت بيعة أبى بكر «فلتة» بتعبير عمر بن الخطاب وكان أبوبكر يعلم هذا وأراد أن يحمى المسلمين من « فلتة » أخرى غير مأمونة والعهد حديث ولم يمض فى الحكم سوى عامين . ولهذا أباح لنفسه أن يختار أفضل المرشحين ، ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن قام بعملية « شورى » طويلة أكدت له صواب ترشيحه وقبول المسلمين له وهكذا ولى عمر .

ونحن لا نعرض الطريقة التى بويع بها عمر كإحدى الطرق التى يمكن أن تستخدمها الدولة الإسلامية فى العصر الحديث ولكن لإيضاح ملابساتها . وقد كان عمر هو المؤهل لوضع نظام « منهجى » لإدارة الدولة . وربما لو اختار فى حياته ستين ، وليس بعد موته ستة لوضع بذرة أقرب النظم إلى الإسلام .

ولكن الملابسات لم تكن تتطلب ذلك ضرورة . كان النظام القائم يؤدى دوره ويكفى ، ولو اقترح أحد أن تكون ولاية الخليفة محددة المدة لَرُفِضَ ، لا على أساس أن هذا يخالف نصاً أو يعارض أصلاً . ولكن لأنه لم يكن له ضرورة وكان من المحتمل أن

ينطوى على مخاطر القلقلة فى وقت بناء الدولة الجديدة . ولعل هذه الأسباب هى التى حالت دون أن ترد فكرة تحديد مدة الحاكم .

فكل نظام سياسى هو ابن ملابساته وموقعه وتاريخه . ومن ثم يفترض أن تختلف النظم . وما حدث فى خلافه أبى بكر وعمر كان ثمرة واقعية للملابسات والأحداث . وقد كان من أسباب قوة الامبراطورية الرومانية – فى فترة ما – أن بعض القياصرة كانوا يتبنون أفضل الشخصيات ويرشحونها للحكم أو يدفعون بها لممارسة المسئوليات الكبيرة بحيث يكون توليهم للحكم أمراً تلقائياً . وقد تصور جورج برنارد شو فى مسرحية « ميجور بربارا » مؤسسة رأسمالية لأصحابها مثل هذه العقلية فهم يتبنون أفضل العناصر فى الشركة ويدفعون بها لادارتها .

* * *

المهم فى هذا أن دولة النبوة التى أقامها الرسول وانتهت بوفاته ، أعقبتها «دولة الخلافة» التى بدأت بأبى بكر وانتهت بعلى بن أبى طالب وقدمت خلال ذلك نموذجا ثانياً للدولة الإسلامية حتى جاء النموذج الثالث الذى وإن انطلق من الإسلام فإنه بدأ الانحراف عن المبادىء والمثل التى قامت عليها الدولة الإسلامية ، ومن أجل هذا أطلق عليه دولة « الملك العضوض » .

ومع أن الانحراف عن المبادىء والقيم الإسلامية بدأ مع معاوية إلا أن الموجة التى أثارها الإسلام كانت من القوة والعرامة بحيث جاوزت كل ما أوجده الإنحراف ، وسمحت بوجود قادة أكفاء وحملت الإسلام إلى إيران والصين والهند واسبانيا . وظلت الدولة الإسلامية مزدهرة كدولة تآكلت فيها معظم مقومات الدولة الإسلامية ولكن الباق كان يكفى لاستمرار الدولة . حتى دخلها الترك فى أيام المعتصم وأوتيت من الداخل . ولكنها واصلت البقاء حتى هاجمها هولاكو وأسقط الخلافة العباسية عام ٦٥٦ – ١٢٥٨ .

ومع هذا فإن فكرة دولة الإسلام كانت قد تأصلت بحيث أنها عندما قضى

عليها في بغداد وجدت ملاذاً أخر في مصر التي نهضت بها ، ومكنتها من أن تحرز أعظم انتصاراتها : الانتصار على المغول والتتار في عين جالوت . والانتصار على الصليبيين في حطين والمنصورة . وكان انتصار المنصورة آخر عهد الدولة الإسلامية في الشرق بالانتصار . ولما جاء نابليون بعد ثلاثة قرون لم يجد من يقف أمامه كما وقف بيبرس وقطز وصلاح الدين .

حقاً رفع الأتراك اللواء الإسلامي وأوصلوه حتى أعماق البلقان وأسوار فيينا وحكموا اليونان ، ولكن الإسلام في سلطنة آل عثمان كان رمزاً أكثر مما كان حقيقة .

وفي الوقت الذي كان أبو عبد الله آخر سلالة بني الأحمر يسلم مفاتيح غرناطة لفرديناند وايزابيلا ليطوى آخر صفحة من حكم الإسلام في إسبانيا ، كان كولومبس يبحر ليكتشف عالماً جديداً وكان التجار المغامرون يمخرون بسفنهم البحار السبعة ليبدؤا العهد الأوروبي وينهوا العهد الإسلامي — حتى وإن جاءت النهاية الرسمية لإلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤ ولم يكن في الخلافة وقتئذ من الإسلام إلا الإسم .

من هذا العرض يتضح أن الدولة الإسلامية حقاً لم تدم سوى أربعين عاماً . عشر منها دولة النبوة وثلاثون دولة الخلافة ، ولكن هذه المدة القصيرة كانت من القوة بحيث وضعت تقاليد وأرست أسساً وبنت نموذجاً لالف عام . بنسب متفاوتة ، وظلت تتآكل مع الزمن حتى انعدمت كلية في العقود الأولى للقرن العشرين وكان إلغاء الخلافة الرسمي تحصيل حاصل .

وفي الوقت نفسه — فإنه يثبت أن الذين يظنون أن ليس في الإسلام دولة ، ويفصلون بين الإسلام وفكرة الدولة يخطئون في الواقع ، وفي الواجب : في الواقع لأن الرسول أقام دولة نسج على منوالها الخلفاء الراشدون وهذه حقيقة وواقع ، وفي الواجب ، لأن هذه التجربة قدمت اضافة ثمينة إلى عالم النظم السياسية ، وكان يمكن لو ألم بها الأوربيون أن تثرى تجاربهم . كما أنها تمثل ذكرى عميقة في قلوب المسلمين هي محل زهو ، وفخر ، واعزاز المسلمين جميعاً ، لأنها بدأت على يدى الرسول نفسه وأشترك فيها صحابته الذين يتمتعون بكل الحب والتقدير ، وأنها تمثل تجربة الإسلام

لوضع نظام حكم لا يقوم على الغلبة أو القوة ، أو الثراء أو الأرستقراطية ومحاولته ابداع حلول انسانية لإصلاح السلطة التى هى مفسدة بطبيعتها . ونجحت التجربة فى ذلك ، وإن لم تستمر سوى أربعين عاماً .

دعوة وتجارب الدولة الإسلامية فى العصر الحديث .

فى أشد ساعات الليل الطويل الذى أطبق على العهد الأخير للخلافة ، انبثق شهاب كان يؤذن بالفجر . كان هذا هو « جمال الأفغانى » الذى دق الدقة الأولى لإيقاظ المجتمع الإسلامى الغارق فى سباته . واراد جمال الأفغانى « دولة » أو « كومنولث » يقوم على أسس اسلامية ويستلهم قيماً اسلامية وكانت وسيلته لذلك إثارة النخبة التى يكون عليها أن تصل إلى الحكم بمختلف الوسائل ، بما فى ذلك الثورة .

لم يعش جمال الدين ليرى صدى صيحته المدوية . ولكن الصيحة كان لها آثار أشهرها ما انتقل إلى محمد عبده . ولكن أهمها — فيما نحن بصدده — هو ما وصل إلى حسن البنا ومجموعة أخرى من المفكرين والدعاة الإسلاميين وقتئذ فى معظم الدول الإسلامية ، وكانت قد سبقته — كما لحقته — محاولات لتكوين دولة إسلامية .

* * *

ففى الحجاز ظهر فى وقت متقدم داعية إسلامى اصلاحى أراد انقاذ الإسلام من الخرافات والخزعبلات التى كانت حشو أردية الشيوخ والفقهاء وقتئذ . وتعاون مع أحد الحكام بحيث كفل للدعوة الاصلاحية السيف الحاكم وظهرت الدولة الوهابية فى نجد أولاً ثم فى الحجاز ثانياً ولكن مضمون الاصلاح فى فكر محمد بن عبد الوهاب كان ساذجاً ، فقد ارتبط بتخليص العقيدة مما اعتبره شركاً ، يتمثل فى التوسل والشفاعة والقباب واقامة المقابر ... الخ .

أما بالنسبة للدولة الإسلامية على وجه التعيين فلم يكن لديه شيئاً أو لم يعنه باعتبار أن ذلك هو اختصاص الحاكم أما هو — الفقيه — فقد عنى بتجريد العقيدة من شبهات الشرك .

إننا لم نكن لنطلب من محمد بن عبد الوهاب أن يقرأ تاريخ الامبراطورية الرومانية أو الثورة الفرنسية أو يعرف ماقدمه مونتسكيو أو جان جاك روسو . إنه لم يكن محتاجاً لهذا ولا كانت رمال صحراء نجد تحتمله . ومع هذا فما كان متصوراً حتى فى أشد النظم سذاجة وبساطة أن تبنى دولة بهدم القباب ! كان المطلوب من محمد بن عبد الوهاب أن يجرى توازناً بين تخليص العقيدة من ادران الشرك وتخليص الحكم من لوثات الظلم .

* * *

فى الهند وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية كان المسرح يتهيأ لظهور دولة اسلامية جديدة تختلف ظروفها وملابساتها اختلافاً كبيراً عن الدولة السعودية .

فعندما وعدت بريطانيا الهند بالاستقلال ، تبدت لمسلمى شبه القارة الهندية مشكلة نظام الدولة القادمة التى كان المسلمون فيها قرابة الثلث أو أكثر عدداً وكان لدى الأغلبية الهندوسية نزعة عدوانية تجاه المسلمين ، أججها الحكم الاستعمارى البريطانى الذى أراد أن يفرق وحدة الهند ، وان ينتقم من المسلمين الذين كانوا أكبر عناصر الثورة عليهم . فقربوا اليهم الهندوس وقلدوهم المناصب وأحيوا فيهم ذكرى الحكم المغولى للهند وغزوات المسلمين القديمة لها ، فتوجس المسلمون خيفة من أن يحكم الهند حكومة تكون الأغلبية فيها للهندوس المتعصبين .

وكان فى الهند وقتئذ عدد من أفضل المثقفين الاسلاميين مثل «أحمد خان» مؤسس جامعة عليكره ، وسيد على مؤلف كتاب «روح الإسلام» ، ومولانا أبو الكلام آزاد الذى كان يعد أكبر شخصية اسلامية سياسية يأتى فى حزب المؤتمر بعد غاندى ونهرو مباشرة . وكانت اتجاهات هذه المجموعة اصلاحية . ولم يكن العيب فيهم الفجاجة أو الجهالة أو ضيق الأفق أو غلبة التعصب فقد كانوا جميعاً من قمة «الانتليجنسيا» الإسلامية الملمة بالثقافة الحديثة ، ولكن الذى كان ينقصهم هو وقدة الحماسة الثورية ونظرية «الدولة الإسلامية» وهذا النقص هو ما استدركه ظهور عدد آخر من القيادات كان أبرزهم «محمد اقبال» المثقف الشاعر — السياسى الذى كان لديه نبع لا ينضب من

العاطفة الاسلامية يكفى لرّى الدولة الإسلامية المنشودة . ومثل السياسى المناور محمد على جنّه رئيس الرابطة الإسلامية الذى استطاع أن يستخلص «باكستان» من قبضة الهنود والمسلمين التابعين للمؤتمر ومثل العلامة المودودى الذى تعمق فى الدراسة الفقهية بحيث استخلص أفضل ما تجود به . وكان هؤلاء جميعاً مكونين تكويناً سياسياً ، وكان أفضلهم هو اقبال الذى توفر له قوة الحماسة وسعة الأفق ، ولكنه توفى فى السنوات الأولى للدولة فلم يتسع له المجال ليؤدى رسالته ، وعلى نقيض ذلك انفسح المجال للمودودى ليقدم نظريته عن الدولة الإسلامية التى كانت أفضل ما يمكن أن يخرج به مفكر سلفى .

إما جنّه فقد كان سياسياً مطبوعاً ، كان الإسلام بالنسبة إليه قومية للمسلمين تميزهم عن الهندوس وكانت مهمة الدولة الإسلامية هى الحيلولة دون تحكم الهندوس فى المسلمين . فميزتها العظمى سلبية — وكان يكفى أن تقوم الدولة وتضفى حمايتها على المسلمين وتكفل لهم حرية الاعتقاد لتقوم بدورها ، ولم يكن ليرفض بعد ذلك أن تكون أوروبية الهوى . وقد كان هو نفسه «باريستر» بريطانى ، أقرب إلى البريطانيين منظراً ، ومزاجا منه إلى شعب الباكستان .

وظهر وقتئذ مفكر التحق بخدمة باكستان هو النمساوى اليهودى محمد أسد [سابقاً ليوبولد فايس] الذى آمن بالإسلام عن اقتناع ، ووصل إلى لب وجوهر الإسلام وأصدر مجلة «عرفات» وأخذ يدعو لفكرته عن الدولة الإسلامية — كما يجب أن تكون . واكتشف نفاق السياسيين الباكستانيين تجاه الإسلام . ولو استلهمت باكستان إقبال ومحمد أسد لكانت أقرب إلى الدولة الإسلامية المنشودة . ولكنها استلهمت المودودى من ناحية ، وجنّه من ناحية أخرى فوقفت بين السلفيين التقليديين والسياسيين الانتهازيين .

وكما قلنا آنفاً ، فإن المودودى استطاع أن يقدم رؤية سلفية للدولة الإسلامية بأسلوب سهل سائغ ، مدعم بالآيات والأحاديث ، مسلح بالأمثلة التى تعين عامة الناس على الفهم .

ولكن هذا الفكر كان ساذجاً ، يفترض أن فى النصوص وحدها قوة تهزم الطبيعة البشرية ، وكان يتجاهل التعقيد الاجتماعى ، وما يطرحه العصر من مشكلات وقضايا جديدة بالمرة لايمكن للقياس السلفى معالجتها .

كانت قوة فكر المودودى أنه فكر سلفى يتسلح بأقوال الفقهاء وكان ضعفه أنه أيضا — سلفى — يتخلف عن التطور .

ولعل باكستان أقدر من أى دول إسلامية أخرى على حل أزمتها ، لأن هذا لا يتطلب منها سوى أن تطوى كتب المودودى وتفتح كتب اقبال وأسد . وأولهما بطل من أبطال باكستان لايقل عن «القائد الأعظم» جِنّه نفسه والثانى مفكر اسلامى وهب زهرة عمره لخدمة باكستان وقدم أفضل تصور للدولة الإسلامية .

ولكن يظل أمام باكستان — كما يظل أمام الدول الإسلامية الأخرى — ظهور القيادة النابغة ، وهذا ما لا يمكن أن تأتى به الكتب — وإن كان من الممكن أن تصقلها — ولكن يأتى بها الله تعالى .

★ ★ ★

وهذا ما يصلنا بايران ، لأن الله تعالى أنعم على ايران بهذا العنصر الثمين ، ويسر لها قائداً تبلورت فيه الدعوة للدولة الإسلامية .

ولو أن نهضات الأمم تقاس بحماستها لقائدها ، وطاعتها له ، لحازت إيران الخمينى قصب السبق .

ان ايران تقدم لنا صورة ثالثة لتجربة الدولة الإسلامية توفر لها العديد من مقومات النجاح ، ولكنها مع هذا لم تنجح !

فها هى ذى دولة تتوفر لها كل مقومات النجاح كدولة ، إن لم تكن كبرى فوسطى ، لديها ثروة بترولية تجعلها الثانية فى العالم . ولديها أراضى فسيحة صالحة للزراعة ومعادن ومناجم عديدة وشعب ذكى عريق يحق له أن يفخر — كمهيار — بحضارة الفرس ودين العرب .

وكانت هذه الدولة محل أطماع الدول الاستعمارية فى العصر الحديث ، وبوجه خاص روسيا المتاخمة لها وبريطانيا الطامعة فى ثرواتها ، وحاولا اقتسامها وانتهابها ، فعمدت روسيا إلى استلحاق المناطق المتاخمة لها ، بينما حاولت بريطانيا استنزاف ثرواتها بالاتفاقيات التجارية وكان من هذه الاتفاقيات اتفاقية احتكرت بمقتضاها شركة بريطانية انتاج وتوزيع «التمباك» وهى المناسبة التى استصرخ فيها جمال الأفغانى المجتهد الأعظم «الشيرازى» الذى أصدر فتوى حرم بها استعمال التمباك فأضرب الناس جميعاً عنه وقيل إن الشاه عندما طلب نارجيلته ، قالوا له لقد حرمها الشيرازى . وكادت الشركة تفلس حتى عوضها الشاه .

وانتهى الُملك فى هذه الدولة إلى قائد عسكرى اغتصب الحكم حتى جاء عليه الدور عندما عزله الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية وولوا ابنه . وكان هذا الابن — شاه رضا بهلوى — شخصاً مجرداً من الموهبة مزهواً سطحياً اغتر بثروات بلاده الطائلة فأخذ ينفق منها بسفه اعاد إلى الأذهان سفه الخديوى اسماعيل فى أيامه . وكان هو وأسرته .بور السلطة ، وبؤرة الفساد الذى أخذ يستشرى ويلتهم ثروات البلاد ، وكان همّ الشاه الوحيد هو أن يوجد لنفسه ولى عهد !كأن ايران بدونه ستفلس ! وطلق زوجاته فى هذا السبيل حتى جاءت آخر زوجاته بولى العهد الذى عندما ظهر كان قد فقد العرش ، وأصبح ولى العهد مشرداً طريداً ، كولى عهد فاروق من قبل .

وكان الشاه عازفاً عن الإسلام يستند فى حكمه على أسنة الرماح ، وعلى حماية «السافاك» وعلى تأييد أمريكا التى جعلته «شرطى» الخليج وحاول أن يقوم بثورة بيضاء فشلت فشلاً ذريعاً لغلبة الفساد والبيروقراطية .

وكان فى ايران «انتلجنسيا» اسلامية ، مكيفة تكييفا سياسياً بالنسبة للاتجاه السياسى للمذهب الشيعى الذى يرى فى الإمامة ركناً من أركان العقيدة ، مثل على شريعتى وبنى صدر وبازرجان وغيرهم من الذين ألموا بالثقافة المصرية واحتفظوا بالأساس الشيعى/ الإسلامى ولكن الشاه ما كان يسمح لهم بالظهور أو يسمح لأفكارهم بالانتشار .

فى هذه الملابسات ظهر على الساحة آية الله خومينى الذى كان الشاه قد لاحقه بالاضطهاد ثم نفاه ، فمكنه بذلك من حرية العمل .

وتجمعت فى آية الله خومينى الصفات التى تُكوِّن القائد الرمز ، وتجعل الجماهير تعطيه حبها أو حتى هوسها بحيث قدر له أن يكون رمز الثورة التى حان حينها . وما ان غادر منفاه فى فرنسا إلى ايران ، حتى تهاوى النظام الامبراطورى الشاهنشاهى كبيت من ورق فهرب الشاه وهرب ضباط السافاك القساة . واستسلمت المؤسسة العسكرية التى كانت أكبر قوة عسكرية فى المنطقة تضم جنرالات الجيش وامبرالات البحر ونسور الجو ، وكلهم من الضباط المحترفين الذين تمرسوا بالضبط والربط العسكرى وتلقوا تدريباتهم فى الولايات المتحدة . وغصت طهران بالجماهير التى جاءت من كل حدب وصوب للترحيب بهذا الشيخ العجوز ..

لقد قارن كاتب أوروبى استقبال الروس للينين عندما عاد من منفاه فى سويسرا عام ١٩١٧ باستقبال إيران لخومينى ، ولكن هيهات هيهات ، فالذين استقبلوا لينين على المحطة كانوا عشرين أو ثلاثين ألف نصفهم من أنصاره ، ونصفهم من المعسكرات الأخرى ، أما عندما جاء خومينى ، فإن الشعب الايرانى بقضه وقضيضه كان فى انتظاره .

ويبدأ عهد جديد .

وتوفر لهذا العهد معظم مقومات النجاح .

فهى دولة غنية قوية يسكنها شعب مؤمن وثمة نظرية للامامة وهناك زعيم يحرك الجماهير .

من أجل هذا بدا وكأن تجربة ايران أقرب تجربة إسلامية إلى النجاح .

ومع هذا فقد كان مقضياً عليها أن لاتبلغه .

إن القوى الأوروبية لمست قوة هذا النجم الصاعد فى سماء الإسلام . فزجت به فى حرب لمدة ثمانى سنوات ، استنزفت فيها كل ثروات ايران والعراق ، وجزءاً كبيراً من ثروات العرب .

صحيح أن الأمام الخوميني أحسن عندما أنقذ الفكر الشيعي من آثار فكرة «غيبة الأمام» وأنه في هذه الغيبة ، لاجدوى من أى عمل . لقد قضى على هذه الفكرة التى كانت تعطى الكفاح أجازة مفتوحة وتعفى أصحابه من العمل ، ولكنه لم يستطع التحديد السليم فى فكرة «ولاية الفقيه» بين موروثات المذهب وضرورات العصر . حتى وان بدت الفكرة «ولاية الفقية» لأزمة مادامت الثورة قد قامت على نظرية فقهية إسلامية .

وكان على شريعتى — انبه مفكرى الشيعة — قد وضع حلاً للفكر الشيعى يخلصه من أزمته ، عندما أوجد فاصلاً بين التشيع العلوى الذى يعود إلى على بن أبى طالب والتشيع الصفوى الذى يعود إلى الدولة الصفوية التى حكمت ايران فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، واستبعد شريعتى كل التشيع الصفوى باعتباره غريباً على التشيع العلوى وأنه تأثر بالعداوة المريرة والحروب الطاحنة بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية التى كانت تمثل السنة .

ويبدو أن هذا كان أكبر مما يمكن أن يحتمله آيات الله لأنه كان يتطلب عملية جراحية فى المذهب تودى بأجزاء اعتبرت من صلبه وهو ما لم يستطعه خومينى ، ومن هم بعده ، ممن كانوا أضعف من أن يقوموا بهذا التجديد الجذرى .

ولا نستطيع أن نحدد نسبة «اسلامية» الدولة القائمة فى ايران اليوم ، وهذا فى حد ذاته دليل على غموض هويتها وتميعها .

★ ★ ★

فى الأفغان نجد تجربة رابعة لحكم اسلامى ، بدأ كمقاومة إسلامية للاحتلال السوفيتى ، وانتهى بأن أصبح محوراً لحرب أهليةبدلاً من أن يكون قاعدة لسلام اجتماعى .

هذه البلاد الجبلية الشاهقة التى أهدت للعالم الاسلامى الثورى الأعظم جمال الدين ، والتى هزمت كل من أراد أن يدخلها بما فى ذلك الانجليز — تعرضت لاكتساح سوفيتى نتيجة للخيانة من الداخل وتواطؤ الحزب الشيوعى .

أيقظ هذا الحدث الحاسة الإسلامية وتبلورت فيها روح المقاومة وارتفع اسم

المجاهدين وانهالت المساعدات عليهم من العالم الإسلامى ، بينما هرعت مجموعات عديدة من الشباب المسلم للمشاركة فى الجهاد .

وقد عُلم الآن أن ماقدمته الولايات المتحدة كيداً فى الاتحاد السوفيتى ، وليس حبا فى الأفغان قد يفوق ما قدمه العالم الإسلامى ، وربما كان العامل الذى كفل للمقاومة الإسلامية النجاح .

وهذا لا يضائل من أثر العنصر الإسلامى فى المقاومة ، فلو لم يكن موجوداً وعميقاً فى الشعب الأفغانى لما ظلت المقاومة ، ولما انتصرت فى النهاية . على أن انتصار المقاومة وطرد المحتل الأجنبى أسفر عن مأساة . ان الفصائل التى قادت الجهاد ، بدلاً من أن تعكف على بناء الدولة التى أحالتها الحرب إلى إنقاض أخذت تحارب بعضاً للاستيلاء على السلطة وتجهز على البقية الباقية من البلاد .

أين هنا الوعى الإسلامى ؟ لقد كان قوياً عندما كان الأمر محاربة الشيوعيين ... الكفرة ... الأجانب .

ولكنه لم يظهر ليحول دون أن تقاتل الفصائل المجاهدة بعضها بعضاً .

وأقل ما يقال فيه أنه وعى ناقص .

★ ★ ★

هذه أربع تجارب لإقامة دولة اسلامية ، توفر لها بعض مقومات النجاح[1] .

فيها جميعاً وجد شعب مسلم يريد من كل قلبه الدولة الإسلامية .

وفى دولتين — السعودية ، وايران — لم يكن العامل الاقتصادى حائلاً أو معوقاً . لأنهما يتمتعان بثروات كبيرة .

لماذا اذن فشلت تجربة الدولة الإسلامية ؟

---

(١) لم نتحدث عن تجربة السودان التى تكافح بقوة — ولعلها أفضل التجارب — لعدم توفر المواد التى تبنى عليها الأحكام . كما لم نتحدث عن مصر لأن دعوة اقامة دولة اسلامية أصيبت بضربة قاضية باغتيال الأمام الشهيد حسن البنا ولا يمكن أن تنهض منها الا عندما يظهر بنا ثانٍ يبدأ حيث انتهى الأول .

أسباب فشل تجربة الدولة الإسلامية :

كان السبب الرئيسى الذى أدى إلى فشل تجربة الدولة الإسلامية فى العصر الحديث هو **عدم تقديم الرؤية السليمة للدولة الإسلامية التى تميزها عن غيرها وتتضمن مقومات النجاح** . مثل هذه الرؤية تكون نتيجة انصهار العناصر العديدة المكونة لها فى بوتقة العقيدة بحيث تخرج سبيكة أصيلة بعيدة عن التلفيق فى الأهداف أو التنافر فى الوسائل ، فوسائلها تؤدى إلى أهدافها ، وأهدافها ثمرة وسائلها ، وهذا وذاك محل رضا وقبول الذين قدمت اليهم .

وبديهى أن الشرط الأول لنجاح أى تجربة جديدة فى عالم النظم هو سلامة النظرية أو العقيدة التى تقوم عليها التجربة ، فلا تجربة بدون نظرية ، لأن النظرية هى محور العمل فهى التى تحدد الوسائل والغايات ، وتعيّن الأولويات وتحصن أصحابها من الانزلاق أو الانحراف ، فالنظرية الماركسية بدت سليمة منذ أن وضعها ماركس فى منتصف القرن التاسع عشر ، وعلى أساسها قامت تجربة «الاتحاد السوفيتى» وكانت تجربة مثيرة ، وحققت انجازات ضخمة ، ولكن ظهر فى سنواتها الأخيرة النقص الكامن فيها الذى لم يتنبه إليه دعاتها حتى استشرى وأدى إلى تهاويها .

ويعود العجز عن تقديم الرؤية السليمة للدولة الإسلامية إلى أن صورة الدولة الإسلامية التى أقامها الرسول ، ونسج على منوالها الخلفاء الراشدون كانت قد طمست فى الفكر السياسى الإسلامى ، أو اعتبرت مما لا يمكن تكراره ، وانها أقرب إلى النبوة التى لاتتكرر منها إلى الملك الذى تدور عليه الأمور . وهذه الفكرة نجدها فى بعض كتابات المتقدمين مثل الجاحظ فى «التاج» والطبطباقى فى «الفخرى» ، ولعلهم وجدوا فى قصر مدتها وسمو مثالياتها ما يشفع لهم فى هذا الحكم . وإلا لكان عليهم الاقرار بان كل ما تلاها — من عهد معاوية حتى عصورهم — كان ملكا عضوضاً يختلف عن الخلافة الراشدة ، وما كان يمكنهم أن يقروا بذلك وأحكام هذا الملك مبسوطة وسيوفه مصلته .

وقد حاول الأئمة فى الأيام الأولى للعهد الأموى والعباسى الثورة على نظم الملك

العضوض واشترك فى هذه الثورة الأئمة الأربعة : مالك وأبو حنيفة والشافعى وابن حنبل ، وتعرضوا لأشد صور الأضطهاد . وفشلت الثورات التى قام بها بعض الطالبيين لأن رجال الملك العضوض كانوا أدرى بفنون القتال ولديهم الجيوش والأموال . وكانت النتيجة أن نفض الأئمة اليدين من موضوع الدولة ، وركزوا جهدهم فى العبادات التى لادخل للحكام فيها ، وشيئاً فشيئاً زحف النسيان على القيّم التى كانت هى سر قوة دولة الإسلام ، ولم تبق الا الممارسات الظالمة للحكام . وأصبح أقصى آمال الفقهاء أن تتمسك الدولة «بحفظ الدين» باعتباره المقصد الأول من مقاصد الشريعة أى أنهم عالجوا الدولة من المنظور الفقهى ، وليس من المنظور السياسى . وهو ما يتفق مع ما اضطروا إليه من اطراح معالجة الدولة معالجة سياسية بعد أن هزموا أمام الحكام واقتصروا على الفقه والعبادات . ولعلهم أرضوا ضميرهم بأن «حفظ الدين» يتضمن فيما يتضمنه الثورة على الظلم ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكنهم لم يصرحوا بذلك لأن المجال ما كان يسمح لهم بذلك . والتبس الأمر على من جاء بعدهم خاصة وأن المجتمع الإسلامى كان يتدهور بحيث أصبح مفهوم حفظ الدين هو اقامة الشعائر الدينية والمحافظة على ظواهر الفضيلة .

وظل هذا الفهم يتدحرج حتى وصل إلى الدعاة الاسلاميين الذين إما أنهم كانوا فقهاء بالفعل أو أنهم استمدوا أفكارهم من الفقه التقليدى ومن ثم كان الفهم السائد فى الدعوات الاسلامية المعاصرة للدولة الإسلامية ، أنها الدولة التى تقيم الصلوات ، وتقاوم الإلحاد والبدع التى يدخل فيها تبرج النساء وشيوع الفنون .

***

وهذا خطأ بالغ تاريخياً ، وأصولياً وعملياً ، اما تاريخيا ، فلا خلاف أن المسلمين الأول ما أقاموا دولتهم وسيروا جيوشهم لحمل الناس على الصلاة وحجب النساء فى البيوت . لقد كان الجديد الذى تميزوا به عن أقرانهم العرب ، وعن الفرس والرومان ، ان الاسلام زودهم بالقيم الحضارية التى لم يكن لها حساب عند الآخرين فعرفهم على العدل والمساواة والحرية ، والخير والعمل الصالح ، والايثار والانفاق ، وكرههم فى الظلم والاستغلال والأثرة والبخل والاستعباد للشهوات . وكلل هذا كله بالايمان بالله ، أصل هذه القيم ، ومبدعها الذى كفل لها القداسة التى تصل للإيمان ،

والموضوعية التى تحول دون التلاعب . وقد لا نجد فى كتاباتهم وأقوالهم التى وصلت الينا شيئاً بهذا الأسلوب ، لأن الأساليب تتبع العهود ، ولكن مضمون ما فهموه هو ما قلناه وهذا هو ما يخرج به أى واحد يقرأ القرآن مجرداً فلا ريب أن قلبه سينخلع مما وضعه من وعيد للظلم والجبروت واستعباد الناس ، وأن نفسه ستستبشر لما وعد به المؤمنين من نعيم لقاء البذل والتضحية والانفاق والعدل والايثار وسيتيقظ ذهنه من رواسب الآباء والأجداد والتقاليد والأوضاع وسيسير فى الأرض لتتكشف له العوالم وآثار الاقدمين .

ولا يمس هذا أن تلجأ النصوص فى بعض الحالات إلى تجريد مثل «فى سبيل الله» أو «وجه الله» أو «لتكون كلمة الله هى العليا» لأن هذا فى النهاية هو ما جاء به الإسلام من فعل الخيرات وتجنب الموبقات . والمقصود بالتجرد ليس هو الفعل ، لأننا لا يمكن أن نقدم لله تعالى ما ينفعه بالطاعة أو ما يضره بالمعصية ، وإنما يمكن أن نتقرب إليه بطاعة أوامره . والمقصود بالتجريد هو خلوص النية فى العمل وأن يكون صادقا فلا يبتغى به الكسب الشخصى أو الرياء أو النفاق أو الزهو لأن هذه بالطبع ستكون لها انعكاساتها على سلامة العمل . ومع اننا قد لانجد الصيحات الانتهاضية الشعبية الثورية على طريقتنا الخاصة فى هذا الزمان ، فإن من يراجع كلام جعفر بن أبى طالب أمام النجاشى عندما سأله عن الإسلام ، ومن يقرأ كلام قادة الجيش الإسلامى قبيل القادسية للقائد رستم ، يلمسّ تماماً إنهم فهموا الاسلام هذا الفهم : أنه أمرهم بمكارم الأخلاق ونهاهمْ عن سفسافها ، وأنقذهم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، من عبادة الحكام إلى عبادة الله وإن الإسلام «يحّسن الحسن ويقّبح القبيح»[1] . وأن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم[2] . وهذه الكلمات المنقولة بنصها تبرز الوجه الاجتماعى والانسانى لدولة الإسلام ، وأنه هو الذى يمثل امتيازها .

★ ★ ★

(١) وكما لاحظنا فى مكان آخر ، فإن النعمان بن مقرن عندما قال ذلك ببساطة «انه يحسن الحسن ويقبح القبيح» حل مشكلة المعتزلة بأهون الأسباب وبأفضل الصور .

(٢) هذا ما قاله ربعى بن عامر لرستم عندما سأله «أسيدهم أنت ؟» ، فقال «كلا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم» .

يتضح لنا اذن — من الناحية التاريخية — أن صورة الدولة فى أذهان المسلمين الأول ، وكما وصفها القرآن الكريم وطبقها الرسول كانت شيئاً مختلفاً بالمرة عما تركته لنا كتب الفقه الإسلامى عن مضمون «حفظ الدين» وأنه اقامة الشعائر ، ومحاربة البدع .. الخ .

وان عنصر القوة فيها لم يكن فيما جاء به الإسلام من صلاة أو صيام ، فهما فى كل الأديان . ولكن فى القيم التى أبدعت نمطاً جديداً من الدولة لم يكن للبشرية عهد بها ، وكانت هذه القيم هى التى كفلت للدولة الإسلامية الانتصار والازدهار .

* * *

ومن الناحية الأصولية فالمفروض أن «حفظ الدين» لايدخل فى الشريعة ، ولكن فى العقيدة ، لأن الشريعة انما تخص المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما يتصل بالناس وعلاقاتهم بعضهم ببعض . أما ما يتصل بالله فهو إلى العقيدة أقرب وأمس ، وأمور العقيدة من صلاة أو صوم أو حج والإيمان بالله والرسول واليوم الآخر ... الخ — تقوم على الإيمان الذى يعتمد على الحكمة والموعظة الحسنة ، ولا يمكن أن يدخل فيه قسر . ولما كانت خصيصة الدولة المميزة لها عن غيرها من التنظيمات أنها هيئة قمع ، وان فى يدها الجيوش والسجون والمحاكم والبوليس ، فإن هذه الخصيصة لاقيمة لها فى مجال العقيدة ، بل ان أى زج بها فى مجال العقيدة سيلوث العقيدة . فهذه القوى ، قوى القمع ، لا تغرس فضيلة أو تنمى ايمانا أو تقتلع شهوة فالشهوات فى أعماق النفوس تجرى من الانسان مجرى الدم ، واذا أغلقتها الدولة فسيلجأ الناس إلى التحايل ، وفى بعض الدول الاسلامية «المغلقة» يسافر الكثيرون إلى أوروبا شهراً أو اثنين كل عام ليرتوا من شهواتها ويعبوا ما يكفيهم جفاف بلدهم من العام إلى العام . ومن لم يستطع السفر فإن التليفزيون يقدم ما يشبعه .

ومن الناحية العملية ، فإن الدولة هى أعجز الهيئات والمنظمات فى مجال العقيدة والفضيلة . فما قامت العقائد بالسيف ولا تبقى بالسيف ، وإنما تقوم بالإيمان ، وتزدهر فى مناخ الحرية وتبقى وتتأصل فى النفوس بحكم صلاحيتها الموضوعية ، وأنها

تمثل قيم الحب والخير والجمال والعدل والحرية ، وقد انتشر الاسلام فى بلاد لم تطأها خيول الجيوش الإسلامية ، ولكن ارتفعت فيها اعلام الصوفية ، أو المعاملات السمحة لتجار .. أكثر مما دخلها بالغزو . وقد انحسر الاسلام عن إسبانيا التى فتحها طارق بن زياد وموسى . بن نصير ، ولكنه ظل فى الملايو واندونسيا التى لم تدخلها الجيوش ، بل يمكن أن نعود إلى الأيام الأولى للبعثة النبوية فنقول مع عائشة «فتحت المدينة بالقرآن» وكان هذا هو الفتح الأعظم ، و لم يكن بالسيف ، ولكن بالقرآن .

وقد يذكر هنا أن مما ضلل بعض الدعوات الإسلامية سوء فهم الأثر «يزع الله بالسلطان مالا يزع بالقرآن» وحملهم له على غير محمله والفهم السليم للاسلام يضع الأثر موضعه ويجعله مخصوصاً بفئات شاذة ، شاردة ، منحرفة ، يكون على الدولة أن تتعامل معهم بوسائلها .

* * *

ومن الأسباب التى أدت إلى العجز عن تقديم الرؤية المنشودة للدولة الاسلامية أن بعض الذين قدموا هذه الرؤية كانوا من الفقهاء الذين لم يكن أمامهم مفر من الالتزام بالتصور الفقهى . فهكذا تعلموا وعلى هذا شبوا . وكان البعض الآخر من الضباط والعسكريين الذين هم بحكم تربيتهم العسكرية آخر من يصلح لوضع رؤية الدولة الإسلامية إلا إذا جعلنا الوطن ثكنة ، والشعب جيشاً . وفى دول قبلية كانت الوسيلة لتدعيم الدولة الناشئة هى أن يصهر رئيسها إلى القبائل بحيث يوجد نسبا ويضمن ولاء .

* * *

أين المفكرون والمثقفون :

لعل جمال الأفغانى كان أقدر الجميع على تقديم الرؤية المثلى ، ولكنه – ربما لطبيعته النفسية الثائرة على الظلم – رأى أن عليه أن يهدم قبل أن يبنى فشغل نفسه بهدم معاقل الحكم المطلق والاستبداد فى مصر ، وفارس ورزق حظا من النجاح ، ولكن هذا شغله عن قضية بناء الدولة ، و لم يضع تصوره عن الدولة ، ولكن يمكن أن

نستخلص أفكاره الرئيسية من كتاباته ، فهو على نقيض ما ادعى المستشرقون لم يكن يهدف إلى «جامعة اسلامية» أو «خلافة إسلامية» أخرى ولكنه كان يدعو إلى «كومنولث إسلامى» أو حتى غرس الحكم الإسلامى فى دولة واحدة تكون البداية وتصور أن السبيل إلى ذلك هى الثورة الشعبية التى تقودها النخبة المؤمنة ، وليس ما يقدمه الحكام . وبالنسبة للحاكم ، فإنه أراد «تاجاً بدون رأس ، أو رأساً بدون تاج» أى ملكا دستورياً يملك ولا يحكم أو رئيس جمهورية لايدعى الملك أو التاج .

أما محمد عبده فقد تحول من الثورية إلى الاصلاحية فى أعقاب فشل ثورة عرابى ولم يدع يشغل نفسه ببناء الدولة ، ولكن باصلاح الدولة ، وربما شغل عن هذه أيضاً بتنقية العقيدة من الغشاوات التى زحفت عليها .

وقدم لنا «الكواكبى» صورة لملتقى شعبى للمسلمين فى مختلف دول العالم «مؤتمر أم القرى» استعرض وجوه النقص ، وكيف يمكن اصلاحها وكان قد ندد فى كتابه الأول «طبائع الاستبداد» بالحكم الاستبدادى المطلق ، ولكن لم يضع لنا تصوراً محدداً للدولة الاسلامية .

وأعاد حسن البنا الفكرة الجهادية إلى الدولة الإسلامية بعد أن كادت اصلاحية محمد عبده أن تنسيها وأراد صيغة تجمع بين النهج الديمقراطى والطبيعة الجهادية للدولة الإسلامية . والقضية فى حسن البنا هى أن اغتياله المبكر — وبدون انتظار — وهو فى قمة العطاء ، حال دون أن يقدم اضافته كاملة .

وتوفر للدكتور حسن الترابى عناصر لم تتوفر لغيره فهو أصلاً ابن الأخوان المسلمين ، على يديهم تدرب وفى مدرستهم نشأ . فألم بخبراتهم ثم سار حيث وقفوا ورُزق ملكات شخصية ، ومواهب ومستوى ثقافى اسلامى وعصرى . ولعله يكون أقرب الزعماء الإسلاميين إلى التصور الأمثل للدولة الإسلامية .

وخلال دراستنا للدعوات الاسلامية اكتشفنا أن زعماء الدعوات الاسلامية الذين يتبعهم الجماهير يصبحون هم أنفسهم اتباع الجماهير ! بمعنى أن الزعيم الذى يتوصل بحكم الدراسة والتأمل وسعة الاطلاع والمقارنة إلى فكر أكثر تقدماً من المستوى

الذى عليه الجماهير أو الحالة النفسية التى تسمح لهم باستيعابه ، يتردد فى اعلانه لأن اعلانه سيكون على حساب الطاعة العمياء والتسليم ، وقد يفسح مجالاً لأعدائه للكيد والنقد . وقد عزل عمر بن الخطاب بعض ولاته لأنه على ما قال – «كرهت أن أحمل الناس على فضل عقله» . وهذا ما يؤدى بنا إلى نتيجة قد تثير الدهشة ، **هى أن زعماء الهيئات والدعوات الاسلامية قد لا يكونون أقدر الناس على اعلان الصورة المثلى للدولة الإسلامية لارتباطهم بمستوى جماهيرهم وفهمها التقليدى ، وان الذى يمكن أن يقوم بذلك هم المفكرون** . ومرة أخرى اننا قد نجد المفكرين ولكننا نجد لدى معظمهم وشائج تربطهم بالنظام الحاكم أو الهيئات القائمة أو غيرها من الالتزامات التى تحد من حريتهم . **وتصل المأساة إلى قمتها . فعندما نجد أخيراً المفكر الحر نجد أنه لا يستطيع توصيل فكرته إلى الرأى العام لأنه مادام حراً فيغلب أن تعزف عنه الهيئات** والمؤسسات القائمة ، ومن ثم تقيم حوله سداً من التعتيم ، ولا يستطيع فكره أن يصل إلى الناس أو أن يمهد الطريق أمام زعماء الهيئات ليجددوا . ونحن من سنة ٤٦ نقول «لا تؤمنوا بالايمان . ولكن آمنوا بالإنسان»[1] أو «الإسلام يريد الإنسان بينما يريد الفقهاء الإسلام»[2] دون أن نجد صدى فى حين أن هذه هى أهم مفاتيح التجديد فى فهم الإسلام .

لابد من نظرية :

استعرضنا حتى الآن تجارب الدول الإسلامية فى العصر الحديث ، ورأينا أن من أبرز أسباب فشلها العجز عن تقديم الرؤية السليمة للدولة الإسلامية للملابسات التى أحاطت بقياداتها . فإذا أردنا أن ننتقل من هذا الشق السلبى إلى شق ايجابى ، فإن أول خطوة فيه – ولعلها أهم خطوة – هى ارساء نظرية إسلامية عن الدولة .

وقد أشرنا اشارة عابرة فى فقرة سابقة إلى أهمية النظرية : والأمر يتطلب – فيما نرى – مزيداً من الإيضاح .

---

(١) أنظر فصل «فهم جديد للدين» من كتاب ديمقراطية جديدة للكاتب وقد صدر سنة ١٩٤٦ ص ٥٢ .

(٢) أنظر باب «عندما تتصافح الهداة» من كتاب «كلا ثم كلا» للمؤلف – ١٩٩٤ ص ٢٤٩ .

فالنظرية هي مجموعة المبادىء والقواعد والتوجيهات التي تنبثق من أصل واحد . ويتوفر لها بحكم هذا الأصل الواحد التناسق والانسجام ، ويستبعد منها التضارب والتضاد والتلفيق ، وعادة ما تكون من ابداع عبقرى يرى مالايراه معاصروه ، ويصل إلى مالم يصلوا إليه ، ويستطيع أن يجمع السابقين عليه والمعاصرين له فى صياغة واحدة محكمة ، ثم يضاف إليه — مع الزمن — أرتال من المفكرين .

خذ مثلاً النظرية الاشتراكية على اختلاف أطيافها — فقد كان لها دعاة مع بدايات القرن التاسع عشر ، مثل روبرت أوين وبرودون وفوريه وبلانكيه ... الخ ، ثم ظهر ماركس وانجلز وعاصره فى ألمانيا لاسال وليبنخت وببيل وكاوتسكى وبرنشتين وجاء بعدهم روزا لوكسمبرج وكلارازاتكن ، وظهر فى روسيا القصية بليخانوف — أول من نقل أعمال ماركس إلى الروسية ، واكسلرود ، ثم مارتوف ولينين وتروتسكى — وقبلهما — باكونين وكروبتكين وبعدهما بخارين ومدام كولونتاى . وفى انجلترا ظهر كيرهاردى ووليم مورس ومعهم سيدنى وبياترس وب وكول . وفى فرنسا ظهر جوريس وجيزده وفى ايطاليا تورانى وانجليكا بالابنوفا وفى بلجيكا والنمسا فاندرفيلد وادلر ، وفى الولايات المتحدة دانيل دى ليون ..

وكل واحد من هؤلاء الذين ذكرناهم من باب المثال لا من باب الحصر ، مفكر ، ومؤلف ومجتهد أو قل هو شيخ مدرسة داخل الاطار العريض للاشتراكية وله العديد من المؤلفات والمراجع والعديد من الدعاة والمريدين ، ولا يقتصر الأمر على هؤلاء إذ يوجد بجانبهم كتيبة من الفنانين والأدباء والشعراء الذين غطوا الساحة الأوروبية والأمريكية بالكتابات الاشتراكية بحيث تأثر المجتمع الحديث كله بدرجات متفاوتة بفكر اشتراكى .

وجاوزت الاشتراكية الحدود الأوروبية حتى وصلت إلى آسيا وافريقية فظهر ماوتس تونج وشيروهوشى منه وقضت على المشاعر «الشوفونية» فعندما كانت الحرب مشتعلة ما بين اليابان وروسيا (١٩٠٤/١٩٠٥) وقف كاتامى مندوب اليابان يصافح بليخانوف مندوب روسيا على منصة مؤتمر الدولية الثانية (امستردام ١٩٠٤)[1] .

(١) أنظر كتابنا لماذا يجب أن يكون للحركة النقابية المصرية عقيدة ص ٢٠ .

وخذ الرأسمالية . ففي فرنسا كان لها كيناى ، ثم ظهر آدم سميث وعرضها فى كتاب ثروة الأمم ١٧٦٦ عرضاً سائغاً دلل فيه على حسنات حرية العمل ، وسوءات أى تقييد أو تدخل ، وأبرز آليات السوق وكيف تعمل ثم تناول الرأسمالية ريكاردو ، وميل وبنثام وغيرهم فى بريطانيا ، وعشرات أو قل مئات الكتاب والاقتصاديين فى ألمانيا وايطاليا والولايات المتحدة الخ .

وجاء السياسيون ، فأقاموا الديمقراطية على الأسس الرأسمالية نفسها «الحرية» ونقلوها من المجال الاقتصادى إلى المجال السياسى حيث يحل «الحكم» محل «وازع الربح» والأحزاب محل الشركات ... الخ .

فإذا أريد قيام دولة اسلامية ، فلابد من نظرية اسلامية تقوم عليها الدولة وتعمل باستلهامها وفى ضوءها .

إننا لانكاد نعثر — فيما بين يدينا — على تنظير بمعنى الكلمة ، وإنما نجد تلفيقاً يجمع بين أفضل ما فى الرأسمالية والاشتراكية ويوظف أصحابه عدداً من الآيات والأحاديث لمساندتهم .

التلفيق لايجدى ، ومحكوم عليه بالفشل ، لأنه محاولة للجمع بين الأضداد .

والمبادىء المجردة أيضاً لاتجدى . فمثلاً ما معنى «اقامة ديمقراطية سليمة» التى جاءت ضمن المبادىء الستة لحركة ٢٣ يوليو سنة ٥٢ فى مصر . كيف يمكن اقامة هذه الديمقراطية وماهى هذه الديمقراطية . هل هى الديمقراطية الشعبية التى تدعيها النظم الاشتراكية أو هى الديمقراطية البرلمانية التى توجد فى الدول الرأسمالية وماهو الموقف من الأحزاب . ومن طريقة الانتخابات وسلطة المجلس ... الخ . إن جملة «اقامة ديمقراطية سليمة» لا تهدينا فى هذا كله ، ويمكن أن تقوم المعارك حولها وأن يدعيها أهل اليسار وأهل اليمين معا .. لأنه مبدأ مجرد .

ما يمكن أن يسمح به هو أن نظرية اسلامية لابد وأن تختلف عن نظرية ماركسية أو رأسمالية الخ .. ليس فحسب فى اتجاهاتها ولكن فى بنيانها نفسه . فكل النظريات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى وضعتها أوروبا ، وضعتها بتجاهل «الله» ، وفى

ظل هذا التجاهل أخذت تمرح وترتع وأخذ الفكر يطلق يمينا ويساراً ، يقيم الأبنية ويفرض الفروض ويتقصى الوقائع ويربط بين الأسباب والمسببات ... الخ ، مقيماً كل شيء على الواقع ، مستبعداً تماماً كل ما تثيره القيم والمثل . فاذا أريد اقامة نظرية اسلامية . فيفترض أن يختلف الأمر . وكما أن منظرى الاشتراكية يستشهدون بأقوال ماركس وإنجلز ولا يعاب عليهم هذا ، فإن النظرية الاسلامية لابد وأن تعتمد على شواهد من القرآن والحديث ، ولابد أن يكون «الايمان بالله» فى عمقها وصدارتها ، والا فانها لاتكون «اسلامية» ولا ينفى هذا أن تستخدم النظر العقلى والبحث العلمى فى الاطار الواسع للايمان الاسلامى . ومن واجب الباحث المسلم أن يرفض تماماً أى مبدأ أو حكم يخالف العقل مخالفة صريحة ، لأن الاسلام نفسه يأمر بذلك .

ولا يعيب النظرية الإسلامية أن تكون اسلامية أو أن ترصع فصولها بآيات وأحاديث . فالاسلام لا يقل عن الاشتراكية أو غيرها وما يعيب النظرية الإسلامية هو أن تكون مهوشة أو تقوم على مفاهيم تراثية ، لأن النظرية الاسلامية يفترض أن ترتكز على القرآن نفسه ، وأن يكون القرآن – وليس السنة – هو الأساس ، وإنما أوتى المفكرون الاسلاميون من ناحية أنهم اعتمدوا على السنة بالدرجة الأولى ، ثم على الأحكام السلفية التى خضعت لمناخ عصرها .

واصطحب التعلق بفكر الاسلاف والجرى وراء حكم أحد الأئمة بالعزوف عن الثقافات الحديثة بفكرة أنها ليست «إسلامية» وفات المفكرين الإسلاميين المعاصرين أن القرآن والحديث يأمران بالتماس الحكمة حيثما كانت ، وطلبها «ولو فى الصين» والمفروض مع هذا الأمر أن يحرص المفكر المسلم – وهو يضع نظرية اسلامية للدولة – أن يلم بكل النظم السياسية ، بدءا من قدماء المصريين حتى النظم السياسية المعاصرة . وعليه أن يعلم أنه وهو يقوم بذلك إنما يطبق التزاماً إسلامياً . وعندما يقول القرآن «إن الدين عند الله الاسلام» فذلك لأن الإسلام يستوعب كل الأديان وعندما نؤمن بأن الرسول هو آخر الرسل ، فإننا نحتوى كل الرسل السابقين بل لعلنا نكون أقرب إلى بعضهم من اتباعه مصداق ما قال الرسول عن موسى «نحن أولى به منهم» .

فهذا الفهم الذى يتفق مع أصول الإسلام وأوامره هو الذى يكفل لنا الالمام –

أو قل الاحكام — بكافة النظم السياسية وأبعادها وقضاياها ، وهو الذى يخلصنا من المأزق الذى وقع فيه بعض المفكرين الإسلاميين الذين لم يفهموا «العلم قال الله قال رسوله ...»[1] . فإن الله والرسول أمرا وأكدا السعى وراء الحكمة والحرص على المعرفة والسير فى الأرض وتعرف أخبار السابقين .

يفترض اذن فى النظرية الإسلامية عن الدولة أن تقوم على نصوص من القرآن الكريم بالدرجة الأولى ، وأن يتوفر لها إحكام البنيان النظرى ، بمعنى أن لا تكون ذات طابع تلفيقى أو تراكمى ، وانها وان اختلفت فى البنيان والاستدلال عن النظرية الأوروبية ، فإنها لا تتناقض معها ضرورة . لأن قاسما مشتركا يجمع بينهما هو العقلانية . والاختلاف هو أن عقلانية الإسلام تمتد إلى ما بعد الحياة الدنيا ، بينما تقف العقلانية الأوروبية عند الحياة الدنيا ، وأن العقلانية الإسلامية ذات صيغة خيِّرة فى حين أن العقلانية الأوروبية محايدة ، ليس لها لون وقد تستخدم فى الخير ، كما تستخدم فى الشر .

وهناك بالطبع كتابات عديدة عن الدولة الإسلامية وبعضها ثمين ونفيس ، سواء كانت هذه الكتابات تأريخا أو عرضا أو نقداً .

ولكننا قد لا نجد «نظرية اسلامية للدولة» .

فى كتابنا «رسالة إلى الدعوات الإسلامية من دعوة العمل الإسلامى»[2] . عرضنا لنظرية دعوة العمل الإسلامى التى تقدم رؤية الإسلام للحياة — ومن ثم للدولة والمجتمع الإسلامى — آخذة نقطة الانطلاق من الاستخلاف الإلهى للانسان ، كما جاءت به آيات سورة البقرة (٣٠ — ٣٧) وغيرها ، فقد شاء الله تعالى أن يجعل آدم خليفة فى الأرض وهذه الواقعة تتضمن مبدأين : الأول كرامة الإنسان ، فما كان الله تعالى يضفى على الإنسان كرامة أعظم من أن يجعله خليفته على الأرض ، وعلى هذا فيفترض فى الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامى أن تكون كرامة الإنسان بارزة ومحققة

(١) شعار السلفيين ونظرتهم إلى العلم .
(٢) أصدرته للمؤلف دار الفكر الإسلامى بالقاهرة — ١٩٩٢ .

فى كافة المجالات وهذا أمر لا نكاد نجد له اثراً فى تجارب الدولة الإسلامية فى العصر الحديث التى أشرنا إليها فى القسم الأول من هذا البحث . والمبدأ الثانى الذى تتضمنه واقعة استخلاف آدم هو العمل ، لأن مضمون الاستخلاف هو استعمار الأرض واحياء مواتها واستخدام موادها ... الخ . وتوضح الآيات السبب الذى جعل الله تعالى يستخلف آدم . وليس الملائكة . ان السبب هو أن الله تعالى علم آدم الأسماء كلها أى أعطاه مفاتيح المعرفة والعلوم ولم يفعل ذلك للملائكة فأصبح آدم يعلم مالا يعلمون ، وأمر الله تعالى الملائكة بان يسجدوا لآدم لهذا السبب . هذه الواقعة تدل على قداسة العلم والمعرفة وان رفعة الإنسان ترتبط بها ، وكأن سجود الملائكة لما علم آدم وجهلوه تصوير لاستسلام قوى الطبيعة ، وطاقاتها لعلم الإنسان .

وفى سياق متصل ومباشر تظهر الآية رفض ابليس السجود لآدم لظنه أنه أفضل من آدم «خلقتنى من نار وخلقته من طين» وان الله تعالى عاقبه بالطرد فطرد من الجنة ونزل إلى الأرض مع آدم ليكون عدواً له ويظهر كقوه تمثل الشر . وقد سمح الله تعالى بوجوده ، بل وباستخدامه لقواه العديدة : لاغواء الإنسان ، ولكن الله تعالى سلح الانسان بالعقل وبالدين . وأصبحت الحياة صراعاً بين الخير والشر ، بين الأديان والشيطان . ولا يكون لهذا الصراع من معنى إلا عند توفر حرية الاختيار للانسان ، **﴿ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها﴾ ، ﴿ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين وهديناه النجدين﴾** .

وقد يسخر مفكر «علمانى» من فكرة الاستخلاف ويرى أنها فرض لا أصل له ، لأنه لا يؤمن بالوحى ، ونحن نقول له إن مضمون الاستخلاف يتفق مع مضمون التطور والانتخاب الطبيعى الذى جاء به داروين والصراع الجدلى الذى قام عليه فكر هيجل وماركس لأنهما معاً. (فكرة الاستخلاف وفكرة التطور والصراع) ينتهيان إلى سيادة الانسان بحكم ملكاته ومواهبه ، واستطاعته تسخير طاقات الطبيعة ، وهو مايقوله القرآن بلغة الخطاب الدينى الذى يختلف عن لغة الخطاب العلمى ولكنه ينتهى إلى النتيجة نفسها . وقد تختلف أدوات البحث فى الدين عنها فى العلم ولكنها لا تنتهى إلى نتائج تضاد ما يمكن أن يصل إليه العلم اليقينى .

وقد يسأل سائل ، ولماذا هذا كله ؟ والرد لكيلا تكون الحياة تجربة بلهاء ، وليوجد بين الملائكة التى تمثل البراءة ، والشيطان الذى يمثل الشر كائناً يستطيع أن يختار طريقة وان يؤثر الخير على الشر ، ويقاوم الاغراء ويصمد للارهاب ... الخ . وبهذا يصبح لحياته مبرر ، كما يوجد معنى للحياة نفسها .

وما يعنينا فيما نحن بصدده هو الحرية ، وإنها مقوم من مقومات الحياة والمجتمع والدولة فى التصوير الاسلامى .

وبهذا نخلص إلى دولة قائمة على الاستخلاف الإلهى للإنسان ، ومنبثقة من طبيعة التصوير القرآنى للحياة الإنسانية ، ومقوماتها هى كرامة الانسان والعمل والعلم والحرية ينظمها وينسق بينها العدل .

وقد يوجه نقد كثير لهذه النظرية ، ولكنه لا يدخل فيه أن هذه المقومات ليست من الإسلام ، إنها منقولة نقلاً عن الآيات القرآنية ، وما قدمناه هو تفسير لها . كما لا يمس أى نقد انها فى مجموعها أصلح ما يمكن أن تقوم عليه دولة ، وأنها قامت بالفعل فى دولة النبوة ودولة الخلافة .

تحديات أمام الدولة الإسلامية :

إذا رفض تصور دعوة العمل الإسلامى الذى قدمنا آنفاً فسيكون على دعاة الدولة الإسلامية مجابهة هذه التحديات :

١ — كرامة الإنسان :

هذه قضية أنسيت تماماً فى معظم الكتابات عن الدولة الإسلامية ، وأحل محلها «العبودية لله» كما انسيت عمليا فى تجارب الدول الإسلامية الحديثة فالمواطن المسلم يكاد يكون «شيئا» بل ويكاد يكون أرخص الأشياء . ولاداعى للمماحكة فهذه هى الحقيقة المؤلمة الواقعة . ولابد أن تتغير هذه الصورة ، فتقوم الدولة الإسلامية على أساس كرامة الإنسان التى قررها الإسلام عندما جعل الله تعالى الإنسان خليفته على الأرض ، ولابد

أن يتم هذا عمليا ، وأن يضم «جسم» الإنسان الذى يجب أن يحفظ من الأذى و «نفس» الإنسان وفكره وضميره[1] .

ويمكن للدولة الإسلامية أن تسترشد بتطبيقات هذا المقوم فى الدول الأوروبية . والنقص الرئيسى فى هذه التطبيقات هو أنها ليست «موضوعية» بحيث تنطبق على الجميع إذ يغلب أن يتمتع بها تماماً مواطنو الدولة ، وتنتقص بالنسبة للآخرين .

٢ - قضية الحرية :

لا نجد فى الكتابات الإسلامية تأصيلا لمفهوم الحرية . ولما كان الفهم - السلفى - التقليدى - هو السائد فمن الطبيعى أن يكون هناك عزوف عن الحرية ، وأنها باب البدع والأهواء . وما يتردد فى الكتابات الإسلامية الحديثة عن الحرية يجب أن يؤخذ بحذر ، إذ أغلب الظن أن المقصود به «حريتهم» وليس حرية الآخرين . وقد امتحن الفكر الإسلامى فى قضية الردة ، كرمز لحرية الاعتقاد فسقط سقوطاً شنيعاً ، وكرر ما قاله السلف ...

ومن لمعلوم ضرورة جحد ...

من ديننا يقتل كفراً ، ليس حد !!

ولعل الوحيد الذى يمكن استثناؤه من هذا هو «الغنوشى» الذى نجد فى كتاباته ايماناً بالحرية بالدرجة المطلوبة . وقد تساورنا الشكوك فى مدى صدقها الموضوعى . لأن بعض مواقف كاتبها قد تتعارض مع مضمونها . ولكن من حقه أن نذكر له ما سجله عن الحرية .

لقد آن للمفكرين الإسلاميين أن يعلموا أن أفكارهم عن تقييد حرية الفكر - كائنة ما كانت - تخالف - فيما نرى - مخالفة تامة صريح القرآن . وأنهم إذا تمسكوا بها فسيجنون على الدولة الإسلامية المنشودة ، لأن أى نظام يراد له البقاء ، لابد وأن

---

(١) لقد عالجنا مضمون كرامة الإنسان فى كتابنا رسالة إلى الدعوات الإسلامية ، بشىء من التفصيل [ص ٢٦٤ - ص ٢٧٠] . وطبع فى رسالة خاصة حملت اسم «ركائز الأصولية الإسلامية» .

يتقبل الحرية . وقد كان نقص الحرية هو السبب الرئيسى لانهيار الاتحاد السوفيتى الذى كان لديه كل شيء – إلا ها .

ويدخل فى مضمون الحرية ، حرية الفكر والاعتقاد وطبع الكتب واصدار الصحف وتأليف الأحزاب والنقابات والجمعيات والنوادى وحرية الاجتماعات العامة والمعارضة السياسية . ويجب أن لا يفتات القانون بحجة التنظيم على جوهر هذه الحريات .

٣ – العـدل :

ا . ضمور الأحساس بالعدل وضحالته فى الفكر السياسى الإسلامى ، وفى تطبيق تجارب الدولة الإسلامية – هو من الظواهر التى تستلفت الانتباه . لأن العدل هو رمز الإسلام ، والمفروض أن يكون المسلمون هم أول الدعاة للعدل . وقد نهض الإسلام أول مرة بفضل ايمان «المستضعفين» ولانرى مبرراً لانتقاص دور العدل – أو حتى اغفاله – فى الدولة الإسلامية إلا الطبيعة البورجوازية لمعظم الدعاة الإسلاميين التى تنأى بهم عن قضية العدل .

ويفترض أن يكون العدل أصلا فى قيام الدولة ووضع القوانين والفصل بين فئات الشعب بحيث يحمى الضعفاء والفقراء والمحكومين من عدوان الأقوياء والأغنياء والحاكمين ، وأى قرار أو حكم يجافى العدل ، يعد هذا طعنا فى «أصوليته» يستوجب نقضه .

٤ – المرأة :

ما من مجال تحكمت فيه التقاليد باسم الإسلام ، كالمرأة . فقد استغلت بعض التوجهات العامة عن الزى والآداب والزينة لإقامة سجن للنساء ولإبعادهن عن الحياة العامة وحرمانهن من التعليم والعمل ، فضلاً عن الاختلاط بالرجال . وامتزجت التقاليد الموروثة – بالميول «الرجالية» .

ولا جدال فى أن المرأة فى الدعوات الإسلامية المعاصرة تتخلف عما كانت عليه

أيام الرسول فهى لا تغشى المساجد لأداء الصلوات والأعياد ، ولا تشترك فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — كما أراد لها الله . ولا تظهر زينتها للفئات الاثنى عشرة التى عددها القرآن ، وقد لا تُمنح نصيبها الشرعى من الميراث . وقد حضرنا ندوات فى الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وسويسرا عزل فيها النساء عن الرجال ، أو أقصين إلى مكان بعيد تصلهن بالمحاضرة دوائر تليفزيونية . وقد كان النساء يشهدن الصلوات فى المسجد ، ويتحدثن إلى الرسول ، ويتحدث اليهن الرسول وكانت المرأة ترد على عمر بن الخطاب فلا يملك إلا التسليم لها .

ولكن شيئاً من هذا لا يرد فى الممارسات الحديثة للدعوة الإسلامية . وقد تحكمت عوامل «سيكلوجية» وتقليدية بحيث أصبحت قضية المرأة احدى «عقد» الدعوات الإسلامية ، وأصبح الحجاب رمزاً للإسلام !

لقد تحدث القرآن عن الآداب العامة حديثا يعم الرجال والنساء ونهى النساء أن يكشفن عن صدورهن أو أن يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وهى توجيهات توحى الحشمة ، قدر ما توحى بأنها قدمت لزى معين وعادات معينة . ومعلوم أن قضايا الزى والأكل والشرب والعادات فى العلاقات الاجتماعية ... الخ . لا تدخل فى باب العقيدة ، وإنما تخضع لمضمون «العرف» الذى اعترف به القرآن عندما نص على «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» .

فدائرة الزى تخضع للعرف الذى يتغير بطبيعته مع تغير الأذواق والمفاهيم . أما دائرة الحقوق والواجبات فقد سوى فيها القرآن بين الرجال والنساء بآية صادعة «ولهن مثل الذى عليهن وللرجال عليهن درجة» ومعروف أن هذه الدرجة هى درجة القوامة المنزلية التى لا علاقة لها بالحقوق والواجبات العامة التى تحكمها آية المساواة .

ولا يخالجنا شك فى أن هذا الحديث المتكرر عن الحجاب والأهمية المزعومة التى تعطى له[1] هى من باب الطفولية الفكرية والتشنج الذهنى وأنها من أكبر عوامل تخلف المجتمع الإسلامى وتشويه صورته .

---

(١) فى بعض الحالات — كما فى كفاح الجزائر ضد الاحتلال الفرنسى — أخذ الحجاب سمة رمزية وأصبح كما لو كان علامة من علامات الكفاح . ويفترض بالطبع أن تنتهى هذه الصفة مع انتهاء معركة التحرير .

٥ — الفنون والآداب :

لم يستطع الفكر الإسلامى أن يحدد موقف الدولة الإسلامية من الفنون والآداب . فقد سبق إلى الأذهان أن هذه الفنون والآداب [سينما — مسرح — تليفزيون ... الخ] تفتح الباب أمام اشاعة الفحشاء والمنكر واستثارة الشهوات . وارتؤى أن الموقف «الطبيعى» هو اغلاق هذا الباب ومن ذا يمكن أن يدافع عن اباحة الفحشاء فى دولة اسلامية ؟؟ .

الأمر أكثر تعقيداً ، وله من الأبعاد والجوانب ما يصبح معه التصور السابق تصوراً ناقصاً ... فحتى عندما نسلم بأن بعض الفنون والآداب قد تثير الشهوات ، فإن هذا لا يتطلب بالضرورة اغلاق باب هذه الفنون ، لأن هذا الاغلاق قد يؤدى إلى مفاسد أكبر مما كانت موجودة قبله .

وقد يمكن للمفكرين الإسلاميين أن يستلهموا الصورة التى عرضها القرآن الكريم ، وأشرنا اليها للابقاء على ابليس والأذن له فى فتنة الإنسان واغوائه حتى يوم الدين — ليعرفوا أن المجتمع الإنسانى ليس هو الذى تنتفى منه أسباب الغواية ، ولكنه الذى تنتصر فيه الهداية على الغواية ، الإرادة على الهوى ولكى يتحقق هذا يصبح وجود هذه الغواية أمراً لازماً .

كما سيجدون الحل فى الوسيلة التى وضعها القرآن وهى «المقاصة» «واتبع السيئة الحسنة تمحها» «إن الحسنات يذهبن السيئات» وعفو الله تعالى عن «اللمم» على اختلاف فى التفسير تفسح مجالاً كبيراً للتأويل ، والقاعدة التى وضعها الرسول .. «ساعة ... وساعة» .

وهذه كلها «مؤشرات» تفترض وجود أسباب الغواية الصريحة — إن لم تتطلبها — وتحدد الموقف تجاهها ، وليس هو المنع ، ولكن المجاهدة «ليميز الله الخبيث من الطيب» فالأمر اذن أهون مما يتصورون .

وعلى كل حال فيمكن للدولة أن تكل كل ما يتعلق بالفنون والآداب التى يظن أنها من أسباب الغواية والشهوات الى الهيئات المدنية (مجلس محلى — بلدية ... الخ) بحيث

تنفض اليدين منه ، وهو أسلوب موجود فى كثير من الدول حيث نجد الأذاعة والتليفزيون إما فى يد شركات تجارية أو هيئات مدنية . وأهمية هذا التحول من الزاوية الإسلامية أن الشريعة تفرق بين ما يحدث بين الناس ، وما يرفع إلى السلطان . والحديث معروف «تعافوا الحدود فما بلغنى فقد وجب» . وهناك شواهد أخرى عديدة تدع الحكم على التصرفات بين الناس إما اليهم ، وإما إلى الله تعالى ، ما لم ترفع للحكومة .

أما فكرة مصادرة الفنون بحجة اثارتها للشهوات ، أو حتى البحث عن فنون بديلة لايوجد فيها عنصر الاثارة ، فأمور غير مجدية . ففى حال المصادرة سيبحث الناس عن وسائل بديلة . وفى حالة الفنون التى تخلو من عناصر الاثارة ، فإن الناس ببساطة ستتجاهلها لأنهم يستطيعون أن يجدوها أفضل فى الكتب . ولديهم القرآن الكريم الذى يمثل قمة الأعجاز الفنى والأدبى ، ولكن البشرية لاتعيش على طعام واحد ولا هى تخلص من تجاذب الشهوات «وخلق الإنسان ضعيفا» .

تطبيق الشريعة :

تطبيق الشريعة من التحديات التى رزقت شهرة كبيرة حتى أصبحت كأنها رمز الدولة الإسلامية . والشريعة — كما نراها — هى جماع القانون فيدخل فيها القانون الدستورى وما يتفرع عنه من نظم الحكم والسلطة والسياسة ، ويدخل فيها القانون الاقتصادى الذى ينظم المعاملات المالية والاقتصادية والانتاجية ويدخل فيها القانون المدنى الذى ينظم التصرفات المدنية على اختلافها ويدخل فيها أخيراً القانون الجنائى . والقانون الجنائى فى الشريعة الإسلامية ينقسم إلى قسمين القسم الأعظم يطلق عليه «التعزير» وهى عقوبات ترك للقاضى حرية التوصل إليها والقسم الأصغر وهو عقوبات نص عليها بالفعل فى القرآن الكريم ، وفى بعض الحالات ، فى السنة ومن ثم يطلق عليها «الحدود» أو العقوبات المقدرة .

فالشريعة مجال كبير لا يمثل القانون الجنائى الا جزءاً صغيراً منه ولا تمثل الحدود الا جزءاً صغيراً من هذا الجزء الصغير ، ومن ثم فإن هذا الدوى الذى تثيره الحدود لا يتناسب مع حقيقتها ، وقد أخذ ، مع المرأة والفنون ، طابعاً نفسياً مزاجياً تعصبياً تجعلها «شعارات» أكثر منها حقائق ، ويعطيها طابع «التشيؤ» ان لم يكن «التوثن» .

وداخل الحدود نفسها هناك اجتهاد ، فقد يرى البعض أن ليس لشرب الخمر حد ، فلا يوجد فى القرآن أو السنة ذلك . وقد وضع الحد فى عهد عمر والحدود كما قلنا «مقدرة» ، وقد استبعدنا كل ماقاله الفقهاء عن «حد الردة» إذا أريد بها ردة فكرية لأنها تتعارض مع الآيات العديدة التى تؤكد حرية الاعتقاد فى القرآن الكريم .

أما عقوبة الزنا ، فإن الرجم مطبق بمقتضى السنة على أن اشتراط رؤية أربعة للفعل بصورة صريحة بحيث إذا لم يتحقق هذا لدى واحد من الأربعة عوقب الثلاثة بعقوبة القذف ، ومحاولة المحقق ثنى المعترف عن اعترافه بكل الطرق (وهذا شىء لم يسمع به فى أى قانون أو تشريع قبل الإسلام) من ناحية أخرى — هذان يجعلان هذا الحد شبه معطل ، لا يطبق إلا على مثل ماعز الذى يأبى إلا أن يطهره الحد ، ويرفض كل محاولات ثنيه عن ذلك . ولعل هذا هو السبب فى أنهم ينالون الجنة .

النص الحقيقى الذى يعد أكثر النصوص ثبوتا وصراحة هو نص السرقة . وقد جاء النص فى القرآن بتعبير «والسارق والسارقة» ولاحظ بعض المعاصرين أن هذا التعبير قد لا يطلق على من يسرق مرة ، وإنما يطلق عادة على من ألف السرقة حتى أصبح سارقا[1] . وهو اجتهاد سائغ فيما نرى وان لم يطرأ للسابقين ولا حتى للرسول نفسه . ولكن هذه الحقيقة لا تطعن فى السلامة الموضوعية لهذه الشبهة ، وإنما هى تثبت شيئاً من اعجاز القرآن ، وان استخدامه على وجه التعيين — لصيغة ما إنما يعود لاحتمال قبول هذه الصيغة لتأويل آخر قد تمس إليه الحاجة فى وقت ما ، أو فى ظرف ما . والذى أؤمن به واعتقد أنه يتفق مع روح الإسلام هو أن لا يطبق هذا الحد على كل سرقة أولى ، وإنما ينظر فإذا كان فيها ملابسات تدعو إلى التغليظ فيمكن تطبيقه وإلا فيمكن درئه بشبهة التعبير . على أساس تطبيقه اذا انتفت الشبه ، بان عاد إلى السرقة وأصبح سارقاً .

ونحن نؤمن أن فلسفة العقوبة فى الاسلام أفضل من فلسفتها فى القوانين الوضعية من كافة النواحى فهى شخصية ، بمعنى أنها توقع على شخص الجانى ، وهى رادعة

(١) ويقاس على النص تعبير القرآن : والزانية والزانى .

بمعنى أنها تردع الآخرين وهى ناجزة ومباشرة . ولئن مست كرامة الفرد فالبادىء أظلم أما قسوتها فلعلها أرحم من السجن الطويل وتقييد الحرية وتعطيل الغريزة ... الخ .

ويمكن انشاء محاكم صلح تطبق مبدء تعافوا الحدود فيما بين الناس قبل أن تصل إلى السلطان .

وكما قلنا فى مستهل الفصل ، فإن الشريعة مجال كبير جداً ، ومن الظلم الشديد أن يرمز لها «بالحدود» كما أن من الظلم للحدود أن ينظر إليها النظرة السلفية التقليدية الضيقة . ولو طبقت الشريعة حقا لما كان هناك حاجة للحدود [إلا على سبيل الاستثناء وبالنسبة لحالات فردية وشاذة] لأن قوام الشريعة هو العدل . وإذا تحقق العدل انحسمت إلى حد كبير شأفة الجريمة ..

كلمة أخيرة :

إن فشل تجارب اقامة دولة اسلامية فى العصر الحديث يثبت أن موضوع الدولة أعظم بكثير مما تصور معظم المفكرين الاسلاميين وان من الخطأ الفاحش الظن أن تعبيرات مثل «الحاكمية الالهية» أو «الجهاد» ... الخ ، تحل المشكلة إنها يمكن أن توجد حكومة لقبيلة بدائية تسلط السيف على المخالف وتبقربطن زوجته بحجة «لا حكم الا الله» ! كما لا يكفى مطلقاً ما جاء به ابن تيمية فى السياسة الشرعية . والماوردى فى «الأحكام السلطانية» فهذه كلها إنما تمثل رؤية لمناخ معين انتهى وطويت صفحته وقد نجد فيها بعض اللمحات ، ولكنها كما قلنا لاتصلح أساسا ولا تكون كافية .

إن الدولة فى العصر الحديث تنظيم معقد جداً وصعب للغاية ، وعلى من يتصدى له أن يلم تماماً بكافة أبعاده وأن يستفيد فى هذا الموضوع بعلوم الاجتماع والسياسة التى تعالج «السنن» التى يقوم عليها المجتمع الانسانى وأن يدرس النظم السياسية القديمة من قدماء المصريين حتى الدستور الأمريكى . وأهم من هذا كله فهم «روح» الإسلام وقيمه الأساسية ..

إن الأهمية الخاصة للدولة الإسلامية متأتية من أنها الدولة التى تستلهم قيمتها من الله والرسول ، وبالتالى يفترض أن تحقق الحب والخير والعدل والجمال وأن تبرأ من كل لوثات حكم الطغاه الذين استعبدوا الناس واستحلوا الحرمات وفى الوقت نفسه ، فانها كدولة لاتستطيع أن تحقق هذا كدولة قمع ، وسلطة ، ولكن كدولة رعاية وتوجيه تحمل «الكتاب والميزان» أى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة من ناحية . وتحقيق العدالة من ناحية أخرى .

وعندما تظهر الدولة التى تحقق العدل فى الاقتصاد ، والحرية فى الفكر ، والإيمان بالله كأصل للقّيم العظمى التى تضبط السلوك ، والعلم كوسيلة للتعرف على الحقيقة ، وتكون علاقة الحاكم فيها بالأمة كعلاقة العامل بالمؤسسة التى يعمل بها — وتنتفى منها كل صور الطغيان والاستغلال ، ويحس الشعب بالعزه والكرامة[1] .

عندئذ نقول : «**هاهى الدولة الإسلامية**» .

وإلا فلا ...

★ ★ ★

(١) نوجه الأنظار الى أن هذا كله من صميم القرآن والسنة ، وليس مستعاراً من الفكر الأوروبى الحديث ، وان كان الفكر الأوروبى قد جلاه بما أوتى من قدرات . وعلى كل حال فلسنا مصابين بدونية تجعلنا نتقوقع ، أو نعادى كل فكر آخر . فالأصل أن الحقيقة واحدة والأديان واحدة .

— ٢ —

اخوانى - الاخوان ...

وجدت نفسى منساقا لأن أكتب هذه الكلمات ...

هل السبب هو الغبار الكثيف الذى يثيره البعض حول الأخوان لاخفاء حقيقتهم ؟ أو تلك الحملة الضاربة ، والتيار المتدفق من الادعاءات الباطلة من أفراد وضعوا فى زمن « حزمنى يابابا » و « تكسب يا خيشة » ! على مقاعد الإعلام العالية ، وأخذوا يسودون السطور ، ويعلنون الأكاذيب ، ويكررون الزيوف والشبهات ، وينقلون الى الناس رؤيتهم عن التاريخ التى أخذوها من مسلسلات جعلت الراقصات بطلات ، والكباريهات ساحات كفاح ، وغرست فى المجتمع المصرى صورا وشخصيات لم يكن له بها عهد كالقهوة التى تكون مابين « الغرزة » والكباريه والمعلم والمعلمة و اللعوب التى تعمل لخداع الأزواج وخراب بيوتهم .. ناهيك بمناظر الشراب وسخريتهم بالمأذون ، وإمام المسجد ..

هل السبب هو أن هذه الهيئة الشعبية الكبيرة العريقة ، لاتجد وسيلة تدافع بها عن نفسها ، بينما تدق الطبول وتتعالى الأبواق وتدوى وسائل الاعلام بكلام حزب دَعّى لقيط لا يضم الا أصحاب المصالح وأبناء الأكابر ، وليس له من كفاح الا كفاح « الهبر » واستغلال النفوذ ووضع الأيدى على الأراضى ، واستقضاء العمولات واستيراد الأغذية الفاسدة ، وتمرير القوانين التى تكبل الشعب من قانون الطوارىء حتى قانون تعيين العمد وعمداء الكليات وقوانين النقابات والضرائب والتمغات ؟

هل السبب هو تلك العلاقة الشخصية بينى وبين الأخوان منذ أن نشأت الأخوان وأمضت سنواتها الأولى فى بيت الأسرة ، فتعرفت على الرعيل الأول ونشأت علاقات شخصية اقترن بها قدر من التحفظ .. كنت أصارح به الأمام الشهيد رحمه الله ، كما كنت أكتب به الى من عرفت ممن تولوا منصب الارشاد – كالشيخ الباقورى والأستاذ عمر التلمسانى رحمهما الله ، والأستاذ أبو النصر متعه الله بالصحة والعافية وكانوا جميعا يتلقون هذه الملاحظات بتقدير ، حتى وإن لم يعملوا بها ...

قد يكون هذا كله من الأسباب التى دفعتنى للكتابة عن الأخوان ، وشبح محنة جديدة تظللهم ، ولكن أهم منها جميعا ، أننى استكشفت أخيرا ، وخلال دراساتى السياسية قسمة جديدة للاخوان تجعل لهم أهمية خاصة بين الهيئات ، لم تحظ بالمعرفة ، حتى من الأخوان أنفسهم ، ومن ثم يتعين اعلانها ..

* * *

سواء رضينا ، أو كرهنا ، فإن هيئة الأخوان المسلمين تمثل ظاهرة فى المجتمع المصرى نادرة المثال .. فبقدر ما يهال عليها من ادعاءات ، وبقدر ما تحاول الحكومات – من فاروق حتى مبارك – الحجر عليها وتحريمها ، وبقدر ما أوقعه عبد الناصر بأعضائها فى سجونه ومعتقلاته من أهوال تنفطر لها القلوب وتجعل الشبان شيبا ، بقدر ما تزداد قوة .. وفى سجون عبد الناصر نفسه تحول «جيل الثورة» الى جيل الأخوان !

وقد بدأت الصحف أخيرا ترفق ذكر الأخوان بوصف «المحظورة» ! فأعادت الى الأذهان ذكر «المزعومة» التى كانت الصحف تقرنها دائما باسرائيل طوال الاربعينيات ...

كيف تكون الأخوان محظورة ، وقائد حركة يوليو أفرج عن أعضائها ، ثم ذهب يزور مرشدها فى بيته ويلتمس تأييده ؟!

كيف تكون محظورة وقد كان لها فى مجلس الشعب أكثر من ثلاثين نائبا .. ولولا التزوير لوصل عددهم فى المجلس الى المائة ؟

كيف تكون محظورة وهى تهيمن على النقابات المهنية ، ونوادى أساتذة الجامعات ، والأئمة فى المساجد .. وقد عجزت الحكومة — بكل هيلمانها — عن أن تحد من نفوذها وتأثيرها ؟

لماذا لانكون واقعيين ونطرح المغالطة والمكابرة ...

من وجهة النظر الشعبية ، ومن واقع ارادة الجماهير .. فإن الأخوان موجودة وليست محظورة .. والأجهزة التى تدعى حظرها هى المفروضة على الشعب .

* * *

ولو سألت الأخوان عن سر صمودهم لقالوا إنه الإيمان بالله ، والتجرد وتقبل التضحية وقلما يزيدون على ذلك لأنهم « لايركون على الله أحداً » .

وهو تعليل لانرفضه ، ونرى بالفعل أنه أحد أسرار قوة الأخوان ، ولكنه لايكشف عن كل جوانب الموضوع .

وزهد الأخوان فى الحديث عن أنفسهم ، أو التغنى ببطولاتهم ، الى درجة يخشى بعضهم الحديث عن بطولات شهداء فلسطين حتى لا يحبط عملهم أو يؤثر على خلوص نيتهم ، هذا المسلك جعلهم يهملون التأريخ لحركتهم أو تسجيل مواقفها ووضعهم فى المأزق الذى وجدت الحركة النقابية نفسها فيه عندما كانت — وهى أكبر الحركات الجماهيرية وأكثرها حيوية — لاتجد من يعترف بها جنبا الى جنب الحركات الدستورية والنظريات السياسية التى يعنى بها الأكاديميون وتدرس فى الجامعات ... ففى الحالين : حالة الأخوان وحالة النقابات العمالية ، نجد الاغفال من ذوى السلطان ، والتعتيم ممن لديهم الأضواء .. فى حين أن هاتين الكتلتين هما أكبر تكتلات الشعب وأكثرها تمثيلا له ، وقد كانت هذه الواقعة هى المفتاح الذى أدى الى استكشاف القسمة الشعبية للأخوان المسلمين .

وعندما ندرس تاريخ ظهور الأحزاب المصرية ، فسنجد أنها قامت على أكتاف مجموعات صغيرة من «النخبة» و « الصفوة » أو « البورجوازية الصاعدة » .. وهو

أمر طبيعى لأن هذه الفئات هى التى فى يدها الثقافة ، والمال ، والمناصب ، والمهن .. فهى المؤهلة للعمل ، وهى التى تملك مقومات نجاح هذا العمل .. أما دور الشعب ، فاما أنه كان محل تجاهل — كما فى حزب الأمة أو الاحرار الدستوريين — وكلاهم كان يمثل كبار ملاك الأراضى وبعض أصحاب الأعمال ، أو حزب الاتحاد الذى كونه نشأت باشا رئيس الديوان الملكى بايعاز من الملك فؤاد ، أو حزب الشعب الذى أسسه صدقى باشا فى الثلاثينيات .. بالنسبة لهذه الأحزاب لم يكن للشعب حساب مطلقا .. أما بالنسبة لحزب الوفد ، أو الحزب الوطنى ، فإن الشعب — ونعنى به الاغلبية الساحقة عددا والمسحوقة وضعا — من فلاحين يعملون فى الأرض ، أو عمال يشتغلون فى المصانع ، أو موظفين صغار تطحنهم آلة المدينة وأجهزتها .. هؤلاء لم يكن لهم مشاركة **فعلية فى قيادة الحزب ، بمعنى أن لم يمثل فى مجلس ادارة الحزب عامل أو فلاح أو موظف صغير !** .. وقد اعتبر وجود « أفندى » « الغرابلى » بين شخصيات الوفد البارزة أمرا إدًا ، ومنح الباشوية بمجرد تقلده الوزارة .. فقيادات الأحزاب — بما فيهم الوفد — كانت من الفئات البارزة فى المجتمع حتى وان كانت جذورها شعبية كسعد زغلول ، أو حافظ عفيفى ، أو ابراهيم الهلباوى ... ألخ فان الشُقة التى تفصل مابين « سعدالله » القروى بن جامع وصيف ، وبين سعد بك عضو صالون البرنسيسة نازلى فاضل ، وصهر دولة مصطفى باشا فهمى ، شُقة بعيدة جدا طمست كل الوشائج القروية .. وقل مثل هذا عن أخية « فتحى زغلول » ، أو عن ابراهيم الهلباوى الذى تزوج من احدى شركسيات القصر الخديوى ، (وكانت العادة أن يخصص لها ٥٠٠ فدان) .. وترافع ضد فلاحى دنشواى .. أو حافظ عفيفى الذى بدأ حياته طبيب أطفال وعضوا فى الحزب الوطنى ليكون فى النهاية مديرا للديوان الملكى ، وأحد أساطين الرأسمالية المصرية ... فهؤلاء جميعا نشأوا من صميم الشعب ، ولكن طموحهم سار بهم بعيدا ، ثم جاءت الزيجات والمناصب ، فعزلتهم تماما عن أصولهم .. ونحن نعلم أن نسبة كبيرة من المديرين اليوم هم أبناء فلاحين ، ضحى آباؤهم بكل شىء فى سبيل تعليم أبنائهم ، وقد تؤدى بهم الدراسة الى الخارج والتزوج من فرنسية أو انجليزية أو أمريكية .. وعندما يعود متأبطا ذراعها ليزور القرية فقد يجد أباه حافى القدمين وسط الطين ! .

وهكذا ، فإن أبناء الفلاحين لم يؤسسوا الأحزاب الا بعد أن اندمجوا فى البورجوازية الصاعدة وعاشوها ، وانقطعت الوشائج القديمة التى كانت تربطهم بالقرية ، وأصبحوا رموزا للبورجوازية ، ومن ثم فلم يكن هناك داع لا عملى ، ولا سيكلوجى لتمثيل الشعب فى قيادة الحزب .. وكل ماتريده الأحزاب من الشعب هو « التأييد » ، وقد قنع الشعب وقتئذ بهذا فأيد الوفد ، وصفق عاليا لسعد زغلول ، وأطاعه طاعة عمياء خاصة خلال مقاطعة «لجنة ملنر» ، وسار فى جنازته باكيا .. **كل هذا دون أن يكون له مشاركة حقيقية فى وضع السياسة أو اتخاذ القرار !**

وسعد زغلول نفسه كان سعيداً بان يكون زعيم حزب «الرعاع» . ولكنه ما كان ليقبل أن يكون احد الرعاع زميلاً له فى مجلس ادارة الحزب .

حتى العمال أنفسهم عندما كونوا حزبا ، لم تواتهم الشجاعة لأن يضعوا عاملا رئيسا له ، واختاروا البرنس عباس حليم رئيسا لحزب العمال !

كان هذا هو الدأب المقرر والمألوف

حتى جاء الأخوان فغيروا ذلك تغييراً جذرياً

كان رئيسهم معلما فى المدارس الابتدائية ، وظل معلما حتى استقال بعد خدمة قرابة عشرين عاما دون أى ترقية ! وأطلقت عليه صحف الوفد «معلم خط» وقامت الهيئة التأسيسية ، ومكتب الارشاد ، على عناصر شعبية خالصة من مزارعين أو صغار المهنيين والموظفين ، ولم يكن فيهم «بك» أو «باشا» !

وقد استغرب الضابط « جمال سالم » قاضى محكمة «الثورة» التى حاكمت زعماء النظام الخاص فى أعقاب المحاولة الملفقة لاغتيال عبد الناصر بميدان المنشية ١٩٥٤ أن يكون رئيس النظام الخاص — وهو يوسف طلعت — نجارا .. وسأله : أنت نجار وتحت يديك مهندسين ومحامين ازاى ؟ فقال له يوسف طلعت : إن سيدنا نوح كان نجارا ... .

وهى محاولة تمثل المنطق الطبقى والمنطق الدينى ...

وأعتقد أن الذنب الكبير الذى لم يغتفره المجتمع السياسى المصرى للأخوان هو أنهم وضعوا تجارين وفلاحين ومعلمى الزامى وصغار موظفين فى مناصب قيادية للعمل العام[1] وأرادوا لهم أن ينافسوا باشوات مصر .. أعضاء كلوب محمد على وصالونات الارستقراطية حيث تسوى الأمور بين «الاكسلانسات» من صاحب سعادة أو صاحب دولة ، وبك أو باشا ، ومالك الأراضى أو رجل الأعمال ، وحيث يوجد من المتمصرين مايعادل المصريين ، أو يفوق ، ويجرى الحديث بالعربية والفرنسية !

وقد كانت هذه الطبيعة الطبقية جديرة بدراسة المؤرخين الاجتماعيين ، وبوجه خاص الماركسيين أنصار «الطبقات الكادحة» و «الديمقراطية الشعبية» ... ألخ لولا أنها ارتبطت بالإسلام .

وهذه – أى الارتباط بالإسلام – قسمة أخرى ، لم تبعد الأخوان عن الشيوعيين ، الذين يستبعدون الدين من بين القوى المؤثرة فى المجتمع ، فحسب ، بل أبعدتهم أيضا عن البورجوازية (أو العلمانية) التى ارتبطت بها الأحزاب المصرية ، وكانت تريد أن تفسح المجال أمام الرأسمالية والليبرالية ، أى الحرية ، سواء كانت اقتصادية أو فكرية ، ووجدت أن الاسلام سيكون قيدا على الحرية فركنته فى ركن قصى من أركان المجتمع ، ونجحت فى هذا عندما هيمنت على ثورة ١٩١٩ ، ووجدت فى سعد زغلول رجلها القوى الذى أعلن شعار « الدين لله والوطن للجميع» وسادت الليبرالية/ العلمانية المجتمع المصرى خلال العشرينات والثلاثينات ، حتى جاء الأخوان فى الأربعينيات فاستنقذوا الاسلام من ركنه القصى : الزوايا والجوامع ، الطرق الصوفية ، وزارة الأوقاف والوعاظ ، والأزهر ، ودفعوا به الى صميم الحياة ووسط المدينة والجامعات ... ألخ وجعلوه منهج حياة .

---

(١) قد يلحظ البعض أن عددا محدودا من «البورجوازية» اتصل بالأخوان بعد أن ذاعت شهرتهم واكتسبوا قوة ونفوذا ، وكانت سياسة الأمام الشهيد حسن البنا أن يحتويهم شخصيا ويحول بينهم وبين قيادة الحركة من ناحية وشبها وجمهورها من ناحية أخرى ، وقد أساء البعض فهم هذه السياسة أو تصور أنها تكريم خاص ، أو تقريب لهم .

وهذا هو الذنب الثانى للاخوان الذى جمع عليهم عداوة البورجوازيين والشيوعيين معا ، وما أقل مايمكن أن يتفق عليه هؤلاء .

والذى فات الأخوان أنفسهم — حتى الآن — أنهم عندما جعلوا الإسلام محور دعوتهم ، فانهم كانوا يصدرون عن ايمان موضوعى بالاسلام من ناحية ، وعن دافع وطنى لاشعورى عميق ينبثق عن الطبيعة الايمانية لمصر ، ويتفق — بالتالى — مع طبيعتهم الطبقية الشعبية ، فهم كانوا أكثر اخلاصا للشعب واتساقا مع طبيعة مصر من البورجوازيين الذين أرادوا فرض مصالحهم على المجتمع المصرى أو الشيوعيين الذين أرادوا فرض فكر غريب مستورد على مصر .

هذان هما الذنبان الكبيران للاخوان .. ومن وجهة النظر البورجوازية الارستقراطية ، فليس هناك ماهو أشد خطورة عليهم منهما .. فكيف يسمح لاصحاب الجلاليب الزرقاء من الفلاحين ، أو الأيدى الخشنة من العمال أو صغار الموظفين المعذبين بهموم الحياة المدنية ، بمنافسة الباشوات وأصحاب المصالح الحقيقية (كما قال صدقى باشا !) .. وكيف يمكن السماح بأن يعود الإسلام محورا للحياة فيلزم الأقتصاد والسياسة فيما وواجبات تعد قيدا على حرية عملها ، أو قل استحوازها واستغلالها ؟

وكيف يؤمن الماركسيون الذين شابهوا البورجوازيين فى أنهم أصحاب اشتراكية الصالونات والكراسى الوثيرة ، وأبناء الباشوات وبنات الطائفة الاسرائيلية ، بهؤلاء الأجلاف المسلمين ؟!

هذان هما ذنبا الأخوان ، ومن أجلهما أصلتت عليهم السيوف ، وأشهرت الأقلام ، وزج بهم فى السجون .

أما مايدعونه من اتهامات ، فهى محض هراء ..

خذ مثلا الإرهاب !

إنهم لايفتأون يتحدثون عن الأرهاب والنظام الخاص الذى وضعه الأمام الشهيد حسن البنا فى الثلاثينيات .. والحقيقة أن الأمام الشهيد رحمه الله شاهد الجيش المصرى

الذى اراده الانجليز جيش تشريفات ، وشاهد الميوعة وهى تزحف فى على الشباب ، فأراد لهم قدرا من الرجولة والصلابة والإيمان ، وتحمل المشاق والتضحيات ، والتربية تربية رياضية/ عسكرية .. وكان يضع نصب عينيه أمرين :

الأمر الأول — وجود ٨٠ ألف عسكرى انجليزى فى البلاد من قصر النيل والقلعة حتى الصعيد ومناطق القنال التى كانت «معسكرا» بريطانيا خالصا ، وأنه لابد من أن يأتى يوم لمناجزة هذا الجيش .

الأمر الثانى — الذى كان نصب عينى الأمام الشهيد وهو يؤسس النظام الخاص ، ظهور الصهيونيين وزحفهم على فلسطين والسياسة البريطانية التى كانت تمالئهم وتمكن له ... **وفى هذه النقطة كان الوعى الايمانى أهدى سبيلا من الوعى السياسى الذى لم يكن ليتبين بالضرورة الأبعاد الخطرة لمثل هذه القضية** ، مما جعل أحد رؤساء الوزارات المصرية يقول وهو يهز كتفيه «إننى رئيس لوزارة مصر وليس لوزارة فلسطين !» .. وجعلت رئيسا آخر يرفض شراء عدد من الدبابات أراد الانجليز التخلص منها بأبخس الأثمان .. ومعروف أن الاسرائيليين كان لهم وجود مكثف فى المجتمع المصرى خلال فترة الاربعينيات وظهر منهم وصيفة الملكة ، ووزير المالية ، وكان كبيرهم عضوا فى المجمع اللغوى ، وكان لهم جمعيات تجمع الاعانات للمهاجرين اليهود الى فلسطين ، وكانت شركة الاعلانات الشرقية فى يدهم ، فضلا عن سلسلة من المحال الكبرى (شيكوريل/ بنزايون) «وصحتها بن صهيون» الخ .

كانت هاتان الحقيقتان المصيريتان : وجود الجيش البريطانى فى قلب مصر ، وزحف الصهيونيين على حدود البلاد ، فى ذهن حسن البنا عندما أسس النظام الخاص ، وأتخذ له أقرب صور التنظيم الى الرياضة والعسكرية وهو «الجوالة» ، ومن خلاصة الجوالة بدأت نواة النظام الخاص .

وقبل أن يستشهد الأمام ، بدأت المعركة فى فلسطين ، وأفسح الاحتلال البريطانى ، بل وقيادة الجيوش العربية التى كان يرأسها الملك عبدالله وقائده الجنرال جلوب ، لليهود ، ومكنتهم من مواقع ليهزموا جيش مصر ، وكانت القوة البارزة فى

هذه المعركة هم الأخوان المسلمون الذين هزموا الاسرائيليين فى كل موقعة حتى صدرت أوامر النقراشى باشا رئيس الوزراء المصرى ! بسحبهم من ميدان القتال الى معسكر الاعتقال !! وانفسح المجال لليهود ، فتصور جريمة السياسى المصرى الذى أمر بذلك ، ومكن لليهود ، وماترتب على هذا الاجراء الخاطىء — أو الخائن — من تطورات بعيدة المدى على مستقبل البلاد .

وكان من بين الذين أشرفوا على تدريب «النظام الخاص» عدد من الضباط منهم «جمال عبد الناصر نفسه» وقد ردوا له هذا الجميل عندما استنقذوه من أسر الفالوجا .

ثم جاء دور الكفاح الوطنى فى منطقة القنال ، وحمل الأخوان عبأه وأسماء المنيسى وشاهين وغيرهما من شهداء الأخوان شاهدة على ذلك .

يقولون الاغتيالات ...

ويذكرون أولا اغتيال الخازندار ثم اغتيال النقراشى وماتلى ذلك من تفجيرات الشركات اليهودية ... ألخ .

أما اغتيال الخازندار فقد كان اجتهادا خاطئا وعملا غير مسئول .. وغضب له الأمام البنا أشد الغضب .. وحاولت دوائر النظام الخاص علاج هذا الخطأ بطريقتها الخاصة مما لا يتسع المجال هنا لشرحها .. وقد يكون فى الأخوان عيوب عديدة ، ولكن ليس منها الكذب والخداع ، وقد اعترفوا بخطئهم .

أما اغتيال النقراشى ، فإن النقراشى نفسه كان — بالتعبيرات السائدة — ارهابيا كبيرا وعضوا مسئولا ، إن لم يكن رئيسا ، فى عمليات اغتيال الضباط الانجليز خلال ثورة ١٩١٩ ، وفى أعقابها .. وقد صدرت عليه أحكام من محاكم انجليزية !

قد يقولون إن اغتيال الانجليز بطولة ، أما اغتيال المصريين فهو نذالة . وهذا منطق عنصرى بحت ، لأن المعول عليه عند اصدار الأحكام هو العمل ، فإذا كان المصرى ظالما أو خائنا ، فان مصريته لاتشفع له .. وإذا كان الانجليزى أمينا وعادلا فإن انجليزيته لاتضره ، ولا يمكن أن نسمح للعاطفة الوطنية ، دون أن نضبطها بالعقل والمنطق ، باصدار الأحكام !

وكان النقراشي شخصيا عنيداً كنوداً[1] ضيق الأفق ، ينظر الى الوزارة كما لو كانت مدرسة هو ناظرها والحاكم بأمره فيها . وتحدى ارادة الشعب عندما حل أكبر هيئة شعبية لها عضو فى كل قرية ، وكل حارة ، وأعمت العداوة السياسية ومنصب الحاكم العسكرى عينيه عن معان واعتبارات كبرى ، وسن سنة الاعتقال الجماعى ، ورفض مساعى الصلح ، وفضلا عن هذا كله مكن اليهود من الاستحواز على فلسطين عندما أصدر أوامره بسحب القوة التى كان يمكن أن تصدهم ، وهذه كلها تصرفات يجب أن توضع فى الحسبان عند الحكم على قضية اغتياله ، ولعلها يمكن أن تنهض عذرا لقاتل النقراشي على أساس أن الشعب عندما يستبد به حكامه ، ويغلقون أبواب أى مسعى لتصالح أو حوار ، فلا يكون أمامه سوى اللواذ بصور من العنف أو القوة لاتعد سليمة من ناحية المبدأ ، ولكن قد تعد ضرورية بحكم الظروف والأوضاع العملية ، وقد توضح ذلك كلمة الأستاذ عبد العزيز الشوربجى نقيب المحامين عندما قال «ألا يوجد فى مصر رجل ، رجل واحد ، يخلصها ويخلصنا جميعا من هذا الفرعون !»[2] .. فاذا كان مثل هذا القانونى الضليع يقول هذا عن السادات الذى حاز نصر رمضان وفتح المعتقلات ، فقد يكون لعبد المجيد حسن عذر فى ارتكاب جريمته ، وهو بعد لم يقم بها ابتغاء مغنم ، أو كان فى ذهنه الفرار .. إنه انما قام بها محتسبا دماءه فى سبيل الله والوطن .

فاذا تعاظم ذلك بعض الكتاب ، فأرجوا أن يقرأوا تاريخ حركة ٢٣ يوليو

---

(١) عندما كان النقراشي وزيراً فى وزارة الوفد سنة ٣٦ شكا النحاس باشا مر الشكوى من عناده وإصراره على فرض مايرى دون نظر الى بقية زملائه ، وهدد أكثر من مرة بالاستقالة مالم يؤخذ برأيه . وسكت عليه النحاس حينا ، ولكنه عندما تمسك بعدم تعيين أحد الوطنيين من زملائه فى عمليات اغتيال الضباط الانجليز وأمضى فى السجن ثمان سنوات ، ورفض عشرة الآف جنيه مكافأة لمن يعترف على النقراشي تقول إن النحاس تملكه الغضب ازاء جحود النقراشي ، وضرب برفضه عرض الحائط ، بعد أن اتخذ مجلس الوزراء قراره بالاجماع — فيما عدا النقراشي — بتعيين هذا الوطنى النبيل (أنظر مذكرات النحاس باشا فى العدد الصادر فى ٩٤/١١/١٥ من جريدة الشرق الأوسط اليومية) .

وعندما ذهب النقراشي للأمم المتحدة سنة ٤٦ يطالب بالجلاء أيده الأخوان المسلمون من منطلق وطنى ، بينما أعلن الوفد أن النقراشي لايمثل الأمة ولايحق له الحديث باسمها ، وكان جزاء الأخوان لتأييدهم له هو حله لهم واعتقالهم فكرر سنة ٤٨ العقوق الذى أبداه سنة ٣٦ وأشرنا إليه آنفا . على أن سياسة النقراشي كانت المسمار الأخير فى نعش السعديين . ولم تقم لهم قائمة واستحقوا لقب «السعديين الأشقياء» الذى اطلقناه عليهم .

(٢) محاكمة فرعون : ضحايا محاكمة قتلة السادات ، تأليف الأستاذ شوقى خالد المحامى ، ص ١٣ و١٤ ، وقد حضر الأستاذ الشوربجى احدى جلسات محاكمة خالد الاسلامبولى وعانقه !

ليعلموا أن عبد الناصر ، وكمال الدين حسين ، وخالد محيى الدين ، كانوا فى خلية واحدة فى النظام الخاص وبايعوا نائب المرشد العام ، وليقرأوا كذلك «قصة الثورة» ، وكيف دبر عبد الناصر اغتيال حسين سرى عامر ، واشترك هو وكمال الدين رفعت فى ذلك .. لولا أن الرصاصات قد طاشت .. وليقرأوا كذلك كتاب عبد اللطيف البغدادى ليعلموا أن الحركة كادت أن تصبح حركة اغتيالات كبرى لو توفر عدد العربات المطلوب !![1] .

أما الذى لايمكن الاعتذار عنه ، أو تقبله بأى صوره ، وما يلصق بأى حكومة سيئة ليس هناك ماهو أسوأ منها .. فهو أن تقوم الحكومة بكل أجهزتها باغتيال معارض أعزل فى جنح الليل مستخدمة الضباط الذين يفترض أنهم هم الذين يحمون المواطنين تطبيقا لمؤامرة على أعلى المستويات لاغتيال حسن البنا ، بعلم من القصر ، وبأمر صادر من رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ابراهيم عبد الهادى الى اللواء محمد وصفى ، كما جاء فى كتاب «خريف الغضب» للاستاذ محمد حسنين هيكل ، وقد حوكم ابراهيم عبد الهادى على تهم كان منها هذه التهمة ، وحكمت عليه محكمة الثورة بالاعدام ، ثم خفف الى الاشغال الشاقة المؤبدة .

هذه هى صور «الارهاب والاغتيالات» التى نسبت الى الاخوان ... أما بعد .

---

(١) فى ٢٢ يونيو ١٩٥٣ أشار عبد الناصر تحت عنوان قصة الثورة الى معرفة القصر الملكى بأسماء الضباط الأحرار ، ثم قال : «فاجتمعنا وقررنا أن نتخذ اجراءا مضادا ، وفى أقرب وقت ، وكانت أمامنا خطتان : الأولى أن يقوم الجهاز الخاص (وقد استخدم عبد الناصر هذا التعبير الاخوانى لأنه كان حديث عهد بهم) — باغتيال جميع الخونة المصريين .

والخطة الثانية هى أن يقوم جميع الضباط الأحرار بالعمل لتغيير النظام بأجمعه .

وقررنا يوم ١٨ يوليو تنفيذ الخطة الأولى ، بل لقد وضعت الخطة فعلا وصدرت الأوامر بتنفيذها فى القاهرة والاسكندرية يوم ٢٠ يوليو .

ولكننا اجتمعنا يوم ١٩ يوليو ووجدنا أننا بذلك نقضى على حركة الضباط جميعا ، اذ أن النظام سيبقى مهما قتل أنصاره ، وستكون النتيجة حملة من الأرهاب ...» .

٢٣ يوليو ، فالقضية التي يعيدون فيها ويزيدون هي محاولة اغتيال عبد الناصر بميدان المنشية بالاسكندرية سنة ١٩٥٤ .

وأنا لن أتكلم ، وانما سأدع اثنين من أقسى نقدة الأخوان هما الدكتور فؤاد زكريا والدكتور عبد العظيم رمضان ، فانهما عندما عرضا لهذه القضية حكما بوجود تواطؤ ما مابين السلطة وبعض دوائر النظام الخاص ، وأنه أمكن استدراج محمود عبداللطيف ، بعد اتخاذ الضمانات اللازمة ، وأنها في حقيقتها كانت مؤامرة من عبد الناصر على الأخوان أكثر مما كانت مؤامرة من الأخوان على عبدالناصر ![1] .

وقد نفى الأخوان ، وما عهدنا عليهم كذبا ، أى علاقة لهم بهذه القضية .

أما عملية ١٩٦٥ فانها تلفيق من مكتب المشير أراد به رجاله ضرب عصفورين بحجر واحد ، ضرب الأخوان من ناحية ، واستحوازهم على السلطة والنفوذ من ناحية أخرى .. وقد تحقق هذا ، وتغوّل مركز المشير وضباط مكتبه الفاسدين . ولكن الله كان لهم بالمرصاد .. ان هزيمة ١٩٦٧ كانت الى حد ما نتيجة مؤامرة ١٩٦٥ على الأخوان ، لأنها وضعت زمام الأمور في يد زمرة فاسدة مرتشية من الضباط مشغولة دائما بمشكلاتهم النسائية !

هذه هي قضية الارهاب والاغتيالات أشرنا إليها بقدر مايسمح السياق وهى تدين المسئولين عن الحكم في الحقبة الملكية والناصرية ، أكثر مما تدين الاخوان .. لغلبة الفساد والرشاوى والاعتبارات الحزبية الضيقة في الحقبة الملكية ، وللديكتاتورية وكبت الحريات والاعتقالات والتعذيب ، وأى ارهاب لأى هيئة شعبية يمكن أن يقارن بارهاب صلاح نصر وحمزة البسيونى ؟ ارهاب وصل الى حد القتل والاغتيال للعشرات من المسجونين ودفنهم في رمال مدينة نصر !

★ ★ ★

ومن الاتهامات التي تقدم ضد الأخوان ، **أنهم يريدون الاستحواز على السلطة والوصول الى الحكم وتأليف حزب اسلامي ...**

---

(١) أنظر تفصيل ذلك في كتابنا «الاسلام هو الحل» الصفحات من ١٦٣ الى ١٦٨ .

وقد «غلب» الأخوان من القول مرارا وتكرارا إنهم ليسوا حزبا كباقى الأحزاب التى تقوم واضعة نصب أعينها الوصول الى الحكم ، وأن هدفهم ليس الاستحواذ على السلطة لأن السلطة والحكم – فى أفضل الحالات – وسائل وليست غايات .. ولكن هدفهم وغايتهم اشاعة الفهم الاسلامى بين الناس ، ووسيلة ذلك – بالدرجة الأولى – اقناع الناس – آحاد وجماعات – بأفضلية الاسلام بالحكمة ، والأدلة ، والموعظة الحسنة ، فقد أرسل الله تعالى رسله دعاة وهداة .. ولم يرسلهم حكاما أو ضباطاً أو سلاطين !

وأكد الأخوان – مرارا – أنهم لايسعون للحكم ، ولكن الحكم قد يسعى اليهم يوما ، عندما تؤمن أغلبية الشعب بدعوتهم ويطلبون اليهم عبر صناديق الانتخاب الحر ذلك ، عندئذ لايمكنهم النكوص عن هذا الواجب الذى هو فى حقيقته ابتلاء ثقيل وتكليف لاتشريف .

لقد قال الأخوان ذلك مرارا وتكرارا من الأربعينيات حتى آخر حديث صحفى أدلى به المستشار مأمون الهضيبى لمجلة روز اليوسف حديثاً .

ولكن ، حتى لوفرضنا أنهم يسعون الى الحكم .. فما العيب فى هذا ، هل «الكعكة فى يد اليتيم عجبة» !! كما يقولون ... إن الأخوان مصريون كغيرهم ولهم حقوق المواطنة كاملة .. فاذا أرادوا تكوين حزب لهم فهذا حق دستورى ديمقراطى لهم ، ولكل المصريين ...

أما القول إن حزبهم يرفع الرمز الاسلامى ، والشعب كله مسلم ، وهذا يوحى بأن الأخوان وحدهم هم المسلمون ، فهذا منطق عجيب لايمكن أن يقبل فهل لو تسمى حزب بالحزب المسيحى الديمقراطى ، كما فى ألمانيا ، فإن هذا يعنى أن هذا الحزب يحتكر «المسيحية الديمقراطية» وأن غيره لايكونون مسيحيين ديمقراطيين ؟!! .

لم يدع الأخوان فى يوم من الأيام أنهم المسلمون دون الناس ، أو أنهم يحتكرون الدعوة الى الله .. فباب الدعوة مفتوح للجميع ، ويمكن لمن يشاء أن يؤسس أحزابا اسلامية ولا يملك له الأخوان شيئا .

أما أنه لايجوز تكوين حزب اسلامي حتى لاتثار النعرة الدينية ، وتقوم الفتنة الطائفية ، ويتكرر فى مصر ماحدث فى لبنان ، أو تقوم دولة فى أسيوط الى آخر هذا الهراء .. فهذه تخاريف حشاشين لاتستحق ردا ... واذا أراد الأقباط أن يكوّنوا حزبا فهذا من حقهم ، ولن تحدث مذابح ، وإنما سيحدث «الحوار الاسلامى المسيحى» وقد عاش أقباط هذه البلاد سعداء تحت حكم الاسلام أكثر من ألف عام ، ولن يجدوا أفضل من شعار : «لهم مالنا ، وعليهم ماعلينا» ، فهو كسب خالص لهم ، وهم أذكى من أن يضحوا به !!

ولاأستطيع أن أغالب الخيال والافتراضات ، التى تبدأ بـ «لو» وهى للأسف حرف امتناع ، فلو أن الأخوان ، أو غير الأخوان ، أرادوا القيام بثورة فان هذا عمل مبرر سليم ، وإنما ظهر الحكم الحالى بفضل انقلاب ٢٣ يوليو وتحرك الجيش نفسه لما ظهر من فساد ، وقد عشش الفساد وباض وفرّخ وأصبح دولة داخل الدولة ، وما من أحد يدين الثورة على الفساد ، الا إذا كان هو نفسه فاسدا ...

★ ★ ★

ولكن ليس معنى كل ماقدمنا أن الأخوان برؤا من النقص ، وخلوا من الاخطاء ...

ويحس الإنسان أن وجوه النقص هذه هى التى حالت دون أن تقوم أعرق الهيئات الشعبية المصرية ، وأكثرها تواصلا حقيقيا ، رغم تحريم القانون ، بدور أكبر ، حتى عندما نضع فى حسباننا المقاومة التى تعرضت لها .. لأن الهيئات «الايمانية» لايمكن أن تؤتى من الخارج قدر ما يمكن أن تؤتى من الداخل نتيجة لنقص فى الفهم أو الإيمان ، وبدون ذلك كان يفترض أن يغير الأخوان وجه المجتمع المصرى ، فما من هيئة رزقت ايمانا ، وجمهورا ، ووجودا متصلا ، مثل الأخوان ...

وقد يكون من المفارقات أنهم هم آخر الناس احساسا بميزة طبيعتهم الطبقية ، لغلبة المعنى الاسلامى الذى يتنافى مع الطبقيات ويجعل المعيار هو التقوى .

وليس هناك تعارض فى الحقيقة ، ولكنها جناية التبسيط أو قل «التسطيح» فى

معالجة الأمور ، وعدم محاولة التعمق فيها لأن من المسلم به من ناحية التاريخ ، والطبقية أيضا ، أن عامة الشعب أقرب الى التقوى من الفئات التى تشغلهم الأموال والمطامع وتقيدهم المصالح والمناصب وأنهم كانوا هم جمهور الأديان مسيحيين ، أو مسلمين .. وهم الذين ناصروا الرسول عندما تجهم له تجار مكة وأثرياء قريش .

وقد يصور ضحالة «النبض الشعبى» لدى الأخوان أنهم نجحوا عمليا فى اقتحام النقابات المهنية ، ولكنهم لم يدخلوا النقابات العمالية لاعجزا ، ولكن عزوفا ، وبتأثير النفسية والمزاج ، وهذا لايمنع من أنهم هم القطاع الشعبى حقا ، ولكن «العين لاترى نفسها» ! .

وقبل أن أتحدث عن الدور الواجب للأخوان المسلمين فى هذه المرحلة أشير الى أمرين : الأولى أن الاسلام دين الحرية ، ودين اليسر ، «يسروا ولا تعسروا ، وبشروا لاتنفروا» .. ويفترض أن يكون الأخوان هم فرسان هذا المجال فلا مزايدة عليهم ...

والأمر الثانى أن رسالة الأخوان فى حقيقتها كانت تجديد الفهم الاسلامى ، وقد ضخت الدماء الجديدة فى الدعوة فكرا ، وجمهورا ، فنقلتها من **طقوس عبادة الى منهج** حياة ، ومن وظيفة يقوم بها الوعاظ وأئمة المساجد الى ايمان ينتظم شباب الجامعات وصميم المجتمع المدنى .

ولاجدال أن دعوة الأخوان قضت فى أيامها الأولى على المذهبية التى كانت فاشية ، وطوت الخلافات الفقهية التى كانت تستأثر بالأهمية وتغرق المسلمين ، وأنها غرست بذور فهم جديد للاسلام أريد له أن لايكون سلفيا تقليديا ، والا فإن الأزهر فى مصر ، وادارة الدعوة والبحوث ... ألخ فى السعودية أقدر على تقديم «السلفية» ، وما يؤكد هذا المعنى أن الأمام الشهيد رحمه الله كان مرنا الى أقصى درجة ، مستعدا دائما للتنازل عن كل الشكليات فى سبيل الابقاء على الجوهر ، ومن كانت هذه طبيعته ، فانه جدير بأن يقدم صورة جديدة للاسلام ، صورة تكون الأولوية فيها للجوهر ، وليس للمظهر .

وسأنقل للقراء مثالين يبرزان مدى مرونة الامام الشهيد رحمه الله ...

المثال الأول : جاء في المذكرات التي كان يكتبها الشيخ محمد محمود الصواف رحمه الله وينشرها في «المسلمون» ، العدد ٣٦ في ٢٨ المحرم ١٤٠٦ - ١٩٨٥/١٠/١٨ ، ونقلها الأخ عباس السيسي في كتيب له بعنوان «حكايات عن الأخوان» ، وفي الموضوع المستشهد به ذكر الشيخ الصواف عزمه مع اثنين من اخوانه ، تكوين هيئة اسلامية ، قبل أن يعلموا بوجود الأخوان ، وعندما علموا أراد أحدهم أن تحمل هيئتهم اسم «جمعية الأخوان المسلمين» في الموصل ...

يقول الشيخ الصواف :

«ورفضت أن تكون التسمية مقلدة لأسم في بلد آخر ، وأصر الأخ أن تحمل الجمعية الأسم نفسه ، أي «جمعية الأخوان المسلمين» فقلت لأخواني لما رأيت بوادر الخلاف بينهم إن الأسماء لاتهمنا ، نحن نريد أن نحمل فكرة .. وبعد ذلك شاء الله أن أسافر مع هذا الأخ الذى كان يصر على أن نجعلها باسم الأخوان المسلمين الى مصر لعمل ، والتقينا في مصر بالامام الشهيد رحمه الله وسألناه في الأمر فقال «سيروا مع الشيخ الصواف فهذا هو الصحيح ، لأننا لاتهمنا الأسماء وإنما تهمنا الدعوة الاسلامية ويهمنا الإسلام نفسه بأى اسم كان وبأى ثوب خرج ...» .

والمثال الثاني رواه الأخ أحمد البس في كتابه «الأخوان المسلمون في ريف مصر» عن شخص كتب الى الإمام الشهيد يستنكر هتاف الأخوان (الله غايتنا ، والرسول زعيمنا ، والقرآن دستورنا ، والجهاد سبيلنا ، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا) .. ويقول إنها لاتليق .. فكيف تقولون عن محمد انه زعيم ... فكتب فضيلة المرشد متلطفا يقول : «اذا كان الناس عندكم لايستسيغون ذلك فيمكن أن يكون الهتاف (الله ربنا ، ومحمد رسولنا ، والقرآن كتابنا) فهي تؤدى المعنى نفسه ...» .

فانظر الى المرونة في موضوعين من المواضيع التي تعد من «المقدسات» التي لامساس بها : الأسم والشعار .

ولو قدر للاستاذ البنا رحمه الله أن يعيش ليتم عمله ، وليخلص من مرحلة «الحشد» الى مرحلة «الفرز» ومن مرحلة التعميم الى التخصيص .. فيغلب على الظن

أنه كان سيقوم بتقديم الاضافة المطلوبة ، ولكنهم اغتالوه وهو فى ريعان العمر وقمة النضج والعطاء ، وكان يجب على الأخوان أن يبدأوا حيث انتهى ، ولكن الذى حدث هو أنهم تراجعوا عما وصل إليه حسن البنا حتى أصبح البعض يتهمهم بالسلفية والوهابية ، والتقوقع وغير ذلك ...

ونحن نقدر الظروف التى مرت بالاخوان وجعلتهم مثخنين بالجراح .. وحالت دون أن ينطلقوا ، ولكننا رغم كل شيء نؤمن أن قوة الأخوان وايمانهم وصمودهم أعظم من أن تقوقعهم ، أو تجمدهم ، أو تشلهم الضربات .. فإذا كانت هذه الضربات متلاحقة ، فهناك أيضا أمداد متلاحقة من الشباب يدخلون الأخوان أفواجا .

وأعتقد أن للأخوان دورا حيويا ، وهاما يفرضه عليهم واجبهم نحو دعوتهم ، ونحو وطنهم ، ونحو الاسلام ، لأن اغفالهم له أدى الى هذه الصورة من الركود والخمول والسلبية التى تؤدى الى التآكل والتواكل .. وبالنسبة لوطنهم فإن هذه السلبية سمحت بتفشى الفساد ، ولو قاموا بدور عملى لكبحوا جماحه .. وأخيرا فإن سلبيتهم جنت على الفكرة الاسلامية وسمحت بظهور هذه الجماعات المراهقة ، المتشنجة ، الشاردة التى ضلت طريقها وسط التيه والضياع .

وأتصور أن هذا الدور ينقسم الى شقين : الأول يتعلق بمفهوم الإسلام كمنهج حياة ، والثانى يتعلق بتجديد الفكر الاسلامى : عقيدة وشريعة وسلوكا .

بالنسبة للشق الأول ، فان على الأخوان أن يوضحوا دلالات مفهوم الاسلام كمنهج حياة لتحديد الحلول الاسلامية للمشكلات التى تكتنف حياة الناس ، وبالقيام — بقدر استطاعتهم — (ويمكن أن تكون كبيرة) فى حلها عمليا .

من أبرز هذه المشكلات الاسكان وضرورة تيسير شقة لكل شاب يريد الزواج ، وبهذا ننقذه من العذاب النفسى/ العاطفى ، ومن أن يضحى فى أسواق النخاسة العربية أو الأوروبية بخمس أو ست سنوات من زهرة شبابه .. ويمكن الاستعانة فى هذا بالبنوك

الاسلامية وتفريعها على عدم تفهم واجبها الاسلامى الذى يملى عليها بناء مثل هذه الشقق ، وليست عمارات التصييف والاسكان الفاخر .. انها بهذا المسلك الأخير تضع نفسها فى خندق واحد مع البنوك «الربوية» وتقوم بخدمة رأس المال والعجل الذهبى ، وليس الله والرسول .

من هذه المشكلات البطالة ووضع مشروعات تعاونية أو فردية صغيرة فى «ورش» أو فى المنازل ، وتيسير المهارات المطلوب (الكومبيوتر/ اللاسلكى/ الكهرباء .. ألخ) بمعاهد تدريب مهنى سريعة .. ويمكن الاستعانة فى هذا بنقابة المهندسين ومواردها المالية والفنية .

من هذه المشكلات أيضا مشكلة العلاج الذى أصبح تجارة وخضع لاسوأ صور الاستغلال والانتهازية ، ولابد أن تقف نقابة الأطباء موقفا حازما ، موقفا اسلاميا لاتخشى فيه لومة لائم ، ولا تخاف سطوة المنتفعين بالطب والعلاج ، وأن يكون دورها فى هذا أعظم ، أو على الأقل مماثل لدورها فى عرض السلع المعمرة وتقديم الخدمات والمصايف للأعضاء .

وفى الأربعينات كنت أقول إن هناك هيئة واحدة يمكنها أن تقضى على الأمية فى مصر ، وتوقف تواطؤ الحكومات على ابقائها ! ، هذه الهيئة هى الأخوان . وقد لاتكون اليوم بمثل ما كانت فى الأربعينات عندما كان هناك خمسمائة شعبة على الأقل كخليات نحل ، ومع هذا فلا يزال القول (ايجابا وسلبا — أى قدرة الأخوان فى مواجهة تواطؤ الحكومات) صحيحا .

ويمكن للأخوان أن يتبنوا مشكلة بناء بيوت للمسنين من الآباء والأمهات بعد أن ضاق التكوين الجديد للأسرة المصرية عن إيوائهم وفى توجيه القرآن للبر بالاباء والأمهات مايملى على الأخوان القيام بدور نحو هذا التوجيه القرآنى ..

ويمكن للأخوان تكوين جميع باسم «جمعية الأمام الشهيد حسن البنا للتبرع بالدم» خاصة فى يوم استشهاده (١٢/٢/١٩٤٩) وبذلك يقومون بواجب إنسانى مقدس ويحيون ذكرى إمامهم الشهيد الذى لو اجرى له نقل الدم اللازم لكان من المحتمل أن يعيش ...

ويمكن للأخوان دراسة واقتراح تكوين «محاكم صلح» أهلية ، شعبية فى كل حى تحمل عن المحاكم عبء القضايا «المتلتلة» والمتراكمة ، وتحقق الصلح والعفو والتسوية بالحسنى ، وهى كلها من أهم توجيهات الإسلام التى وصلت الى الدرجة التى يمكن معها عدم إعمال الحدود ..، مادامت لم تصل الى السلطان ...

هذه كلها وعشرات أخرى مما يمكن للأخوان أن يقوموا بها مساهمة فى جعل الإسلام منهج حياة .

ونعلم أن أصحاب الدعوات المصمتة المغلقة كالماركسيين فى أوروربا والرافضة الحديثة فى المجتمعات الإسلامية . (ممن يطلق عليهم الجماعات الإسلامية) يضيقون بفكرة «الاصلاح الاجتماعى» ويرون فيها تمييعاً لدور الدعوة الوحيد وهو تقلد الحكم وتطبيق النظرية أو العقيدة . نرى هذا جليا فى الكتابات الماركسية نحو الحركة النقابية . وفى كتابات حزب التحرير ، والفريضة الغائبة نحو مشروعات الاصلاح الاجتماعى . ولكن هذا خطأ خالص فإن أفضل المشروعات هى مايقوم على أساس شعبى وبوازع القرآن وليس بوازع السلطان . وهذه المشروعات كلها خطوات على طريق الاصلاح ولبنات فى تكوين المجتمع .

نعم إن الأخوان ليست دولة داخل الدولة ، ولاتسمح مواردها بكل هذا النشاط ، بل انها «محظورة» كما يقولون .. ولكننا جميعا نعلم أنها لو آمنت بما قدمنا ، فلن تعجز عن أن تتوصل الى الموارد البشرية والمادية التى تمكنها من القيام بدورها .

* * *

أما الشق الثانى ، الخاص بتجديد المفاهيم الاسلامية ، فإن مفتاحه الرئيسى هو - فى ثلاث كلمات - (العودة الى القرآن) ، لأن المذهبيات ، والفقهيات ، والتراثيات ، أصبحت سداً عاليا يفصل ما بيننا وبين المنبع ، ويفسد بطريقته طريقة القرآن ، فكائنا ما كان الاعزاز لهذا التراث وائمته فالله أولى ، والقرآن أحق . ومن العجز وكلال الهمة ، وصدء العقل أن نظن أننا لانفهم القرآن الا فى ضوء التفاسير وما وضعه الاسلام .. فهذه مخالفة صريحة لنهى القرآن الناس عن أن يتبعوا كلام آبائهم

وأجدادهم وأن يأخذوا بما أنزل الله .. وأنا مؤمن تماما أن الخطأ والقصور فيما وضعه الآباء والأجداد أكثر من الصواب فيها . وأنها تعجز عن أن تجابه تحديات العصر ، أو أن تسامي النص القرآني الذى يمكن استلهامه فى مواجهة هذه التحديات .

فى ضوء هذا المفتاح ، يكون علينا الإيمان بالله ، كما صوره القرآن ، وليس كما صوره علم الكلام الركيك وما يحفل به من مماحكات وافتراضات تناقض أسلوب وطريقة القرآن .

فى ضوء هذا المفتاح ، تكون القيم الاسلامية العظمى هى مصادر الفقه الإسلامى ، وأولها العدل : العدل فى الاقتصاد ، والعدل فى السياسة ، والعدل فى الاجتماع .. ويكون العقل هو ميزان الفكر فى كل شىء - باستثناء - ذات الله تعالى التى تعرف بالوحى .

فى ضوء هذا المفتاح ، نتفهم حرية القرآن ، بلا حدود ، فى مجال الاعتقاد ايمانا وكفرا ...

فى ضوء هذا المفتاح نضع المرأة الوضع الذى أراده القرآن (ولهن مثل الذى عليهن ، وللرجال عليهن درجة) وواضح أن هذه الدرجة هى درجة القوامة المنزلية ، وليست المنزلة أو المكانة فى الحياة ، التى يجب أن تتبع قاعدة المساواة التى وضعها القرآن ، مما يخرج عن اطار القوامة المنزلية .

ولا أريد أن أطيل ، ولكن قد يكون من المفيد الاشارة الى أننا قد فتحنا الباب بما قدمناه من كتابات عديدة لفهم اسلامى رشيد وتحديد للموقف الاسلامى فى العقيدة ، والشريعة ، والسلوك[1] .

---

(١) من الكتب التى اصدرناها وتعين القارىء على الفهم الإسلامى المنشود .. الاصلان العظيمان : الكتاب والسنة ، العودة الى القرآن ، قضية الحرية فى الاسلام ، حرية الاعتقاد فى الإسلام ، الإسلام والعقلانية ، البرنامج الإسلامى ، الحكم بالقرآن وقضية تطبيق الشرعة ، الربا ، الإسلام والحركة النقابية ، تعميق حاسة العمل فى المجتمع الإسلامى . بيان رمضان . الأسس الفكرية للدولة الإسلامية ، الإسلام هو الحل ، رسالة الى الدعوات الإسلامية ، ركائز الاصولية الإسلامية .. الدعوات الإسلامية المعاصرة ، لاحرج .. الخ الخ (أنظر قائمة الكتب أخر الكتاب) وتتفاوت صفحات هذه الكتب مابين ٩٦ صفحة و ٨١٣ صفحة ...

وللأخوان أن يأخذوا أو يدعوا .. ينقصوا أو يضيفوا .. ولكنهم فى جميع الحالات سيجدون أمامهم اجتهادات ومحاولات .

ولكن لا يجوز لقيادة هيئة — كائنة ماكانت — أن تنصب لأعضائها «محكمة بابوية» تحدد مايجوز أو مالايجوز من القراءات . فهذا تعطيل واهدار لحرية الفكر ومسئولية الفرد عن نفسه التى قررها القرآن ، ونوع كريه من الوصاية على عقول الأعضاء كأنهم قُصَّر لايدركون مصلحتهم . وبأى حق يجوز لفئة أن تدعى القوامة أو تحتكر المعرفة .. أآتخذوا من الله موثقاً ؟

هذا أمر مرفوض ، مرفوض ، مرفوض .

أخوانى الاخوان ..

لعلى أكون قد عبرت عن اعزازى لكم ، وتقديرى لجوانب فى دعوتكم لم تستكشفوها ، أو لم تعطوها الأهمية .. وعندما أنتقد السلبية ، فأنا مقدر أن هيئة الأخوان هى أكبر هيئة قدمت شهداء ، وتعرضت لتضحيات وتحملت اضطهادات .. ولكنى ثقتى فى قوتكم أعظم من ثقتى فى قوة أعدائكم والمتربصين بكم .

وإذا قلت لكم يسروا ، ولا تعسروا ، بشروا ولاتنفروا .. فإنما أكرر توجيه الرسول .

وإذا قلت لكم لاتتبعوا الآباء والأجداد ، وإنما ما أنزل الله ، فإنما أكرر ما جاء به القرآن الكريم .

وإذا أوصيت بالمرونة ، فقد ضربت لكم الأمثال من سياسات الأمام الشهيد حسن البنا .

وقد كتبت لكم على صفحات هذا الكتاب ، لأن شعرة معاوية التى تربطنى بقياداتكم الحالية لاتصلح قناة فى هذا الأمر الخطير .

★ ★ ★

— ٣ —

غيـاب الرؤية الإسلامية(*)

مقدمـــة :

من الخير أن نقدم لهذا المقال ببعض الإيضاحات لما قد يلتبس بذهن القارىء ، أو لالقاء ضوء على فكرتنا عن الموضوع ...

(١) فالمقال هو عن «الرؤية الإسلامية» وليس عن الإسلام نفسه ، وهناك فارق كبير ، ولكن قد يروق لبعض الناس أن لايفرق بينهما ، كما قد تدق على آخرين هذه التفرقة — لذا لزم التنويه !

(٢) نحن نعطى الموضوع أهمية كبرى لأنه يعالج قضية تتصل بالإسلام ، وأى شىء يمس الإسلام ، لابد وأن يكتسب أهمية خاصة .. فالإسلام هو اختيارنا الحضارى ، وهو أصل القيم والآداب ، ونحن نؤمن به ، ونعتز به ، كما لانؤمن أو نعتز بأى شىء آخر .

(٣) بالإضافة الى هذا الجانب الذاتى ، فهناك مالايقل عنه أهمية ، وهو الجانب الموضوعى .. فبالنسبة لمصر ، فإن الدين كان دائما محور المجتمع ، وضمير الشعب ، وهذه الحقيقة هى أبرز «خصوصيات» مصر على مر العهود ، من ازيس حتى المسيحية فالإسلام ، فقضية الإسلام بالنسبة لمصر قضية محورية أصيلة تمس صميم كيان المجتمع

(*) نشرت فى مجلة منبر الحوار العدد ٣١ .
شتاء ١٩٩٤ — السنة التاسعة من ص ١٠٠ الى ص ١١٣ .

المصرى ، ومع أن مصر ارتبطت بالثقافة الأوروبية (العلمانية كما يقولون) منذ ١٨٠٥ بدء ولاية محمد على ، وأراد لها اسماعيل باشا أن تكون «قطعة من أوروبا» ، ثم جاء الاحتلال البريطانى فحاول طمس أبرز مقومات الشعب ، الا وهو الإسلام السياسى (كما يقولون أيضا) ، وختم هذا كله بثورة ١٩١٩ البورجوازية التى أبعدت الإسلام من صدارة المجتمع الى ركن قصى فيه لا يظهر الا فى المناسبات والموالد والحفلات وعند طلب الفتوى أو رؤية الهلال !!

ومع أن نظم الحكم تصدت للدعوة الإسلامية منذ البداية ، فمحمد محمد على عمل السيد عمر مكرم ونفى توفيق باشا جمال الدين الافغانى .. واغتالت ملكية فاروق حسن البنا .. ثم حلت الهيئة الإسلامية الأم (الأخوان المسلمين) ، حتى وضع عبد الناصر سياسة «استهدفت تدمير رجال الأخوان ، و «تعهير» نساء الأخوان !!» وفتح السجون والمعتقلات التى مورست فيها أشنع صور التعذيب المقيت ..

ومع أن وسائل الإعلام والثقافة والصحافة والفنون وضعت كلها فى أيدى أفراد تشربوا الثقافة الأوروبية بصورة قطعت كل الوشائج مابينهم وبين مجتمعهم ، وجعلتهم يعملون لخدمة النظام الحاكم ، لا يشركون به شيئا ..

مع هذا كله ، فإن الطبيعة الإيمانية للشعب فرضت نفسها على الحكام وحفظت للدعوة الإسلامية تماسكها ومكانتها ، وأوقعت الساسة فى مأزق اضطروا فيه الى المداهنة والنفاق وأن يقولوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم دون أن يخفى هذا على الشعب الذى فقد الثقة فيهم ، وبعدت الشقة بينه وبينهم وأصبحوا فى واد والشعب فى واد آخر ، فلم يجنوا على الإسلام قدر ماجنوا على أنفسهم ونظام حكمهم .

(٤) ومرة ثالثة ، فإن الإسلام الذى يمثل خاتمة الأديان ونهاية مسيرة الإنسان للتعرف على الله ، لا يقتصر على أنه اختيارنا الحضارى ، أو أنه «ضمير مصر» ، إنه — كذلك — خلاص العالم ، لأن الأساس الحقيقى للحضارة هو الدين ، وواسطة العقد فى الدين هى عقيدة الالوهية ، وبقدر ما تقرب هذه العقيدة من الكمال ، بقدر ما يكون تميز الدين ، وهذا هو ماحدث بالنسبة للإسلام ، عندما يفهم فهما سليما .

فقد توصل العقل البشرى الى تلك المنجزات الرائعة التى قامت عليها الحضارة الأوروبية ، ونحن لانقلل منها ، بل نحن أول من يعترف بها ، ولكن هذا لا ينفى وجود

قصور فى ذلك الجانب الهام ، جانب السلام النفسى الذى لايمكن لحضارة الاستمتاع والاستهلاك ، أو حتى الفنون والآداب ، أن تحققه تماما ، لأنها وإن أشبعت مطالب الجسد ، والى حد ما ، النفس ، وكفلت الأمن من الفاقة والحاجة (وهى انجازات رائعة) فتظل الروح جائعة ، ولا تزيدها الثروات الا احساسا بهذا الجوع الذى يأخذ شكل « الاكتئاب » والذى يودى بصاحبه فى بعض الحالات التى الانتحار . ولايمكن أن يدرك سلام النفس الا عندما يربط بمرسي موضوعى مطلق تماما ، وكل موضوعية — خلا موضوعية الله — موضوعية ناقصة لاتبرأ من شوائب القصور والذاتية ، ولهذا نغصت الحروب والقلاقل صفو الحضارة الأوروبية ، فنشبت الحروب مابين الدول الأوروبية بعضها بعضا ، ونشبت فى داخل كل دولة بين الأغنياء والفقراء ، الأقوياء والضعفاء .. ثم نقلت أوروبا تلك المعركة الى الشرق والى آسيا وافريقيا ، فنهبت ثرواتها — حتى الثروات الآدمية عندما استرقت الافريقيين ودفعت بهم الى مزارع السكر والقطن والدخان فى أمريكا وجزر الهند الشرقية ... ألخ ، واذا كان العالم القديم قدشن الحروب مدفوعا بالجهالة والفاقة والمجاعات ، فإن العالم الحديث يشن الحروب مزودا بالعلم والثروات واستعلاء واستكبارا وتكاثرا ..

ولو استلهمت الحضارة الأوروبية قيم الإسلام ، لاستكملت ما ينقصها ، ولبرئت مما يشوبها .

الى هذا المدى ، نحن نؤمن بالإسلام ، نؤمن به لأنه اختيارنا الحضارى ، ولأنه سر خصوصية مصر ، وقاعدة ضميرها ، ومفجر ايمانها ، ولأنه أخيرا خلاص العالم بعد أن بغت الحضارة الأوروبية وطغت وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها .

ولا شيء — بالطبع — يمكن أن يعادل هذا التقدير للإسلام ، أو يساميه .

(٥) فى المقال أحكام وآراء تطلق على علاتها بالنسبة للتفسير والحديث وقد تعطى طابع التعميم ، و لم يتسع المجال لتفصيلها أو ايراد الأساس الذى بنيت عليه ، لأن هذا سيخرج المقال عن حجمه وطبيعة موضوعه ، وسيبعده عن النتيجة التى يراد الوصول إليها .. وقد تعرضنا لمعظم هذه الأحكام والآراء بالتفصيل فى كتب سابقة لنا ، وبوجه خاص «الاصلان العظيمان : الكتاب والسنة» وعلى من يريد التفصيل أن يرجع إليها ..

★ ★ ★

كيف حدث أن الإسلام ، عندما آمن به العرب أول مرة ، نهض بهم من قبائل متناحرة تفخر بالشراب وتتقاتل لسبق حصان أو عقر ناقة ، الى أمة متماسكة تحمل «الكتاب والميزان» الى الأمم الأخرى ، وتهدم الامبراطوريات الطبقية الظالمة التى قامت على أساس الاستعلاء والاستكبار ، وتقدم للبشرية تجربة لم تعرفها — من قبل أو بعد — هى «ديمقراطية الجامع» فى عهد الرسول ﷺ ، وحكم الخلافة الراشدة بعده !

ثم كيف حدث أن الإسلام لاينهض اليوم بالمسلمين من درك التبعية المهين ، وما توقعه اسرائيل والولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية — حتى حثالتها ، الصرب — من اذلال للرجال واغتصاب للنساء ، ووصاية على القرار ، ولا تحمر وجوه ، أو تغلى دماء ، أو يتحرك ساكن ؟!

ثم كيف يمكن أن تحتدم العداوات والحروب بين الدول الإسلامية بعضها بعضا ، أو داخل الدول الإسلامية نفسها ، حتى ما تعلقت به الآمال — كايران وأفغانستان ، والسودان !!؟

لماذا حدثت المفارقة ...

وأين الخطأ ...

لايمكن أن يكون فى الإسلام ، لأن الإسلام نهض بالعرب من قبل فقضى ذلك على مظنة أن يكون — بالضرورة — سبب تخلف .

ولا يمكن أن يعود الى «جنس المسلمين» فليس فى جنس المسلمين — اذا جاز التعبير — ما ينحط بهم ، فقد كان لهم فى يوم ما امبراطوريات ، وعهود ازدهار .

لابد أن يكون هناك «حلقة مفقودة» يتعين البحث عنها ...

والحلقة المفقودة هى (**سوء فهم الإسلام) الى درجة جعلت الإسلام الذى يؤمن به المسلمون اليوم غير الإسلام الذى آمن به صحابة محمد والذى جعلهم يفتحون العالم ، حتى وان كان المسلمون اليوم يجأرون بأعلى أصواتهم (لا اله إلا الله محمد رسول الله) .**

ومن ظواهر سوء الفهم ، القضية التى نعالجها الآن ، «غياب الرؤية الإسلامية» !

* * *

ما الذى نعنيه بافتقاد الرؤية الإسلامية ؟

هناك مثل يتحدث عن الأشجار والغابة ، ويفرق بين الذى ينظر الى الإشجار فلا يرى الغابة ، ومن ينظر الى الغابة فلا يرى الأشجار !

ويتمنى الإنسان أن يرى الغابة والأشجار معا .. ولكن هذا عادة يتعذر ، واذا اتسعت الغابة الى درجة معينة ، فمن المؤكد أنه سوف يتعسر الجمع بين رؤية الاثنين ، ويكون على الإنسان أن يقنع بأحدهما .

فإذا نظر الى الأشجار ، فسيعرف شيئا عن بعضها ، ولكنه لن يعرف الباقى ، وأهم من هذا أنه لن يلم بروح الغابة ، وأبعادها ، والصورة العامة لها ...

وإذا استشرف الغابة ، فإنه لن يلم بالخصائص المميزة لاشجارها .

وفى أيام الرسول كان الإسلام – غابة وأشجارا – شيئاً واحداً ، كانت الغابة محدودة بحيث يمكن أن يراها ويرى مافيها من أشجار ، أو بالتحديد شجرتها !

لأن الإسلام لدى الصحابة هو القرآن والرسول ...

القرآن الذى تقبلوه سورة سورة ، أو حتى آية آية ، لايتجاوزون بضع آيات حتى يلموا بما فيها من العمل فيأخذون أنفسهم به ، وينتقلون الى آيات أخرى ...

وقد يظن أن هذه توحى بالتجزئة ، والنظر الى أغصان الشجرة ، وليس الشجرة ، ناهيك بالغابة ، ولكن حال دون ذلك أن القرآن ليس كتاب قصص أو تاريخ ، ولا هو مبوّب كبقية الكتب من فصول وأبواب ، من لم يلم بالأول منها لايدرك الآخر .. إن السور القرآنية أشبه باللوحات التى تُغنى كل واحدة بنفسها ، وتضم كل واحدة الجوهريات التى فى السور الأخرى ، وتحمل كل واحدة بصمة

القرآن ، أو هى حبة من حبات عقد لاتختلف واحدة عن أخرى إلا بما يحقق الكمال للعقد النظيم ، بحيث تتآلف مع واسطة العقد التى تتميز بالحجم والموقع ، ولكن نوعية الحبات الأخرى لاتختلف عنها .. فواسطة العقد هى عقيدة الالوهية ، والحبات الأخرى تمثل ما ينبثق عنها من حرية أو عدالة أو يسر .. ففى كل حبة شىء من واسطة العقد ، وليس هناك سورة مغلقة على نفسها ، منبتة عن اخوانها ، فالمعانى القرآنية شائعة فى كل السور والآيات تسرى وتتمشى معها بحيث تكاد ترى الغابة فى الشجرة ، وهذا من أسرار اعجاز القرآن !!

وعندما كان الرسول يقرأ عليهم سورة ، أو جزءاً من سورة ، فإنهم كانوا يتشربونها كلمة فكلمة ، آية فآية ، فتفعل فى نفسهم كما يفعل أقوى عقار فى النفوس .

لم يكونوا يسألون النبى عن معانى بعض الآيات ، حتى المتشابهات ، ولم يكن الرسول أيضا ليذكر لهم معانيها إلا فى القليل النادر ، لأن المعانى — وان كانت أهم ما يتضمنه كتاب — فإن القرآن لا يصل إليها بالطريق الرياضى (١ + ١ = ٢) ولا بطريق منطق أرسطو ، ولا بطريق التعريفات الجامعة المانعة .. إنه يصل إليها بطريق الرمز ، والمجاز والابداع الفنى حيث لايمكن أن يسأل عن معنى الأسود أو الأحمر أو النغم العالى أو الخافت ، وليس المهم (يعنى أية) قدر ما أن المهم هو (الأثر) الذى يتركه فى النفس .. ولعل القرآن نفسه عبر عن هذا بقوله ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله** ... ﴾ .

وقد ألفنا أن نقرأ فى الكتب التقليدية أن الصحابة ماكانوا يسألون لأنهم أفصح العرب لسانا ، ولكن هذه ليست القضية ، لأن فهم القرآن لايعود الى الفصاحة ، فليس هو كتاب لغة ، ولكنه كتاب هداية ، وقد صكت ألفاظه ومفرداته وطريقة نظمه بحيث تحقق التأثير المطلوب للهداية .

وقد كان بوسع الرسول أن يفسر القرآن للصحابة آية آية ، ولكنه لم يفعل وما يطلق عليه «التفسير بالمأثور» وينسب الى الرسول محدود ، ولا يستند معظمه الى روايات قوية ، ناهيك بأن تكون متواترة ، وهذا فى حد ذاته يجعل من العسير علينا

أن نحكّم فى القرآن المقطوع بنزوله ، والمتعبد بلفظه ، أحاديث ليست لها هذه المرتبة ، أو مايقاربها .. وإذا كان لا يؤخذ فى مجال الاعتقاد الا باليقين ، وأخبار الآحاد لاتفيد الا الظن ، فإن هذا أحرى أن ينطبق على القرآن لأنه مرجع الاعتقاد .. وعلى كل حال فإن ركاكة معظم مايروون على أنه تفسير مأثور ، تغنينا عن البحث فى مصداقيته .

والذى حدث هو أن الصحابة استمعوا الى القرآن بآذانهم وقلوبهم ، فتغلغلت قيمه ومعانيه فى نفوسهم ...

وجدوا فيه الترغيب الذى أضرم حماسهم وشحذ عزائمهم ...

وجدوا فيه الترهيب الذى جعلهم يخبتون ويخشعون ، ويكبحون نوازع الهوى ...

وجدوا الدعوة الانتهاضية للجماهير المستعبدين فى الأرض ، للانطلاق والعمل ، ليكونوا شهداء على الناس ...

وجدوا النظم الساحر والموسيقى الأخاذة ، ففاضت نفوسهم بالحب ، والرضا والجمال ...

وجدوا القيم ، والحث على السير والتدبر والتفكير والانفاق والتنديد الفظيع بالظلم والاستغلال والبخل والأنانية والتكاثر والتفاخر .

وجدوا الصورة المثلى للالوهية .. الله .. المثل الأعلى الحى الخالق المصور الخالد ، إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ، أصل العلم والحكمة والرحمة والقوة لاتدركه الأبصار ، وليس كمثله شىء .. فتعلقوا بشعاع من هذه الشمس الباهرة ، فأضاء نفوسهم بالمعرفة ، وفجر فيها قوة الإيمان ...

وجدوا المنطق الذى يقوم على البداهة والطبائع وأصول الأشياء بحيث تتلقاه القلوب وتتقبله العقول ، فيحسم القضايا المعقدة للخلق والبعث والتوحيد ، بكلمات معدودات **«أم خلقوا من غير شىء ، أم هو الخالقون» .. «وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل شىء**

عليم».. والذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه».. «ماأتخذ الله من ولد، وما كان معه من اله إذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ...» .

واستشعروا العزة والكرامة من استخلاف الله تعالى لآدم وتفضيله على الملائكة ، وتمكينه من مفاتيح المعرفة ، وتبينوا فيما أراده الله من تعدد وما سمح به للشيطان من اغراء ، وماكرره من أن الحكم بين الناس انما هو لله وحده ، ويوم القيامة وحده ، .. حرية الإنسان فى سلوك الطريق واتخاذ القرار .. فلم ينصبوا أنفسهم قضاة ، ووصل عمق معنى الحرية فى نفوسهم أن منح على بن ابى طالب معارضيه الذين خرجوا عليه بالسلاح حرية لايظفر بها أى معارض فى العصر الحديث !!

ولم يفتهم أبدا مغزى، ودلالة القرن القرآنى ما بين الصلاة والزكاة ، الإيمان والعمل الصالح ، فأخذوا أنفسهم به .

وكان هناك آيات ، ومعان لم يلموا بها ، ولكنهم لم يتعسقوا الوسائل إليها .. فالقرآن لكل الناس وليسوا هم كل الناس ، وهو لكل الأجيال ، وليسوا هم كل الأجيال ، وقد ضم كل شيء ، ولن يلموا بكل شيء فوكلوا مالم يفهموه الى خالقه مؤمنين أن هذا ليس عجزا ، أو تقصيرا ، ولكنه البعد عن التكلف ، أو أن يلموا بما لا يمكن أن ينهضوا به فيكون حجة عليهم !!

كان هذا هو القرآن بالنسبة للصحابة ، وقد ألموا به ، بل وأحكموه تماما حتى وان لم يحفظ الواحد منهم الا بعض السور ، لأن القرآن كالثوب أو السجل ، تكفى «قصقوصة» للتعرف عليه !

ومن هنا خلقهم القرآن خلقا جديداً ...

★ ★ ★

وكان الذى قدم إليهم القرآن هو محمد نفسه ، وبلسانه ...
ووجد الصحابة فى محمد التجسيد العملى لما يكون عليه القرآن ...
كان بالنسبة لهم أسوةً وليس سنة ، وقدوة ، وليس حديثا ...
وجدوه صادقا ، أمينا ، برا ، رحيما تسبق رحمته غضبه ، وسماحته عقوبته ...

وجدوه سخيا كريما ، لايبقى على شيء لنفسه ويؤثر الآخرين ...

وجدوه شجاعا فى الحرب ، يتقدم ولا يهاب ولا يتأخر عندما يحاط به ولا يخشى أن يصاب ...

وجدوه متواضعا لايستعلى ، موطأ الاكناف ليس فحسب لأصحابه الأدنيين ، ولكن لأى جارية من جوارى المدينة ...

وجدوه سهلا ، هينا ، يؤثر اليسر على العسر ، والرفق على الشدة وما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ، مالم يكن حراما .

وجدوه يتسع لكل الأديان ، آوى إليه مارية القبطية ، وتقبلها أما لأبنه ابراهيم ، وضم اليه صفية اليهودية ، وعلمها أن ترد على عائشة وحفصة عندما عيراها بأصلها اليهودى «قولى لهما .. أبى موسى ، وعمى هارون ، وزوجى محمد !» .

لم ينقلوا عنه أنه ضرب ، أو نهر ، خادما ، أو ندد بمخالف ، أو حتى ذكره بالاسم ، فكان يكنى أو يقول مابال أقوام ...

وجدوه وهو الفاتح المنتصر ، يدخل مكة ساجدا لله على قتب بعيره لم يدخلها فى موكب نصر ، ولم يبحها لجنوده ، وانما قال «أحّلت ساعة من نهار» ولما مثل أمامه أعداؤه الذين آذوه أشد الإيذاء ، ودفعوه للهجرة ، عفى عنهم وقال «اذهبوا ، فأنتم الطلقاء» ولما أسلموا محيت كل ذنوبهم السابقة وعادوا اخوانا ...

هذا هو محمد الذى آمن به الصحابة ، والذى جعلوا منه اسوة لهم ، وقبسوا منه ، كل بقدره ، فأصبحوا كالنجوم ...

* * *

فى القرآن ، وفى محمد ، وجد الصحابة الإسلام ...

ولكن واحدا من الصحابة لم ير أن عليه أن يحفظ كل آية فى القرآن ويعرف على وجه التحديد تفسيرها ... ولم ير أحد من الصحابة أن عليه أن ينخلع من ماله وتجارته وعمله ، ليصحب الرسول ليل نهار ، وليتقصى كل شاردة وواردة منه ...

حتى عمر بن الخطاب ، كان عليه أن يذهب للصفق فى الأسواق !

فلم يكن هناك «غابة» شاسعة كثيفة تضل فيها العقول .. ولكن كان هناك أساسيات فى الفهم والعمل التزموا بها ، وأسقطوا ماعداها .

كانت الرؤية الإسلامية متوفرة ، بحيث عرفوا الإسلام ، وعن هذه المعرفة أصبح بإمكانهم الحكم على الأشياء تبعاً لها ...

ولقائل أن يقول ...

ونحن اليوم أليس لدينا القرآن ، ولدينا السنة ؟ فما الذى ينقصنا ...؟

نقول إن الصحابة كان لديهم القرآن الذى لم يلتبس بشىء آخر ...

وكما قال الصحابة لا اله الا الله .. فأثبتوا وجود الاله بنفى ماعداه وكثفوا المعنى المطلوب ، فإنهم كذلك قالوا «لانُلْبس بالقرآن كتابا آخر» ...

ولكننا قد أوجدنا جنب القرآن عشرات الكتب والمجلدات التى تئن منها رفوف المكتبات مما أطلق عليه «التفسير» .

ولم يعد الناس يقرأون القرآن مجرداً ، وإنما يقرأونه عبر هذه التفسيرات ، وبعد أن يكونوا قد رجعوا إليها .

ونحن لا نطعن فى أمانة المفسرين أو كفاءتهم ، ولكن يظل كل تفسير محكوم بمحددات القدرة البشرية وما يزحف عليها من مؤثرات نفسية أو بيئية ... ألخ .

ولعل أبسط ما يذكر فى هذا الصدد أنهم لم يجدوا حرجا فى أن يملأوا كتبهم بكل الخرافات والدعاوى والروايات الاسرائيلية التى لايقتصر الأمر فيها على الكذب ، ولكن على أنها تتضمن من المعانى مايعارض أو يشوه النص القرآنى !!

وأسوأ من هذا أنه يذهب بالاعجاز القرآنى .. فالصيغة القرآنية المحكمة بطابعها الموسيقى/ الفنى / السيكلوجى والذى تشبه قطعة من السكر المعقود ، قد أريقت فى جرادل من المياه المتعكرة بالشوائب والخزعبلات ... وقد قال الله تعالى

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ... ﴾ لأن القرآن (صيحة) عالية تزلزل الجبال فما بالك بالنفوس التى فيها آذان تسمع وقلوب تؤمن ؟!!

لم يعد القرآن كتاب هداية يخلق النفوس خلقا جديداً ، وإنما مجموعة اقاصيص وحكايات للتسلية ، ووضع فى قاعدتها «أسباب التنزول» فالآية الفلانية نزلت لوقع حادثة معينة ، وخلاص !! ، ومع أنهم لا يفتأون يقولون إن العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب ، فإن خصوص السبب ألقى غشاوة ثقيلة على عموم النص وموضوعيته واطلاقه .

وتقبلوا – قالة النسخ – على أسس واهية وأحاديث ركيكة .. وحكموا قواعد اللغة فى القرآن ، فى حين أن القرآن وإن نزل بالعربية فإن له قواعده الخاصة ليست فحسب فيما يتعلق بالنحو ، بل فى صياغة اللفظة .. وكأنهم تصوروا أن الله تعالى سيلتزم بما وضعوه من قواعد !

وقد تنتزع آية من سياقها للاستدلال بها فيما لا يمكن أن يتسق لو استكمل لها ما قبلها وما بعدها ، أو تصبح مجافية لآيات أخرى عديدة !!

باختصار ، وقف التفسير مابين القارىء والقرآن ، وحال دون أن تنطلق كلمات الله الى القلب مباشرة بحرفها وجرسها وما توحى به .. فلم يحدث القرآن فى المسلمين ما أحدثه فى الصحابة عندما لم تكن هناك أمثال هذه التفاسير .

وللرسول كلمة بعيدة المغزى «من قال فى القرآن برأيه فأصاب ، فقد أخطأ» والذى أفهمه أن الرسول (ﷺ) عندما لم يسمح لأحد أن يقول فى القرآن شيئاً ، وأن لا يتدخل أحد بين القارىء والقرآن .. كان يستبعد كل ماكان يمكن أن يأتى بتفسير .

إن عدداً من العوامل بعضها ذاتى يعود الى المفسرين أنفسهم وماالعتقدوه ، وبعضها موضوعى يمثل المجتمع الإسلامى فى فترة معينة فرضت نفسها وأوجدت هذه المجلدات من التفسير .. ولكن هذه العوامل بشقيها الذاتى والموضوعى ، قد انتهت

الآن ، ولم يعد مبرر للعودة إليها خاصة بعد أن ظهر الكم الرهيب من الاسرائيليات والدعاوى التى تطرقت الى معظمها .

والمطلوب الآن من المسلمين أن يجعلوا علاقتهم بالقرآن مباشرة ، وأن يفتحوا عيونهم وقلوبهم له ، وأن يقرأوه قراءة تدبر وتفكير وخشوع وإخبات ، وأن لا يعودوا لفهم كل آياته الى كتب التفسير ، أو أن يخروا عليها - صما وعميانا ، وعندئذ سيخلقهم القرآن خلقا جديدا ... وسيريهم آياته فى أنفسهم .. فإذا لم يجدوا هذا ، فما قرأوا القرآن حق قراءته ...

* * *

وحدث للموقف من الرسول شيء قريب كالذى حدث للقرآن .. فلم يعد الرسول هو الأسوة ، القدوة ، العمل .. ولكن الحديث والسنة التى بنيت عليها الشريعة ...

وكان الرسول قد أمر بعدم كتابة كلامه ، ومحو ما قد يكون قد كتبه البعض ، وما يحتج به المحدثون من جواز الكتابة يحسب عليهم وينقض حجتهم ، لأنه يعد ترخيصا لبعض الأشخاص على وجه التعيين (أبو شاه وعبدالله بن عمروبن العاص) فيدل على أن الأصل هو عدم الكتابة ، وأن الترخيص انما جاء لشخص بعينه ، أو لخطبة بعينها ، فضلا عن أن الكتابة لدى هؤلاء ماكانت تعدو الحديثين أو الثلاثة ...

وعلى كل حال فآخر القولين هو عدم الكتابة ، بدليل أن السنن لم تكتب فى عهد الخلفاء الراشدين ، وقد فكر عمر بن الخطاب فى كتابتها واستشار الصحابة فوافقوا .. ولكن شيئا ما حاك فى صدره فطفق يستخير الله شهرا ، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له فقال انى كنت أردت أن أكتب السنن .. وأنى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله .. وأنى والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدا[1] .

---

(١) لقد ناقشنا قضية تدوين السنة فى كتابنا (الاصلان العظيمان) بشيء من الاسهاب فى الصفحات من ٢٦٨ - ٢٧٥ .

وبالاضافة الى نهى الرسول عن كتابة حديثه ، فإنه كان يكره لاصحابة كثرة السؤال وقد وضع لهم القاعدة الذهبية فى الحديث المشهور :

« ذرونى ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم .. فإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا .. واذا أمرتكم بشيء فآتوا منه ما استطعتم ....» .

والتزم الصحابة بهذا التوجيه ، فلم يكونوا يكثرون الأسئلة ، وكان يعجبهم أن يأتى الاعرابى من قلب البادية ، لأنه كان يسأل فيعفيهم من أن «يقترفوا» السؤال الذى نهوا عنه !

والذى أفهمه من نهى الرسول (ﷺ) عن كتابة حديثه ، ونهيه الصحابة عن الأكثار من السؤال ، وكذلك ماجاء عن عمر وبقية كبار الصحابة فى هذا الصدد أن الرسول المتأدب بأدب القرآن والملتزم به ، لم ير أن أقواله تعد نصوصا تشريعية ملزمة للأجيال المسلمة ، شأنها شأن القرآن وإن لم يمنع هذا أنها كانت التصرفات المثلى وقتئذ .

أما بالنسبة للمستقبل ، ولكل المسلمين وليس للعرب فحسب ، فإنه لم يضع لهم كتابا ، وكان يرى أن فى الإلتزام بكتاب الله وما وضعه الله تعالى فيه من الأصول ما يهديهم ، وأنه ليس من الخير فى شيء أن يقيدهم بتفاصيل قد تصلح للحاضر ولكنها لاتصلح للمستقبل .

هذا ما أفهمه بكل أمانة واخلاص ، والا فإنى لا أرى سبباً آخر لنهى الرسول عن كتابة حديثه ورفض عمر بن الخطاب كتابة «السنن» لأن فكرة الخوف من اختلاط كلام الرسول بأيات القرآن فكرة مستبعدة تماماً ، لأن أى واحد له أقل المام باللغة العربية يمكن أن يميز بداهة مابين الصياغة الخاصة جدا للقرآن وأسلوب الحديث ، فضلا عن أن كلمة عمر بن الخطاب صريحة فى المعنى الذى ذهبنا إليه .

ولو كان فى حديث رسول الله الزام مثل الزام القرآن لبادر أبو بكر بجمعه ، كما جمع القرآن ، ولما وقف عمر بن الخطاب موقفه أو قال قولته .

ولا ينفى هذا حرص الخلفاء على تطبيق سياسات الرسول وأقواله ، واعتبارها ملزمة ، لأن أخذهم بها شيء ، واعتبارها ملزمة أبد الدهر وعلى أساس أصولى شيء آخر تماما .. فقد كان المكان والزمان واحدا ، ولم يَجِّد من الأوضاع ما يتطلب اختلافا .. وكان من الطبيعى أن يعودوا الى ما قرره أو ماقاله الرسول ، وعندما بدأت أولى المستجدات فى عهد عمر بن الخطاب لم يتردد هذا فى الأخذ بما تفرضه الأوضاع الجديدة سواء كان من فارس أو الروم أو من وحى تفكيره أو نتيجة الشورى ، بل ان عمر بن الخطاب لم يتردد فى «تجميد» بعض النصوص القرآنية عندما انتفت العلة كابطاله سهم المؤلفة قلوبهم ، وحد السرقة فى المجاعة ... ألخ فضلا عن اجتهاداته فى تحريم الكتابيات والمتعتين ، وكان فى هذا كله يستلهم روح القرآن نفسه .

ولكن السرعة الرهيبة التى نمت بها الدولة الإسلامية واختلاط الأجناس غير العربية التى كانت معرفتها بالعربية محدودة ، وكانت بالطبع متأثرة برواسب حضاراتها ، أعجلت المسئولين من أن يضعوا «فقهاً» أصيلا يقوم على الأصول التى وضعها القرآن ، كما لم يسمح الاضطراب الذى لبّد خلافة عثمان وعلى لهذين بالقيام بهذه المهمة .. وأن المدة أيضا لم تبعد عن عهد الرسول ... كل هذه العوامل دفعت بالائمة للأخذ بالسنة كأصل له قداسة الأصل القرآنى ...

وكانت هذه الواقعة التى تعود الى الملابسات أكثر مما تعود الى «الأصولية» نقطة تحول كبرى فى تاريخ الفكر الإسلامى .. لأنها جعلت «الحديث» قاعدة للفقه وشريكا للقرآن فى المعالجة واتخاذ القرار ...

وهكذا بدأ الفقهاء يبحثون عن الحديث ، وظهر بجانبهم المحدثون «المحترفون» — إذا جاز التعبير — فما أن ظهر الطلب حتى ظهر العرض ، وبقدر ما يشتد الطلب بقدر ما تفتق الحيلة وسائل لكى يفى العرض بالطلب فظهر بجانب المحدثين المحترفين أمثال أبى هريرة وابن عباس محدثون آخرون تولو «وضع» الأحاديث ، إما للوفاء بالطلب ، أو للكيد للإسلام أو «حسبة كما ظن بعضهم» أو كما قال نحن لانكذب على رسول الله ، نحن نكذب لرسول الله !!

وكان من المفارقات التى أبرزها الأوضاع أن أقل الناس صحبة للرسول هم أكثرهم حديثاً عن الرسول ، وأن أعرقهم صحبة هم أقلهم حديثاً !!

أبو هريرة الذى أسلم السنة السابعة للهجرة وصحب الرسول ثلاث سنوات روى ٥٣٧٤ .. أنس بن مالك وأبو سعيد الخدرى اللذان قالت عنهما عائشة «ماعلم أنس بن مالك وأبى سعيد بحديث رسول الله ، وإنما كانا غلامين صغيرين !!» فقد روى أولهما ١٢٨٦ والثانى ١١٧٠ ، جابر عبد الله الذى خدم الرسول غلاما روى ١٥٤٠ أما ابن عباس الذى قبض الرسول وهو ابن ثلاثة عشر سنة على أحد الأقوال ولم يسمع من النبى الا أربعة أحاديث فقد روى ١٦٦٠ حديثاً .

فى مقابل هؤلاء .. أبو بكر روى ١٤٢ حديثاً ، عمر ٥٠ ، علىّ ٥٠ ، عثمان ١٤٦ ، أبى بن كعب ٩٢ حديثاً !!

ولا يتسع المجال للحديث عن العوامل التى تحكمت فى سياسات وأحكام المحدثين الذين جعلوا همهم «غربلة» هذا الكم الهائل ، وما حفل به من وضع وتحريف ... ألخ ولا جدال فى أنهم بذلوا جهودا مضنية ووضعوا أصول علم جديد ، له معاييره ومقاييسه واصطلاحاته .. ولكن هذا كله لاينفى الحقيقة : اتسع الخرق على الراتق .. وأصبح الحديث غابة بمعنى الكلمة ، وأهمل القرآن ، وأصبح هو – وليس القرآن – الأصل الحقيقى للفقه الإسلامى !!

بل إن الهيئات الإسلامية التى ظهرت فى العصر الحديث هى من انشاء السنة وليس من انشاء القرآن !![1] .

بالإضافة ، فإن الرغبة فى الدفاع عن الإسلام وعرض بعض جوانبه بالطريقة التى يفهمها الروم والفرس ، أدت ببعض العلماء لاستحداث علم الكلام والكلام على التوحيد والذات الالهية بطريقة تختلف تماما عن طريقة القرآن .

---

(١) هذه الأحكام هى التى أشرنا إليها فى مقدمة البحث إذ لها طابع الاكثرية والأغلبية والصفة التقريبية ، ولكن لابد منها لابراز الطابع العام .

ذاب القرآن فى التفسير ، وتحولت السيرة الى سنة ، تحولت بدورها الى غابة كثيفة ، واستحالت الرؤية الإسلامية التى كانت ميسرة أيام الرسول و لم يعد الحكم على الأمور من منطلق «الرؤية الإسلامية» ، ولكن من منطلق المقدمات المعينة التى يأخذها هذا الأمر ، والعلم المعنى الذى يعود إليه من تفسير أو فقه أو حديث أو أحكام ، وما ذهب إليه أئمة المذاهب بصفة عامة من التشدد بدعوى ايثار «الأحوط» و «سد الذرائع» ، حتى فيما تعم به البلوى .. بتعبير الفقهاء الأحناف .. كالطهارة و الوضوء ، فأكدوا أن تحت كل شعرة جنابة ، وأنه لو ترك من غسل الوجه واليدين ، ولو بمقدار رأس ابرة ، فالوضوء باطل ، والصلاة باطلة بالتبعية ، وأن هذا ينطبق على «المانيكير» الذى يحول دون تلامس الماء للاظافر ... ألخ .

ازاء هذا التغلغل فى التفاصيل ، وطابع التشدد أخذا بالأحوط وسدا للذرائع ، لم يعد بوسع المسلمين أن يستخدموا المنطق ، أو الأصول التى كان يمكن أن تثمرها «الرؤية الإسلامية» لاتخاذ القرار فى أى تصرف ، وأصبح عليهم إما أن يسلحوا أنفسهم بموسوعات الفقه والحديث والتفسير ... الخ ، وإما أن يسألوا الفقهاء فى كل كبيرة وصغيرة ، جليلة أو حقيرة ، ومن هنا تضخم باب الاسئلة والفتاوى فى الصحف الإسلامية أو العامة .. حتى «حواء» ! والمرء يتعجب من تفاهة ما يسألون عنه ، وتوقفهم ازاءه ، ويتعجب أكثر مما يصول به ويجول الفقهاء من كر وفر وعود الى كلام الفقهاء الاقدمين واختلافهم ... ألخ .

وما هو الخطأ فى هذا ؟

الخطأ فى هذا ايقاف استخدام مجموعة الأصول التى تستمدها «الرؤية الإسلامية» من روح القرآن وروح الممارسات النبوية والتى تعتمد أساسا على المعقولية والمنطق ومبدأى العدالة والسماحة ، اللذين يميزان الرؤية الإسلامية ، والشخصية الإسلامية ، وبالتالى الاعتماد فى اتخاذ القرار على الغير ، الذين قلما تأتى ردودهم متفقة مع «الرؤية الإسلامية»

وقد كان لدى الصحابة «الرؤية الإسلامية» التى كانوا يستطيعون أن يحسموا

بها أعقد القضايا ، وليست نقطة بول ، أو رأس إبرة لم تعمها مياه الوضوء ، مثل قضية التحسين والتقبيح التى كانت سببا فى انشقاق المعتزلة ، وظلت حتى الآن من أكبر قضايا الفقه الإسلامى .. هذه القضية لم تستحق أن يتوقف عندها النعمان بن مقرن رسول المسلمين الى رستم الذى قال على البديهة وهو يتحدث عن الإسلام .. وهو دين يَحّسن الحسن وُيَقبِّح القبيح .. ففصل فيها على أساس البداهة ورأى الصحابة فى القضاء والقدر قوة دافعة لأنه اذا لم يصبنا الا ماقدر الله لنا فلا معنى للسلبية ولم يسمحوا لقضية مثل الصفات أن تعكر صفوا ايمانهم .. فكل هذه القضايا حلوها بحكم توفر «الرؤية الإسلامية» لهم .

وقد يروق لبعض فقهائنا عندما يريدون التنديد بأحد الكتاب أن يقولوا إنه «لايعرف فرائض الوضوء أو أركان الوضوء» !! دون أن يخطر ببالهم أن هذا يمكن أن ينسحب على ابن عباس الذى ما فتأ يقول إنه لايرى الا غسلتين ومسحتين !

فسواء كان الأمر قضية جزئية ، أو قضية كلية .. فإن افتقاد الرؤية الإسلامية جعل المسلمين فى تيه ، وأفقدهم المعيار السليم الذى يجمع مابين الأصولية الإسلامية ، والمنطقية العقلانية .

* * *

— ٤ —

بين التقوقع والتميع(1)

القضية التي تتصدر الاهتمامات وتشغل الاولويات وتمثل الحرج والتحدى للطالب المغترب والعامل المهاجر هى كيف يمكن أن يتكيف مع ظروف هذا البلد الجديد أمريكا أو بريطانيا أو فرنسا .. ؟ ؟ كيف يمكن أن يحتفظ بتقاليده وعاداته وآدابه الاسلامية وفى الوقت نفسه يختلط بهذا المجتمع الجديد الغريب بحيث يستوعب دراسته ويؤدى مهنته ويتجنب المعوقات أو الحساسيات التى لابد وأن تثور أمامه بالنسبة لوضعه الخاص ؟ .

بعض الأفراد ما أن يواجه المجتمع الأوروبى/ الأمريكى حتى ينبهر فتتزلزل خلال أسابيع أو شهور العادات والتقاليد والقيم والمبادىء القديمة زلزالا شديدا . ثم تتهاوى أمام صور الاغراء ومظاهر التحلل ووسائل الاستمتاع ويحس أنه كان فى « جَرّه وطلع لبره » كما يقولون فى ريف مصر .. ويتفاوت ماينتابه من تطور ما بين التميع الذى يصيب مقوماته والذوبان الذى يأتى عليها ويفقده شخصيته الخاصة .

ولكن يحدث فى حالات أخرى أن تثير مظاهر الحياة الاوروبية/ الأمريكية قوى المقاومة فى النفس خاصة لدى الذين نشأوا نشأة إسلامية عميقة فهؤلاء لا يستشعرون إعجابا وإنبهارا بل يحسون عزوفا وكراهية تؤدى بهم إلى نوع من التعصب والتقوقع والانعزال عن هذا المجتمع الكافر الضال المنحل !

---

(1) نشرت بمجلة «الطالب المغترب» بالولايات المتحدة ، وتصدرها لجنة طلبة اتحاد القوى الشعبية (الشوريين التعاونيين) بالجامعات الأمريكية .

وفى نظرنا أن المسلكين خاطئان .. فالمسلك الأول يقضى على الشخصية الخاصة للمغترب طالباً أو عاملاً دون أن يكتسب – ضرورة – الشخصية الأوروبية الأمريكية – ويغلب دائما أن يستشعر نوعا من النقص إزاء المجتمع الجديد الذى لم يبح له بكل اسراره و لم يفتح له كل ابوابه واعتبره رغم استعداده للذوبان دخيلا . كما أن الرفض والتقوقع لن يمكن صاحبه من أن يفيد مما يقدمه المجتمع من مزايا وفرص وسيعسر عليه أن يحقق تماما ما جاء من أجله دراسة أو تجارة أو مهنة .

وقد نجد مثالين واقعيين للتطرف فى الموقفين فى عمال الشمال الأفريقى « من مغاربة وتوانسة وجزائريين » الذين ذاب كثير منهم فى المجتمع الفرنسى وإن ضاق بهم المجتمع الفرنسى ، وفى العمال الاتراك الذين يقيمون فى أحياء خاصة من المدن الألمانية التى يعملون فيها ولا تجمعهم بالمجتمع الألمانى إلا ساعات العمل ولايلمون من الالمانية إلا بما يفى لتبادل الأحاديث الضرورية .

ولو تقصينا مواقف الأغلبية العظمى للطلبة والعاملين المغتربين لوجدنا أنها تذبذب ما بين التقوقع والتميع بنسب متفاوتة دون أن تتوصل إلى الموقف السليم لأن ..ا الموقف السليم ، وهو صعب وشائك وحساس ، لا يمكن التوصل اليه بالتلقائية أو العشوائية أو الهوى أو حتى الاجتهاد الفردى ، فهو مرتبط بعوامل موضوعية قدر ما هو مرتبط بنزعات ذاتية ، وهناك عدد من المبادىء والأصول تحكمه وتحدده وتقيمه على أساس « ايديولوجى » أو على الأقل « مبدئى » بعيدا عن الهوى والعواطف ، وأهم هذه المبادىء والأصول هى ما يتعلق بالاسلام الذى يهمله البعض فيذوب ، ويتعصب له أو يسىء فهمه البعض الآخر فيتقوقع ، لان الاسلام هو عصمة المسلمين جميعا ومن هنا فإن من المهم ابراز المبادىء والاصول الاسلامية التى تؤثر على الموقف .

أولاً – أن المسلم « النمطى » برىء من عقدة النقص أو نزعة الاستعلاء ..

برىء من عقدة النقص لانه يعلم حق العلم أن دينه هو منتهى الأديان وأن رسوله هو خاتم الرسل وأن أى مقارنة ما بين كتاب الاسلام « القرآن » ورسول الاسلام « محمد » من ناحية وبقية كتب الأديان الأخرى ورسلها لابد وإن تسفر عن الافضلية المطلقة لكتاب الاسلام ولرسول الاسلام ، وهو يعلم أيضا أن الأسلام إكتسح العالم القديم اكتساحا وحرره من إسار القيصرية الرومانية والكسروية الفارسية ونظمهما الطبقية الجائرة واحل محلها « الكتاب والميزان » أى العلم والعدل . وأن الاسلام أنجب

من الخلفاء والقادة ورجال الدولة ما عجز عن تقديمه الرومان القدامى أو الاوروبيون المحدثون ، وأن واقع « دولة المدينة » المنورة يفضل خيال « جمهورية افلاطون » ، وأن المجتمع الاسلامى الأول أوجد عظماء العلماء فى الرياضة والطبيعة والهندسة ومختلف العلوم إلى آخر أمجاد الاسلام التى لا يتسع لها المجال . وهو ثانيا برىء من نزعة الاستعلاء والزهو لانه يعلم أن هذا كله من الله تعالى وأن الفضل فيه إلى الله وحده وأنه تعالى عندما آثر المسلمين بهذه النعم فأنه ربطها بقيام المسلمين بواجبهم فإذا أخلوا به حرموها وظفر بها غيرهم ممن هو أحق بها لأن الأرض لله يورثها عباده الصالحين كما أنه يعلم حق العلم أن الشنشنة بالانساب أو الاجناس أمر يستبعده الاسلام تماما ، وأن الشعوب جميعاً سواء دون تفرقة والله تعالى لا ينظر إلى الوان الناس أو اجسامهم ولكن إلى التقوى منهم ولهذا فإنه لا يستشعر استعلاء أو عدوانية أو زهوا أمام الآخرين .

ثانياً — يرتبط بالصفتين السابقتين وينشأ عنهما أن أصبح للأسلام طبيعة موضوعية وليست ذاتية ..

بحيث تكون « الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنَّا وجدها » وبحيث لايجد الرسول حرجا من أن يقول بالنسبة لموسى وبنى اسرائيل « نحن أحق به منهم » وأنظر إلى موضوعية ونزاهة القرآن عندما يتحدث عن الخمر والميسر **﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ البقرة ٢١٥** وكذلك « ولا يجر منكم شنأن قوم على أن لاتعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى » و « لا تبخسوا الناس اشياءهم » والاسلام هو دين الحق وهى الكلمة التى يعبر بها القرآن عن الموضوعية . إن القضية هى أن الاسلام فى حد ذاته يدعو إلى الحق وحيثما يكون الحق يكون الاسلام بل ان الله تعالى سمى نفسه « الحق » ومن هنا كان الحاكم الكافر العادل أفضل واقرب إلى الاسلام من الحاكم المسلم الظالم لان الظلم إنتهاك للحق وأى إنتهاك للحق هو إنتهاك للاسلام وأى قيام بالعدل هو تطبيق للحق أى للاسلام .

ثالثاً — إن الاسلام ليس عبادات فحسب ..

إن العبادة ليست الا مكونا واحدا من مكونات الاسلام . ومن المكونات الأخرى العمل وما يرتبط بالعمل من صلة بالمجتمع أو علاقات بين الناس من وفاء بالالتزامات وصدق فى المعاملات وإحسان فى الاداء ، ومن مكونات الاسلام الشريعة

وكل ما يدخل فى عالم السياسة والاقتصاد والقانون وإتاحة الحرية والطمأنينة للناس وتحقيق العدالة الخ .. فالاسلام لايقتصر على العبادة ، ولا هو يتمحور حولها .

والاسلام ينفى الحرج عن المسلمين ما أمكن ذلك ويعتبر التيسير أصلاً من أصوله وهو يعترف بالضعف البشرى ولا يفترض فى المؤمنين العصمة ويقنع منهم أن لا يرتكبوا « كبائر الاثم والفواحش » وتوقع استسلامهم للضعف البشرى فى صغار الذنوب التى أطلق عليها القرآن « اللمم » ووضع طريقة معينة للتعامل معها هى أن الحسنة تجب السيئة « إن الحسنات يذهبن السيئات » و « اتبع السيئة الحسنة تمحها » ورحب بالمذنب المستغفر .

إن استيعاب هذه الأصول والايمان بها يعين الطالب المغترب والعامل المهاجر على تكييف موقفه فى المجتمعات الاوروبية فلن يستشعر الدونية التى تجعله يذوب ويتلاشى فى هذا المجتمع ، ولن يحس بالاستعلاء الذى يدفع به إلى الرفض والترفع والاعتزال ، وسيستشعر أنه فرد من أسرة البشر ومن المجتمع الانسانى وأنه بقدر ماتوجد من عوامل للفرقة فهناك أيضا عوامل للوحدة فنحن وهم من أم واحدة وأب واحد ونحن وهم ندين بأديان سماوية حتى وإن حافت الكنائس ورجال الدين والمصالح المكتسبة على روح المسيحية السمحة ، وحقيقة أنهم ليسوا مسلمين أمر لا يزعجه البتة لان هذا هو ما اراده الله وما أوضحه فى القرآن مرارا وتكرارا .. وقد وجهنا الله تعالى للتعارف وأمر أن لا يحملنا شنآن العدوان على الظلم أو على أن نبخس الناس أشياءهم ووجهنا لان نلتمس الحكمة فى مظانها وأن نطلب العلم ولو فى الصين فمكاننا وسط هؤلاء الناس الذين تختلف ألسنتهم وبشراتهم وعاداتهم وطرائقهم ليس امرا مستغربا ولكنه التطبيق لدعوة القرآن فى السير فى الآفاق والتعارف بين البشر وطلب الحكمة والعلم من مظانها فلا يجوز أن نسمح للكره أو الهوى أن يتحكم فينا فلا نستشعر ضعفا أو ذلة نحوهم ولا نظلمهم حقهم أو نبخسهم أشياءهم .

داخل هذا الاطار العريض نستطيع أن نعالج بعض التفاصيل منها ..

١ - قضية الزى : ليس الزى جزءً من العقيدة ولكنه يعود بالدرجة الأولى

الى العادات والتقاليد وضرورات المناخ وطبيعة العمل وصناعة الأنسجة والملابس ، فلا يتصور أن نلبس فى المناطق الباردة ما نلبسه فى المناطق الحارة أو أن نقتصر على ماكان عليه الحال قبل ظهور التطورات الضخمة فى صناعة الأنسجة وتفصيلها إلخ . وليس هناك مايمنع من أن نلبس ونحن فى دار الهجرة ما يلبسون خاصة وأن من الكياسة أن لا نثير الشكوك والريب حولنا ، أو أن نوجد جوا يغلب أن يكون عدائيا بحكم الزى الغريب .

وبالنسبة للمرأة المسلمة فالمفروض أن تلتزم بآداب الحشمة الإسلامية وهذا لا يعنى ضرورة التمسك بالحجاب المألوف وإذا أرادت أن تستر شعرها فيمكن أن ترتدى قبعة تحقق المطلوب ويجب أن نتذكر أنه قد كان من أسباب الحجاب «ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين» وهى الحكمة نفسها تُملى صرف النظر عن الحجاب التقليدى حتى لا يؤذين ، المهم أن لا يكون هناك تبذل أو تبرج «الجاهلية الأولى» .

٢ - **الأكل والشرب** : يحرم الإسلام كما هو معروف - لحم الخنزير كما يحرم شرب الخمر وليس هناك صعوبة فى اجتنابهما تماما وسيمكن للطالب المغترب أن يلم بالأطعمة التى يدخلها لحم أو شحم الخنزير فيتجنبها وليس هناك أقل حرج فى هذا فمن الآداب المرعية دائما ترك الحرية لكل واحد فى أن يأكل ما يشاء ويختار دون أى افتيات عليه فهذا شأنه الخاص ، كما لن يشق عليه أن يمتنع عن الخمر فهناك كثيرون يمتنعون أو يقلون من الخمر ويتمتعون بالتقدير والاحترام فالطعام والشراب ليس فيهما إعنات كبير لا للمغترب ولا للمجتمع الأوروبى الأمريكى نفسه .

٣ - الحياة الاجتماعية والعلاقة بالمرأة .. إن دخول المرأة فى المجتمع الأوروبى بالصورة التى نعرفها قد يوجد حرجا شديدا للطالب المغترب فى حالات عديدة ، فقد يدعى الى حفلات راقصة تعقدها اتحادات الطلبة وغيرها فى مختلف المناسبات ويصعب على الطالب المغترب مقاطعتها لأن ذلك يمكن أن يمس وضعه فى الجامعة أو يعطى انطباعا معينا عنه ، والأمر فى الحقيقة يتطلب قدرا من الكياسة فيمكن الاعتذار عن أشد هذه الحفلات ابتذالا ، ويمكن حضور البعض الآخر والأعتذار عن مراقصة زميلاته بمختلف الحجج والاعذار ، فإذا لم يكن بد فليعتبرها من اللمم «وقد أعتبر بعض المفسرين أن

من اللمم القبلة والضمة» وليكفر عنها بعد ذلك بما يستطيع من حسنات من صدق واخلاص وخدمة لاخوانه ، وله أسوة بالرجل الذى قال للرسول إنه مارس مع احدى النساء ماهو دون الزنا فسكت عنه الرسول حتى قامت الصلاة وصلاها الرجل معه فلما أعاد الرجل مسألته قال الرسول ألم تصل معنا ؟ إن الحسنات تذهبن السيئات .

٤ – **العلاقات الجنسية** : هذه هى أشد القضايا حرجا وارهاقا للطالب المغترب وقد يرى فيها تحديا يكون عليه أن ينتصر بايمانه عليه فيسمو بغرائزه ويوجهها نحو مختلف المجالات السليمة ، ولكن هذا إن صدق بالنسبة لواحد فإنه يصعب بالنسبة للآخرين لأن الغريزة غلابة والطالب المغترب والعامل المهاجر قد يقضى فى دار غربته بضع سنوات فى ريعان الشباب ووسط المغريات ولن يكون مفر من اقامة علاقات جنسية ، وقد وضع الإسلام الحل لهذه القضية ولكن المسلمين لا يريدون الأفادة من الرخصة التى قررها ومن الحل الذى وضعه الرسول وفرضوا على أنفسهم العنت الذى رفضه الرسول «لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم» وهذا الحل هو ما يطلق عليه الفقهاء «نكاح المتعة» وكلمة المتعة فى حد ذاتها توضح لنا كيف تجرد المسلمون الأول من «العقد» التى استبعدت الفاظ المتعة والاستمتاع والتمتع كما لو كانت خروجا على سمت الإسلام وما ينبغى له من حفاظ ، والله تعالى أعلم من المؤمنين بأنفسهم وهو يعلم من الناس ما يخفون وهو أقرب إليهم من حبل الوريد وقد رخص الرسول ﷺ بهذا النوع من الزواج المحدد المدة وجعل احكامه كاحكام الزواج باستثناء المدة وقيل إن الرسول ﷺ نهى عنه بعد ذلك ولكن المسلمين ظلوا يمارسونه طوال خلافة أبى بكر وجزءا من خلافة عمر حتى نهى عنه عمر وحرمه . وتحريم عمر يفهم منه بوضوح أنه هو الذى حرمه وليس الرسول ولو كان نهى عمر مبنيا على نهى الرسول لما إحتاج إلى أن ينهى هو ولأحال الأمر على نهى الرسول فهو أولى ، ويكاد يكون من المحقق أن عمر رضى الله عنه خشى إساءة استخدام الناس لهذه الرخصة فبادر بسد بابها وكان مصيبا فى اجتهاده هذا ، ولكن التحليل والتحريم مردهما الى الله تعالى وليس الى أحد من البشر وتحريم عمر لها لا يعنى استمرار تحريمها اذا جدت الأسباب التى من

أجلها رخص الشارع فيها وهو ما نعتقد أنه ينطبق على الحالة التي نحن بصددها ، حالة المغتربين .

واستخدام هذه الرخصة سيحل عددا من المشكلات فسييسر وضع الغريزة محلها وبطريقة مشروعة بعيدة عن الزنا الكريه وقد يستطيع أن يهدى الزوجة الى الإسلام وهو « خير من الدنيا وما فيها » ومسألة الأولاد الشائكة التى كانت أصعب ما فى القضية يمكن استبعادها لسهولة وسائل تنظيم النسل «وهو بدوره مشروع ما لم يتخلق جنين» ولن يترتب عليه ما يترتب على الزواج العادى الدائم من مشكلات عويصة «خاصة فى أوروبا وامريكا» عند الطلاق فى حالة فشله ولن يثير هذا الأسلوب ضيقا لدى الطرف الآخر لأنه هو نفسه لا يريد التورط فى زواج دائم قبل التثبت ولأن للزواج المحدد المدة أنصار كثيرون يقدرونه ليس كرخصة ولكن كمرحلة قبل الزواج الدائم وقد وضع ليون بلوم الزعيم الاشتراكى الفرنسى كتابا كبيرا يدعو فيه الى هذه الفكرة ويسميها زواج التجربة ولها أنصار عديدون فى الولايات المتحدة مثل القاضى لندسى وغيره .

وبهذه الطريقة يمكن للطالب المغترب أن يحل أزمته الجنسية طوال مدة دراسته حتى يأووب الى بلده أما بالنسبة للمهاجر هجرة دائمة فان زواج المتعة سيقدم له الطريقة الوحيدة المشروعة للتوصل الى الزوجة الصالحة التى يمكن أن يحيى معها الى الأبد ..

★ ★ ★

إن هذا القسم الأول من المقال لا يتعرض لجانب هام من هذه القضية يتعلق بالاقليات المسلمة التى تُطالَب بأن تندمج فى المجتمع الأوروبى/ الأمريكى بحيث يتقبلها هذا المجتمع فيمن يتقبل من اقليات ومن ثم يمكنها أن تطمئن على أوضاعها ومستقبلها ، ولعل هذا هو ما يهمنا فيما نحن بصدده ، إذ سيمكنها هذا من المشاركة فى وضع سياسات وخطط هذا المجتمع داخلية وخارجية بما يتفق مع الخطوط الإسلامية ومصالح المجتمعات الإسلامية وحركات التحرر الإسلامى .

إن الأخذ بفكرة الاندماج يجب أن يكون عن طريق «استراتيجية» بعيدة المدى لها أهداف قد لاتتم إلا فى المستقبل البعيد وبعد عدة أجيال ، ولكنها مالم تتخذ الآن فلن يتحقق بالطبع المطلوب منها والذى لا يمكن لغيرها أن تحققه والزمن بعد أمامنا ولا نستطيع أن نفر منه . ونظرية الإسلام كلها تدور حول إيثار الآجلة على العاجلة .

إن الاندماج فى المجتمع الأوروبى - الأمريكى قد يتطلب الأخذ بمعظم مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولكنه لا يتطلب - ضرورة - الأخذ بها كلها . وسيكون على الأقليات الإسلامية أن تضع خطة محكمة ومحددة ، وأن تتوفر لها الشجاعة للأخذ بما لا مناص من الأخذ به ، والحكمة التى تحول دون تجاوز هذا القدر . وسيفيدها أن تدرس تجربة الشعب اليهودى فى المجتمع الأوروبى - رغم وجود بعض الاختلافات .. إن اليهود استطاعوا ليس فحسب أن يتغلغلوا فى المجتمع الأوروبى/ الأمريكى ، بل أيضا أن يسيطروا على فكر هذا المجتمع .

وقد يكون من مفاتيح هذه الخطة التزوج من أوروبيات وأمريكيات بعد إسلامهن لأنهم هن اللائى سيقدمن الأزواج المسلمين الى المجتمع الأوروبى .. ومع أن المقاييس الشرقية والإسلامية عن المرأة تختلف عن مقاييسها فى المجتمع الأوروبى فمن الخطأ أن نأخذ الفكرة عنها من السينما أو مما تقدمه مجلات الفضائح والابتذال والجنس .. إن المجتمع الأوروبى - الأمريكى يقوم على الحرية - ويسمح ذلك بظهور القلة التى تؤثر الشهوات أو تكسب منها ، ولكن المرأة الأوروبية مع هذا يمكن أن تكون زوجة ممتازة إذا أحبت زوجها وإذا أسلمت «وهذا شرط رئيسى لنجاح الخطة كلها» وهذه هى مسئولية الزوج المسلم ويمكنه أن يظفر بعقلها وقلبها إذا تمسك بالخلق الإسلامى من صدق ووفاء ومرؤة وشجاعة وأمانة .. ألخ .

وقد يتطلب الأمر الأخذ بأسماء أوروبية والأسماء لاتهم ونحن نجد من المحدثين من يحمل اسم «اسرائيل» و «داود» و «يعقوب» و «اسحق» و «موسى» و«ابن جريج» ويحمل المسلمون أسماء الأنبياء جميعا دون تفرقة .

كما سيتطلب الأمر الأخذ بالزى الأوروبى ومجاراة بعض تقاليد الحياة الاجتماعية بالصورة التى أشرنا إليها من قبل .

وفى الوقت نفسه فمن الضرورى للأقلية الاسلامية فى أوروبا وهى بالدرجة الأولى مسئولية الرجل — الزوج والأب ..

١ — البعد عن المحرمات صراحة كشرب والخمر واكل لحم الخنزير والزنا .

٢ — ممارسة الصلاة وصيام رمضان مع ملاحظة أن الزوجة والأبناء لن يستطيعوا — دائما — المواظبة التى يفترضها المسلم ولكن هذا التفريط سيستدرك ما ظل الأب — الزوج مواظبا وموجها الزوجة والأبناء الى الصلاة والصيام وسيهديهم الله الذى هدى « ثقيف » من قبل مع تقدمهم فى العمر واتزانهم فى الحكم والأمور بخواتيمها فلا يبخع نفسه ولا يحدث معهم قطيعة فيتعجل السيئة قبل الحسنة .

٣ — الحفاظ على اللغة العربية بأن يتحدث بها الأب فى المنزل مع الأبناء ويعلمهم اياها من الصغر ولا يهمل هذا الواجب فإنه سيكون الرباط بينهم وبين عالم الإسلام بحيث يمكن للأبناء أن يتحدثوا ويكتبوا العربية وهذا فيما شاهدت هو أصعب الأمور وما يقصر فيه معظم الأباء مع أنه أهمها ، ولو أن الأب تحمل بعض التعب فى سبيل ذلك لكتب له النجاح لأن للأطفال ذاكرة لاقطة وسيتعلمون العربية مادام أبوهم يحدثهم بها كما سيمكنه أن يعلمهم القراءة والكتابة وشرط نجاح ذلك أن يتم فى سنوات الطفولة الأولى وأن يواصله الأب دائما كما أن من الخير زيارة الموطن الأصلى كل سنة مرة وقضاء فترة فى المجتمع العربى الاسلامى . وأن يكون بالمنزل مكتبة عربية يشغل فيها «المصحف» مكان الصدارة وكما شاهدنا فإن الجيل الثانى — أى أبناء المغتربين ، خاصة المتزوجين من أوروبيات يكاد ينبت عن المجتمع الإسلامى لأن الأب أهمل تعليم أبناءه اللغة العربية فقطع الصلة التى تربط الأبناء بالعالم الإسلامى وأهمل غرس فكرة الإنتماء الإسلامى فى نفوس ابنائه . ومقارنة إهمال الآباء المسلمين بحرص الأباء اليهود يوضح جريرة الأولين .. فقد حرص اليهود على تعليم أبناءهم «اليديش» وهى اللغة العبرية الأوروبية وفرضوا على المجتمع الأوروبى ما يتطابق مع دينهم بعد أن تمكنوا من التغلغل فيه مع أنهم كانوا عرضة للاضطهاد وكان اسمهم ملوثا وذلك لأنهم سلكوا استراتيجية طويلة المدى تعنى بالجوهر أكثر مما تعنى بالمظهر . وعندما قابلت سفيرة اسرائيل فى موسكو «جولدا مائير» زوجة مولوتوف عبرت هذه عن سعادتها البالغة بمقابلة سفيرة

اسرائيل لأنها «بنت الشعب اليهودى» وأنها تتحدث «اليديشية» التى خاطبت بها جولدا مائير بعد ذلك .

٤ – يجب أن توجد تجمعات وتكتلات وتنظيمات تضم شمل الجالية الإسلامية وتعنى بمشاكلها وتساعدها للتغلب عليها وتطمعن على مُضّى الاستراتيجية الموضوعة .

وهناك ملاحظة اخيرة وهامة تلك هى أن هذه التجربة لن تنجح ما لم يستقر فى نفوس المقدمين عليها نوع من التقدير والتقبل للمجتمع الأوروبى الأمريكى يقوم على النزاهة فى الحكم وسعة الأفق والاعتراف بالحسنات الى جانب السيئات وأنه وإن كان الساسة وأصحاب المصالح فى هذا المجتمع من أسوأ الناس وأنهم ارتكبوا الموبقات فى سياستهم الخارجية وسلكوا سبل النهب والسلب الخ . فإن معظم شعوبهم بعيد عن هذه الجريمة وبرىء منها وظهر الكثيرون الذين يعارضون هذه السياسات كما أسهم علماؤها ومفكروها فى التقدم بمستويات الحياة الى الدرجة التى لم تبلغها البشرية من قبل . ويجب على الجالية الإسلامية أن تؤمن فعلا أن هذه البلاد قد أصبحت وطنهم الأول وأن وطنهم الأصلى قد أصبح هو الوطن الثانى وأن عليهم أن يخدموا هذا الوطن الأول بصدق واخلاص كمواطنين صالحين «بافتراض اكتسابهم الجنسية التى يمكن اكتسابها فى العادة بعد قضاء فترة معينة أو التزوج من أوروبية» وأن يقدموا لهذا الوطن اضافاتهم ، ولن يمنع هذا من أن يقفوا ضد أى سياسة تمس أوطانهم الأصلية أو المجتمعات الإسلامية لأن هذا يدخل فى باب الحرية السياسية وعليهم أن يستبعدوا تماماً تلك الفكرة التى تخطر للسذج من المسلمين من أنهم سيكونون فى الجنة وسيكون الأوروبيون «الكفرة» فى النار لأن الذى يحكم فى هذه القضية هو الله تعالى ورحمته وسعت كل شيء فلا داعى للأفتيات عليها **﴿قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الأنفاق﴾** فضلا عن أن الأوروبيين لم تبلغهم الدعوة الإسلامية كاملة ، أو على وجه التحديد ومن المحتمل أن لا يحاسبهم الله تعالى لذلك وأن يحاسبنا على اهمالنا ، وقد لا يدخلون الجنة ولكننا قد ندخل النار لاهمالنا . كما أن الأوروبيين قد يكونون أقرب الى بعض جوانب الإسلام من المسلمين أنفسهم ، والأصل فى المسيحية الإيمان بالله واحد أما حكاية الاقانيم الثلاثة فشيء لا يفهمه إلا رجال الاكليروس ، فلا ينقص الأوروبيون

إلا الإيمان برسالة محمد ﷺ ويغلب أن لا يرفضوها لو بلغوا بها بلاغا حسنا فليست الشقة بينهم وبين « لا اله الا الله محمد رسول الله » ببعيدة كما قد يبدو ..

إذا لوحظت الخطة التي اجملناها لمدة مائة سنة مثلا فيحق لنا أن نتوقع ظهور جاليات إسلامية قوية فى المجتمعات الأوروبية وأن يكون بين الوزراء والمسئولين شخصيات إسلامية بارزة ولنا أن نتوقع انتشاراً للإسلام فى أوروبا وتغييرا ملموسا فى السياسات الأوروبية تجاه الإسلام والدولة الإسلامية.، فإذا راجعنا «حسبة» المكسب والخسارة فلا مراء فى أنها صفقة رابحة فقد ضحينا ببعض المظاهر الثانوية وكسبنا للإسلام جمهورا ولسياسته تأييدا .

نقول هذا ونحن نعلم أن نسبة ضئيلة هي التي ستؤمن به أما الأغلبية العظمى فستقول ﴿بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا...﴾ .. البقرة ١٧٠ .

* * *

— ٥ —

الإسلام
خط الدفاع الأخير في مواجهة الكتابة

نشرت بمجلة « جسور » التى تصدر فى الولايات المتحدة ، ربيع ١٩٩٤، وجاء بمقدمتها :

« يعتزم الأستاذ جمال البنا إصدار كتاب بهذا العنوان يعالج فيه موضوعه بقدر من الأسهاب ، وقد آثر « جسور » بهذا المقال الذى يتضمن بعض أفكاره الرئيسية ... » .

حُم القضاء ..

ووجدنا أنفسنا فى مواجهة خطر ما حق يصغر أمامه ما تعرضنا له فى القرن التاسع عشر عندما دمرت مدافع الاساطيل الاوروبية حصون الموانى الإسلامية ، ودخلت جيوشها أراضينا ، واحتلت عواصمنا فى الشمال الأفريقى ، ومصر وسوريا والعراق وأيران وبقية الدول الإسلامية ...

الخطر الذى يحيق بنا اليوم ليس خطر الاحتلال العسكرى البغيض ، الذى كان على فجاجته ملموسا يمكن مجابهته وجها لوجه .. فإذا حصدت البنادق صفاً حلت

عله صفوف .. لم يعد القتال على الأرض ، أصبح فى السماء وأصبح قوى غير منظورة يمكن أن تدمر كل شيء .. صواريخ تنطلق من حاملات الطائرات فى عرض المحيط ، أو طائرات دون طيار ... ألخ .

وهذا التقدم الرهيب فى فنون القتال ليس الا ضلعا واحداً من أضلاع «مربع الاذابه» ، وتعود كلها إلى التطور السياسي والتكنولوجى .. وأضلاع هذا المربع هى :

(١) قوة عسكرية قاهرة لايمكن لاى دولة اسلامية ، أو حتى لمجموع الدول الإسلامية مقاربتها ، دع عنك مغالبتها ، وساعد على هذا أن التقنية العسكرية هى أعلى صور التقنية وأبهظها تكلفة .. فطائرة « الشبح » تتكلف بضعة مئات من ملايين الدولارات ، وقد يكون من المفارقات أن تستعيد شركات السلاح بعض مواردها من بيع الأسلحة المتخلفة إلى العرب والمسلمين ، ولا قيمة لها بالطبع أمام الأسلحة الأمريكية المتطورة ! .

(٢) تقدم تكنولوجى فى وسائل الأنتاج لايمكن منافسته واحتكار أسراره والحيلولة دون تسربها ، وهو يقوم على استخدام العلوم من كيمياء أو طبيعة أو كهرباء ... ألخ ، وبهذا التقدم توصل الغرب إلى وسائل صنع واداء ، بل وإلى « تخليق » المواد التى تعوزها ، أو التى لا توجد فى الأرض بالتكوين المطلوب .. والتوصل إلى مصادر للطاقة ، وإن كانت تفضل أن تستنزف طاقة المسلمين – البترول – أولاً ...

وتوضع الخطط الاقتصادية والمالية لمساندة التقدم التكنولوجى ، كاتفاقية الجات ، والشروط التى يضعها صندوق النقد الدولى على السياسات الاقتصادية للدول التى تريد مساندته ، بحيث تجد الدول الإسلامية نفسها مقيدة تكنولوجيا واقتصاديا وماليا .

(٣) فكر حضارى – دعائى/ سيكولوجى يعرض عبر قنوات التليفزيون والأقمار الصناعية .. ألخ ، وقد قدر أحد الكتاب أنه ستوجد قريبا ما يقرب من خمسمائة ألف قناة تليفزيونية تبث كلها أنباء أو أحاديث أو ثقافات أو صورا من الفنون لاتعرف حدا تقف عنده .. كلها بأعلى درجة من التقنية اللامعة ، الجاذبة ، الآسرة ، وكلها تعمل على تمييع شخصية المواطن المسلم بحيث تذوب مقوماته شيئاً فشيئا .

وتنشر أجهزة البث التليفزيونى هذه الصور الاستهلاكية ، الاستمتاعية ، للحضارة الاوروبية دون أن تشير أقل اشارة إلى ماتطلبه ذلك من عمل دائب ، أو علم نافذ .

(٤) خط سياسى رئيسى يقوم على الشك فى الدول الإسلامية ، والنظرة اليها نظرة « دونية » والتفرقة بينها وتفتيت وحدتها إلى دويلات على رأس كل منها أمير له حرس ، وعلم ، وسلام ! واضرام النعرات العنصرية ، ولامانع من التحرش بها أو إشعال نار الحرب فيما بينها بين آونه وأخرى ، كما حدث ما بين العراق وايران ، والعراق والكويت ، ومساندة متمردى جنوب السودان ! .

* * *

بتلاقى هذه الاضلاع الاربعة ، بعضهما ببعض ، يتكون مربع الاذابة الذى يكون أشبه بحوض كبير يتدفق فيه حامض كبريتيكى يذيب القيم وكذلك المقومات ، بل حتى بعض الخصائص البدنية للسكان بحيث يكونون - فى النهاية - عجينة يمكن للغرب أن يشكلها كما يشاء ويتحكم فيها كما يريد .

* * *

وليس هذا هو كل شىء ...

إن هذا المربع يعمل تحت مظلة الشرعية الدولية المزعومة ، وهى التى ظهرت نتيجة لتفكك المنظومة الاشتراكية التى كانت توجد نوعا من «الثنائية القطبية» فى السيادة الدولية ، فأفسح تحللها المجال للقوة الرأسمالية التى تمثلها الولايات المتحدة ، وتملكها نوع من الغرور والزهو قد يمثله ماذكره الكاتب اليابانى/ الأمريكى عن « نهاية التاريخ ! » ، أو ما أشار اليه القرآن الكريم « يحسب أن ماله أخلده » ... وتحت مظلة مزعومة ، مصنوعة بدأت الولايات المتحدة ممارسات هى فى حقيقتها نوع من العربدة أو القرصنة الدولية ، تعيد إلى الذهن سياسات روما فى العهد القديم ، وسلطت أسلحة جديدة لم يكن للعالم بها عهد كالمقاطعة التى تفرضها على دولة ، فتشل الطيران اليها ،

أو أمدادها حتى بالغذاء ! .. وطبق ذلك كله بوحشية على العراق ، وليبيا ، بحيث لم تستطع مصر – وهى اقرب الدول اليها ، وذات المصلحة المباشرة – أن تفعل لها شيئا ، وانصاعت لأوامر المقاطعة .. وفى الوقت نفسه ، فأنها تسكت على وحشية الصرب وتراوغ ، ووضعت قائمة « للدول المساندة للارهاب » تضع فيها من تشاء ! .

وتتخذ الولايات المتحدة من اسرائيل وكيلا عاما مفوضا فى التعامل مع الدول العربية ، بعد أن غرستها فى قلب المنطقة ، ومكنتها من الاستحواز على أحد أقداسها ، وزودتها بالسلاح ، وساندتها فى كل ماتفعل ، حتى أصبح هذا القزم الضئيل ماردا .. وهكذا تفعل اسرائيل فانها تمد يدها لتشد إحدى جاراتها لكى تتفق معها وتذعن لها ! .

وبتأثير هذه القوة الضاغطة ، وتشرذم الدول العربية والإسلامية ، واستخذائها ، استطاعت اسرائيل أن تقفز بعدد سكانها من مليون إلى قرابة خمسة ملايين ، وأن تقضى على مقاومة الدول العربية واحدة تلو الأخرى ، وأن تدخل فى معاهدات معها ، وهى اليوم تتهيأ لخطوة جديدة هى أن تجعل من منطقة الشرق الاوسط – كما يقولون – سوقا للمنتجات الأوروبية التى تمولها وتشرف على سياستها اسرائيل ، بحيث يُستلحق اقتصاد المنطقة ، وانتاجها فى الزراعة والصناعة والتجارة باقتصاد اسرائيل ، والرأسمالية الصاعدة !

وهكذا نجد مربع الاذابة يحتوى الدول العربية الإسلامية تدفعه ، وتحميه اسرائيل من ناحية ، والولايات المتحدة من ناحية أخرى !

* * *

أين المفر ؟ !!

العدو فى البر ، والبحر ، والجو !

العدو يطبق على الاقتصاد ، والصناعة ، وما هو أهم تشكيل العقل العربى وإذابة الشخصية الإسلامية ومقوماتها الحضارية !

تبدو الصورة قاتمة مظلمة ...

ولكن من أشد ساعات ظلمة الليل ، ينبثق الفجر ...

إن السياسيين ورجال الاقتصاد وكثيرا من المفكرين فى الدول الإسلامية لايرون حلا أو فرارا الا الاستسلام ، وعزاؤهم هو أنهم سيستحوزون على الجزء الاعظم من فتات المائدة ، وهو وان كان فتاتا ، الا أنه يكفيهم وزيادة ، وهم بعد رجال « الممكن » ، وما من الممكن مناص ، ورجال الأرقام ، والأرقام لاتخطىء !

والاوروبيون والامريكيون لاتخالجهم الشكوك فى استسلام المنطقة بعد أن أطبقت عليها الشبكة واحتواها « مربع الاذابه » لانهم يفهمون الانسان مابين « الانسان الاقتصادى » الذى يعمل بوازع الربح وتحركة آليات السوق .. والانسان « الفرويدى » الذى تحكمه الغريزة الجنسية ، وتدفع به بعد عمل اليوم الشاق ولتعويض روتينيه هذا العمل إلى اثارة عاطفية جنسية يجد فى نهايتها الاسترخاء من توترات اليوم !

إن انسانا مثل هذا لابد وأن يستسلم بكليته إلى وازع الربح من ناحية وغريزة الجنس من ناحية أخرى ، ولايدور فى ذهنه فكرة الثورة عليهما . والاوروبيون يتصورون بقية الناس كالاوروبيين .. ما أن يوضعوا بين وازع الربح وغريزة الجنس حتى يستسلموا .

ولكن الاوروبيين – بما فيهم من سياسيين ورجال اقتصاد – ينسون عاملا هاما يوجد لدى ناس المنطقة ولا يوجد لدى أوروبا ، هو « الإسلام » .

وإنما أهمله الاوروبيون المعاصرون لأن أوروبا « وثنية » لم يظهر فيها الأنبياء من أولى العزم ليعرفوها على الله ، وقام بذلك الفلاسفة والشعراء والادباء الذين صنعوا « وجدان » أوروبا ودينها ، أما المسيحية التى تدعيها ، فليست الا قناعا ، أو ثوبا احتفاليا تلبسه لنصف ساعة كل أسبوع... وقد كان السياسيون الأوروبيون فى القرن التاسع عشر أكثر ذكاء ونفاذا فى فهم الأمور ، فقدروا للدين فى الشرق قدره ، لكن

السياسيين الاوروبيين اليوم استغرقتهم انجازاتهم فى التقنية والاتصالات وعلوم الفضاء والذرة والكومبيوتر .. الخ فتصوروا أنه ما من قوة يمكن أن تقف فى مواجهتها ...

* * *

الاسلام اليوم هو خط الدفاع الأخير فى مواجهة الاذابه ...

لماذا؟..

لأن أهم ما يجب أن نحرص عليه الآن هو أن نرفض الاذابة ، ونتحصن من تأثير عوامل الجذب ، وأن نحتفظ بشخصيتنا سليمة ، وتفكيرنا موضوعيا ، بحيث يمكن أن نفكر فى الطريق التى يمكن أن ندفع بها هذه الجائحة ، ورأسنا فوق الأمواج المتدفقة .

هذا هو أول وأهم مايجب أن نحرص عليه ...

وهذا هو مالا نجده الآن الا فى الاسلام ، لأن الاسلام هو أبرز مقوّم لشخصيتنا المستقلة وارادتنا الحرة ، وهو الوحيد الباقى بعد أن فقدنا حريتنا السياسية واستقلالنا الاقتصادى .

إذ ما الذى يمكن أن يجعل لنا شخصية مستقلة محصنة من الاذابة ؟..

قد يقال **اللغة** .. ولكن الاذابة تُقدَّم باللغة العربية أيضا عبر الاذاعات الاوروبية والامريكية .. ثم أن الصورة والنغم — وهما من أعظم معدات الاذابة ومؤثراتها — يتجاوزا اللغة ، لانهما تخاطبان العين والاذن مباشرة ودون محاورة .

واللغة العربية ، بعد ، هى بنت الاسلام ، ولولا القرآن لتمزقت اللغة العربية اشلاء ، ولأصبحت لهجات لاتفهم أو لغات مستقلة على مدار ألف وخمسمائة عام منذ ظهور الاسلام !

هل تكفى **« القومية العربية » أو التكتلات الأقليمية (الاتحاد المغاربى/ مجلس التعاون الخليجى/ جامعة الدول العربية** ... ألخ لقد إتضح تماما أن هذه كلها لاتقوم

على أساس ، وتجارب الوحدة الفاشلة ، وتعتبر جامعة الدول العربية خير شاهد على ذلك !

العادات ، التقاليد .. كلها مرنة يمكن أن تتطور وتساير مالم ترتبط بجذر أقوى وأعرق منها ، وليس الا الدين ...

فى مواجهة هذا ، نجد أن الاسلام يقدم الحماية المطلوبة كأفضل مايمكن أن تقدم ، بحيث لايكون سدا أصما ، قد يغلبه الذكاء ، ولكن سدا واعيا ذكيا يمكن أن يمتص العناصر المغذية ، المفيدة فى الحضارة الاوروبية ، وينفى خبثها فى الوقت نفسه .

إن الاسلام — وهذه ميزته — لايصد عادية الاذابة فحسب ، ولكنه يغرس قوة فى نفس الانسان ، ويفتح له أبواب وسبل الحلول .

ذلك لان الاسلام يعرض الله تعالى وما يشتق منه من قدرة على الخلق ، وكمال فى الابداع ، وقيم ومثل عليا من حب أو عدل أو خير أو سلام ، وما يرسيه من سنن يسير عليها الكون والمجتمع ، وما يرمز اليه من اطلاق وخلود وموضوعية يحن اليها الانسان الضعيف الممزق ، كما يحن الابن لأمه التى من رحمها ولدته ، وعلى صدرها أرضعته ، وفى أحضانها حمته .

يجد الرسول الذى يجسد المثل الأعلى ، قائدا ومشرعا وحاكما وأبا وزوجا ورسولا إلى العالمين ... يجد تلك الكوكبة من الصحابة التى ظفرت من التقدير بما لم تظفر به كوكبة أخرى فى التاريخ « أصحابى كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » .. إنهم الذين خلقهم الاسلام خلقا جديدا ، وأوجد فيهم أبا بكر وعمر وعلى وأبا عبيدة وخالد بن الوليد ...

يجد منظومة من المبادىء والأصول وضعها الاسلام وتجرى معادلة دقيقة ، وتسوية محكمة بين الفرد والمجتمع والطبيعة ، تحقق السكينة فى الفرد ، والسلام فى المجتمع ، والتوائم مع الطبيعة ، وتصنع للحياة غاية .

أين يجد انسان هذه المنطقة ، أو انسان العالم الثالث المستهدف للاذابة عوضا عنه أو بديلا منه ؟ وأين يجد الشمول والاحكام والعراقة التى للاسلام ؟ .

ان الاسلام وحده هو القوة الباقية التى يمكن أن تعصم انسان المنطقة من اذابة العالم «الكترونى» .

كيف ... ؟

أولا — هو يحول دون أن يصاب المسلم بصدمة الانبهار ، تلك الصدمة التى تجعله « كالموقوذة » لايكاد يقف على قدميه .. إن المؤمن بالله حقاً لايدهشه ولايبهره أى شيء آخر ، لأنه من خلق الله ، ومن ثم فان المسلم يحتفظ بذهنه صافيا ، وبتفكيره سليما ، يعمل عقله الايمانى ، وليس ثمة تعارض ما بين العقلانية والايمان ، بل إن الايمان هو أول ما تسلم به العقلانية الموضوعية الحكيمة .

إنه بفضل ايمانه يستطيع أن يحدد موقفه ويتخذ قراره أمام هذا السيل العرم الحديث .

قد يكون هو اولا — مقاطعة الكثرة الكاثرة مما تدفع به الاسواق والابواق . وهو إجراء وإن كان سلبيا ، الا أن المؤمن وحده هو الذى يستطيع أن يقفه ، لأن ايمانه يعصمه من الاغراء وعوامل الجذب والانبهار .

ولانجد حرجا فى أن نستشهد بواقعة من التاريخ البريطانى ، لأن طبيعة الايمان واحدة .. وهذه الواقعة تصور لنا كيف يحقق الايمان غايته ، تلك هى قصة « ليدى جوديفا » التى عاشت فى القرن الحادى عشر وطلبت من الحاكم أن يرفع مظالمه عن سكان اقليمها فى كوفنترى Coventry فوضع لذلك شرطا هو أن تسير عارية فى شوارعها ، وقبلت ليدى جوديفا .. وفى اليوم الموعود أغلق تجار البلدة جميعا محالهم ، وأغلق أهلها شبابيك بيوتهم بحيث أصبحت الشوارع خالية تماما كما لو كانت الحمام الخاص لليدى جوديفا .. وفشلت مؤامرة الحاكم فى اذلالها ! .

وقد نذكر أيضا تجارب غاندى فى المقاومة والعصيان المدنى التى أجبرت بريطانيا على التعاون معه والاعتراف به .

وأثر الاسلام أعظم من هذه جميعا ، لأن الاسلام منهج حياة ، وهو يعترف بكل مايؤثر على الحياة الدنيا ويفرزها ما بين صالح وطالح ، حسن وسيء ، خير وشر .. وهو يعترف أيضا بكل ماهو صالح وحسن وخير ويعمل له .. ومن ثم فليس هو بالدين السلبى الذى يتجاهل الحياة ، ولكنه الدين الايجابى الذى يتعامل مع الحياة على هدى وبصيرة ، ويستطيع أن يأخذ من الحضارة الحديثة ما يتفق معه ، وهذه الحضارة ليست من ابداع أوروبا بالكامل ، فقد أسهم فيها المصريون القدماء ، كما أسهم فيها العلماء المسلمون ، فهى حضارة البشرية ، ومع أن أوروبا طوعتها وختمتها بخاتمها ، فان عملية الانتقاء ، والتمييز والتمحيص لن تكون عسيرة .

بل يمكن أن نقول إن الاسلام يدفع المؤمنين به لمحاولة اختراق المجتمع الاوروبى والتأثير عليه .. لأن ما يعرضه من قيم هى ما يمكن أن ينقذ هذا المجتمع من بعض أزماته .

وبالنسبة لاسرائيل فهل يعقل أن توجد جزيرة صغيرة من خمسة ملايين وسط بحر هادر يزيد عن المائة مليون ؟ .

إن كل حقائق الجيوبوليتك وتجارب التاريخ تؤكد استحالة استمرار الروس الذين استقدمتهم اسرائيل من أقصى روسيا الباردة ، لتضعهم فى فلسطين الحارة .. ولو وضعت استراتيجية عربية اسلامية طويلة الأمد لاعادة هؤلاء الروس إلى بلادهم ، لنجحت !

كان جمال الدين الافغانى يقول « الاستعمار عارية » بمعنى أنه مهما وجد ، فلابد أن ينحسر !

وقد ظلت بعض الولايات الصليبية فى « الشام » لمدة قرنين ، وحكمت فرنسا الجزائر لقرن ونصف، وساد البيض جنوب افريقيا طوال ثلاثة قرون.. ولكن فى النهاية لايصح الا الصحيح، ﴿فأمّا الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض﴾ ١٧ الرعد.

- ٦ -

نحو إطار لا مركزى ... لحماية وحدة الأمة الإسلامية(*)

(١) أصبح من الواضح لكل ذى عينين ، أن الولايات المتحدة الأمريكية بسلسلة من المناورات ، وكنتيجة للتطورات السياسية الأخيرة التى أدت إلى تفكك الأتحاد السوفيتى الذى كان يتقاسم معها القوة والنفوذ وينافسها فى السياسية الخارجية ، قد انفردت اليوم بالقوة وتمكنت اخيرا من أن تصبح الدولة الوحيدة التى تهيمن — ولو لمدة ما — على شئون العالم !!

(٢) ولما كان من المعروف والمسلم به أن الولايات المتحدة الأمريكية تخضع لتأثير « اللوبى اليهودى » المسيطر على الاعلام والسياسة الأمريكية .

ولما كان بين الولايات المتحدة وإسرائيل « حلف استراتيجى » وأن الولايات المتحدة تعلن فى كل مناسبة أن تأييد إسرائيل هو خط من خطوط السياسة الأمريكية المقررة .

ولما كانت الولايات المتحدة من ناحية ثانية تهدف للسيطرة على منابع البترول فى المنطقة العربية ، وترى هذا ضمانا لصناعتها واقتصادها وأمنها ...

(*) نشرت بمجلة «منبر الشرق» القاهرية عدد رمضان ١٤١٣ — مارس ١٩٩٣ ومن الحق أن نقول إن صاحب فكرة (إطار لامركزى) هو الأستاذ ابراهيم الوزير المفكر اليمنى البارز ورئيس اتحاد الشوريين التعاونيين باليمن .

لما كان هذا كله من الأمور المقررة فى السياسة الأمريكية ... فان انفرادها بتقرير السياسة الخارجية للعالم لابد وأن يسير فى اتجاه احتواء الدول العربية وتجريدها من كل عوامل القوة التى تمكن هذه الدول من أن تقف فى وجه السياسة الأمريكية المدعمة لإسرائيل والطامعة فى البترول ، ولابد أن نتوقع أن يصبح هذا الاتجاه هو الاتجاه المقرر الذى « تمليه المصالح » على الولايات المتحدة الأمريكية ، ولا يمكن أن تقف أمامه التوسلات أو العواطف أو القيم أو المثل ... إلخ .

(٣) لم يطل بنا العهد حتى بدأ تطبيق هذه السياسة فى حرب العراق ، بعد استدراجها لغزو الكويت . وقد لا نجد مثيلا فى التاريخ الحديث يشبه « جبروت » الولايات المتحدة وصلفها وتصميمها على تدمير العراق والقضاء على كل المرافق والخدمات والصناعات تدميرا يجعل العراق يعيش ما قبل الثورة الصناعية – كما قالوا – مما يوضح أن القضية لم تكن أبدا (تحرير الكويت) وأن دعوى تحرير الكويت كانت وسيلة لاستلحاق الكويت (ومعها منطقة الخليج) وتدمير العراق .

إن الولايات المتحدة اليوم تمارس ما قامت به روما نحو قرطاجنة والشعار الذى رفعته « لابد من تدمير قرطاجنة » ولم يهدأ بالها الا عندما أصبحت قرطاجنة خلاء يهيم فيه البوم والغربان !!

(٤) قبل أن تنتهى آثار حرب العراق ، بعثت الولايات المتحدة من ملفاتها القديمة قضية طائرتين اتهموا ليبيا بتدميرهما لإشراك بريطانيا وفرنسا فى المؤامرة .. وعجزت كل العروض التى قدمتها ليبيا لتسوية الموضوع .. وبدأت العقوبات !!

(٥) ووسط المؤامرات التى تشن على ليبيا ، بدأت الولايات المتحدة تعد العدة للعدوان على سوريا ، وفيما بين ذلك ترسم السياسات التى توهن الصحوة الاسلامية فى كل مكان ، فى العدوان على البوسنة ، ومحاصرة السودان ، وتأليب القوى المضادة ، ووضع العراقيل أمام المجاهدين فى أفغانستان .. وقد أصبحت السياسة الدولية اليوم ، كما كانت فى القرن التاسع عشر ، عندما كانت المؤتمرات الاوروبية تعقد لاقتسام

آسيا وأفريقيا ، أو لتعديل القسمات السابقة وما يحدث فى البوسنة مما يشيب له الولدان دليل أخر على ذلك .

(٦) من المسلم به أن الولايات المتحدة ما كان يمكن أن تقوم بهذه العربدة الدولية ، لولا التطورات السياسية التى حرمت دول العالم الثالث من مناصرة الاتحاد السوفيتى الذى كان يجد مصلحته فى معارضة السياسة الأمريكية .. ولكننا مع التسليم بهذا ، فاننا نقطع بأن الولايات المتحدة ما كانت تجد الجزأة والصلف ، لولا أن فى النظم السياسية الداخلية للدول العربية فسادا ، جعل القيادات فى واد ، والجماهير والقواعد فى واد آخر .. وبهذا حرم القيادات من المناصرة الحقيقية للجماهير ، كما سمح للقيادات بأن ترتكب أخطاء فاحشة وقرارات مقهورة أملتها العواطف أو المطامع والسياسات الفردية القصيرة النظر !!

نعم .. لابد أن نعترف — للأسف الشديد — أن حكام معظم الدول العربية يتخذون القرارات المصيرية دون شورى حقيقية ، ودون دراسة متأنية ، ودون مناقشة لكافة أبعاد هذا القرار .. وأن هؤلاء الحكام أحاطوا أنفسهم بعصابات وبطانات من المتملقين أو أصحاب المصالح لايألونهم خبالاً وعندما ظهرت العواقب السيئة لهذه القرارات الفردية باءت بأوزارها الشعوب والجماهير التى لم يؤخذ رأيها فيها ، ولا كانت توافق عليها لو أخذ رأيها .

ولو كان البناء الداخلى للنظم العربية سليما والصفوف متماسكة ، والعلاقات ما بين الحكام والشعوب تتسم بالشورى والديمقراطية لما أستطاعت أمريكا أن تصل إلى طائل ، وقد هزمت من قبل فى فيتنام ، كما هزم الاتحاد السوفيتى أمام المجاهدين فى افغانستان .

(٧) أمام هذا الواقع المحزن ، وما يؤذن به المستقبل من ويلات تهدد البقية من الكيان العربى والاسلامى وجدنا أن علينا أن نبدع وسيلة نقف بها هذا الطوفان حتى يؤذن الله بتغير الأحوال ويظهر على الساحة الدولية من يناطح الولايات المتحدة الأمريكية ويشغلها !!

والحل الوحيد أمامنا هو أن نوجد اطارا من الهيئات والدعوات والمفكرين .. إلخ الذين يكون الاسلام محور دعوتهم ، يعمل بالوسائل الجماهيرية ويستخدم الدبلوماسية الشعبية ويحول – أو على الأقل يؤخر – هذا العدوان الذى يهدد بالتهام الدول الاسلامية .

وليس أمامنا خيار ، لأن مناشدة النظم الحاكمة أصبحت لاتجدى ، رغم ما تراه بأعينها من جراء سياستها ، والمشكلات التى حاقت ببعض الدول العربية نتيجة لاستبداد حكامها ، فهذا باب مغلق للأسف الشديد ، وليس هنالك فائدة من مناشدة الضمير الدولى ، واللواذ بالشرعية الدولية المزعومة ، وحتى هذا فلكى ينجح ، لابد من هيئات قوية منظمة تقوم به وتمارس ضغوطا فى سبيله .

ونعتقد أن القضية الحقيقية أمامنا ليست هى القرار نفسه ، ولكنها التوصل إلى عوامل نجاح هذا القرار ، خاصة وقد سبقته تجارب فاشلة بحيث ظن أن الثمرة الوحيدة التى تتمخض عنها المؤتمرات هى اتخاذ قرارات وتوصيات على الورق ، ولاتساوى الحبر الذى كتبت به .

هذه هى القضية الحقيقية ، ولكن تجاربنا العديدة الماضية فى أسباب إخفاق المؤتمرات والتكتلات السابقة ، تجعلنا نعمل على تجنبها فى محاولتنا الجديدة ، بحيث لاتنتكس ولا تلحق بأخواتها السابقة .. وسنعرض فيما يلى الضمانات التى تكفل نجاح المشروع :

(٨) من أهم الضمانات ، أن نتقبل الهيئات والدعوات الاسلامية بعضها بعضاً ، على علاتها ، كما هى ، فلا نرفض واحدة لأنها لا تتفق معنا فى بعض ما تذهب اليه ، ولانحكم عليها بالخطأ لذلك .. إن المهم هو شىء واحد ، هو أنك تؤمن بالشعار الجامع (لا اله الا الله محمد رسول الله) فما دامت تؤمن به فقد دخلت حظيرة الإسلام واكتسبت عصمته أما ما وراء ذلك من تفاصيل وخلافات فلا تضر .. فضلا عن أنها أمر حتمى متأتى من تفاوت الأفهام والتصورات ، ومن اختلاف البيئات والملابسات . وقد تقبل الرسول الاجتهادات المختلفة وأقر أن يحكم الانسان فيما لم يرد

فيه قرآن أو سنة باجتهاده ، بل وجعل للمجتهد المخطىء حسنة .. ورفض الإمام مالك أن يحمل الناس على الموطأ ، وآثر أن يترك كل مصر وماالديهم من علم ، وليس هناك ماهو أعظم فى تأصيل الاختلاف بين الناس ، وأنه ضرورة لامناص منها من قول الله تعالى ﴿ ولايزالون مختلفين الا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم .. ﴾ ١١٩ هود ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ ٤٨ المائدة ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ هود آية ١١٨ .

من أجل هذا لابد أن نتنازل عن فكرة الوحدة ، أو حتى الاتفاق فى الجزئيات والتفاصيل ، وما يجوز لنا أن نتمسك به أنهم جميعاً مسلمون .. وهذا ما يتوفر لهم بالايمان بالشهادتين ، وانهم أيضا حريصون على إنقاذ أمة الاسلام ، وحمايتها من الغارة الاوروبية/ الأمريكية/ الاسرائيلية .. وهذا أمر تكنه الضمائر ، ولا يمكننا الحكم عليه الا بالمواقف المعلنة ، والعمل الثابت .

ونحن نرجو أخواننا جميعا أن يدرسوا بعمق مواقف وسياسات الرسول صلوات الله وسلامه عليه بدءا من صحيفة الموادعة التى وضعت الحجر الاول فى سياسة الدولة الاسلامية ، حتى الحديبية ، وفتح مكة .. وكيف أن الضرورات كانت تلزم الرسول التعامل معها بسعة أفق ، وبمرونة ، وباتخاذ القرارات التى كان الصحابة أنفسهم لايلمون أولا بحكمتها .. إن الرسول يعرض لنا . رجل الدولة . كأفضل وأروع ما يكون .. فليكن لنا فى رسول الله أسوة حسنة ، ولنتخلص من التعصبات والتشنجات التى لم يأت بها الاسلام ، ولا يتسع لها ، أو يسمح بها العصر والظروف الحرجة القاسية التى تمر بها أمتنا الاسلامية .. وليقبل كل واحد منا الاخر ، على ما هو عليه فنحن جميعا نعمل من أجل هدف واحد ...

وقد يذكر فى هذا الصدد فكرة التقارب بين الدعوات الاسلامية ، وقد كانت فكرة التقارب مطلوبة فى الاربعينات ولكنها الأن ليست أفضل ما يطلب ، لأنها صعبة ومحدودة النجاح لتمسك كل فريق بما لديه ، ولعدم الاتفاق على المعيار الموضوعى للحكم بينها ، وليست هى الان المطلوبة وإنما المطلوب هو الاتفاق السريع على صد العدوان ..

وعندما يهدد وجود الدولة الإسلامية العدوان فلا يجوز أن نضيع الوقت للتقريب بين الشيعة والسنة أو بين الزيدية والحنابلة ... إلخ .

(٩) مادامت كل هيئة ستتقبل كل هيئة أخرى بروح طيبة واحترام لحرية الفكر ، وتقدير لضرورات الاختلاف ، فلن يكون هنالك داع لمحاولة هيمنة هيئة على الهيئات الاخرى ، أو فرض نفسها على الإطار المطلوب .. إن هذا لا يحدث الا عندما تكون الهيئة موفدة من حكومتها للترويج لسياسة هذه الحكومة ، وتفنيد ما عداها ومقاومة المعارضين .. وسيؤدى هذا لا محالة إلى فشل المشروع وتمزقه .. **ولهذا فمن الضمانات الهامة أن تكون الهيئات والدعوات المؤسسة للاطار هيئات شعبيه مستقلة عن حكوماتها لا تتخذ من عضويتها فى الاطار وسيلة لترويج سياسة حكوماتها ..** ولقد شاهدنا مؤتمرات عديدة توافرت لها كل مقومات النجاح تقريبا ، بأستثناء هذا العامل ، فلم تغن عنها شيئا وباءت بالفشل فى النهاية .

نحن لا نريد أبواقا للحكومات ، والسنة للحاكمين ، نحن نريد إيمانا إسلاميا بقضية هى أقدس القضايا قاطبة ، لأنها قضية الأمة الإسلامية .. وقد ترتكب حكومة ما خطأ وفى هذه الحالة يجب على الإطار بما فيه هيئات هذه الدولة أن تطبق الأمر النبوى « **أنصر أخاك ظالما أو مظلوما** » ونصرته ظالما بكفه عن الظلم . وهذا وأن كان يبدو للوهلة الاولى مسيئا إلى هذه الحكومة ، فانه فى المدى البعيد فى صميم مصلحتها ، إذ لو تُقُبِّل هذا الخطأ ، لقاد إلى خطأ آخر ، فثالث حتى تأتى النهاية المحتومة .. وعندئذ لاينفع أن نقول :

« الا ليتنا كنا ، إذ الليت لاتغنى » .

(١٠) مما يتفق مع الضمانات السابقة وروح هذا الاطار ، أن يأخذ شكلا لا مركزيا فى إدارته وسياسته ، إذ لا يمكن أن يقوم اطار دولى يعمل بروح ديمقراطية الا على أساس لامركزى إذ لو كان مركزيا لتطلب هذا بالطبع هيمنة ورئاسة أحد أعضائه على بقية الأعضاء وهو أمر استبعدناه ، وقد كان سبب فشل معظم التكتلات الإسلامية فى العصر الحديث ، وفى العصر القديم أيضا .. ولو أمكن إدارة الخلافة

إدارة لامركزية ، لما حدث الانقسام وظهور الدول الإسلامية التى أعلنت استقلالها عن الخلافة فى مصر والاندلس وإيران فدرس التاريخ هو أنه لا يمكن إدارة هيئة دولية على أساس مركزى ، لأن المركزية لا تسمح بالمرونة ... ونود أن نشير أن فكرة اللا مركزية كانت هى الحل الذى انتهى اليه أحرار العرب فى مستهل القرن العشرين كمحاولة لابقاء الدول العربية فى اطار الخلافة على أن يكون لها نوع من الاستقلال الذاتى ، وتكون حزب اللا مركزية سنة ١٩١٠ ، واتخذ من القاهرة مقرا له ، وكان نائب رئيسه هو السيد محمد رشيد رضا رحمه الله ، وللأسف فإن غلاة الترك الذين أرادوا تتريك الدولة رفضوا عرض العرب الذين أرادوا أن لا يفصموا علاقتهم بدولة الخلافة رغم كل الاخطاء التى وقعت فيها الدولة التركية ... !!

ولعل أقرب الهيئات إلى الإطار المقترح هى محاولة عبد الرحمن الكواكبى التى أخذت شكل مؤتمر أم القرى وسجلها فى كتابه (أم القرى) مضابط ومفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد فى مكة المكرمة عام ١٣١٦ .. وقد ضم المؤتمر مندوبين من مختلف الدول الاسلامية شرقا وغربا وتدارسوا فى أسباب ضعف المسلمين ، وما هى طرق النهضة بهم .. وهاهو ذا قرن كامل من الزمان قد أوشك أن يمضى على هذه المحاولة المجهضة ، ولو رزقت النجاح أو قامت ما يماثلها فلربما خلص العرب والمسلمون من بعض ما حاق بهم من الويلات .

(١١) والآن .. نأتى إلى النقطة الهامة ، الا وهى رسالة ودور هذا الإطار ، والغاية التى من أجلها تأسس ، والوسائل التى ينتهجها لتحقيق هذه الغاية ...

أما الغاية ، فهى الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية وحمايتها من غائلة الهجوم الذى تتعرض له على أيدى قوى الاستكبار العالمى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وتعميق الصلات فيما بينها بمختلف الطرق بتيسير المواصلات الجوية والبرية والبحرية وتكثيف التبادل الثقافى وعقد اللقاءات ... ألخ وتدعيم التعاون الاقتصادى بينها بحيث يمكن أن تكفى نفسها بنفسها ولا تتعرض لهزات مالية ، ولا يؤثر عليها حصار

اقتصادى ، ولاتضطر لتسول غذائها وكسائها من الآخرين ... إن البلد المسلم أولى بالقرش المسلم ...

وماذا فى يد الإطار المقترح لتحقيق هذه الاهداف ؟

إن الإطار ، وإن لم يملك جيشا أو أسطولا ، فإنه لو بنى على الأساس السليم المنشود وصدقت النيات والعزائم ، يمكن أن يمارس ضغوطا قوية ويقوم باتصالات فعالة بحيث يسمع العالم صوته ، ولا يكتفى فى هذا بالكلام ، بل بما يتخذه من إجراءات يملكها ...

إن النقابات العمالية والمهنية ، ورجال الاعلام ، والكتاب ، والصحفيين ، والفنانين يملكون دون شك قوى ولديهم وسائل فعالة على المستوى القومى والعالمى فلماذا لاتكون الاتحادات فيما بينها لتنسيق سياساتها ؟

إن الأموال التى يملكها أفراد مسلمون وعرب فى المصارف الاجنبية تبلغ مئات المليارات .. وإذا أمكن إقناع بعض هؤلاء باستثمار أموالهم فى الدول الاسلامية بدلا من وضعها فى أيدى اعداء الاسلام ... فإن اقتصاديات العالم الاسلامى يمكن أن تنتعش ...

وماذا على المسلمين ، أفرادا وحكومات ، لو استثمروا مائة مليار دولار — وهو مبلغ يمكن أن يوفره عشرة من أثرياء المنطقة النفطية — لمد شبكة من الخطوط الحديدية أو المواصلات فى السودان والنهضة بتصنيعه ، إنهم لو فعلوا لوفروا للعالم الاسلامى كله غذاءه ، ولنهضوا بالسودان ، ولأوجدوا منه دولة تنافس كندا والولايات المتحدة فى إنتاج الحبوب والقطن ...

ماذا لو استثمر كذا مليارديرمسلم أموالهم فى دور نشر تعمل على المستوى الإسلامى ، وتصل العالم الاسلامى بعضه ببعض ثقافيا أو وكالة للأخبار .. أو أقاموا شركة للملاحة الإسلامية تعمل على تيسير الرحلات والزيارات السياحية ما بين الدول الإسلامية بعضها بعضا بحيث يتحقق قدر من التواصل يمكن مع الزمن أن ينمو ويكبر ..

هذه كلها مشروعات اقتصادية مجزية .. وإذا تعرضت لبعض المخاطر ، فقد تكون هذه المخاطر أقل من المخاطر التى تتعرض لها الودائع فى البنوك الأمريكية نتيجة لهبوط قيمة الدولار أو القيود التى تحيط بها عمليات السحب ،، وهى بعد تصب فى تيار التقارب الإسلامى ...

- ٧ -

دستور إسلامى

وضعه أحد أفراد النظام الخاص للأخوان المسلمين . . فى الأربعينات

فى عام ١٩٥٠ ، عندما نظرت محكمة جنايات القاهرة القضية التى حملت اسم «قضية السيارة الجيب» (قضية النيابة العمومية رقم ٣٣٩٤ الوايلى ، سنة ١٩٥٠ ورقم ٢٢ سنة ٥٠ كلى) أثارت النيابة وجود وثيقة حررها المتهم الأخير وضبطت فى مركز الأخوان المسلمين تضمنت تصورا للحكم الإسلامى اقترح كاتبه أن يكون النظام «جمهوريا اشتراكيا» وأن ينتخب رئيس الجمهورية مدى الحياة ، وارتكزت عليها فى الصاق تهمة قلب نظام الحكم بالمتهمين .

والمشروع الذى قدمته النيابة للمحكمة لايتسم بعمق أو تماسك ، ولا حتى يأخذ شكل البحث العلمى أو الأكاديمى .. **ولكن أهميته لاتأتى من قيمة العلمية ، وإنما من الاتجاه العام الذى يختلف كل الاختلاف عن الاتجاهات الذائعة الآن ، عن دستور اسلامى .. ومن هذه الناحية فإنه يصور التحول الذى حدث للفكر الإسلامى خلال الفترة من ١٩٥٢ – ١٩٨٠ ، وهذا هو «مربط الفرس» كما يقول المثل .. وهى النقطة التى ستكون محل تعليقنا بعد عرض التصور نفسه ، والتمهيد له بكلمة عن «قضية عربة الجيب» .**

قضية عربية الجيب :

هذه القضية التى تعود احداثها إلى ١٩٤٨/١١/١٥ والتى نظرتها المحكمة فى ديسمبر ١٩٤٩ ويناير وفبراير ١٩٥٠ ، تعد من أكبر القضايا السياسية ، ومن نقط التحول فى تاريخ الأخوان المسلمين ، لأنها وضعت ببساطة ، وبصورة غير متوقعة أو منتظرة ، وبحكم المصادفة ، كل وثائق وأوراق «النظام الخاص» فى أيدى البوليس السياسى الذى ما ان اطلع عليها حتى تكشف الجوانب الخافية لنشاط النظام الخاص للأخوان المسلمين .. وفسر عدداً كبيراً من الأحداث التى وقعت آنذاك .

وقد تحدثت المحكمة التى نظرت القضية عن ملابسات ضبط «عربة الجيب» فقالت (فى الحكم الذى أصدرته) :

«ومن حيث أنه فى يوم الأثنين ١٥ نوفمبر ١٩٤٨ حوالى الساعة ٢,٤٥ بعد الظهر ، كانت سيارة من طراز «جيب» يركبها بضعة أشخاص تسير ببطء فى شارع جنينة القوادر بجهة الوايلية ووقفت أمام المنزل رقم ٣٨ فاشتبه البوليس الملكى صبحى على سالم — الذى كان ماراً فى ذلك الوقت — فى أمرها اذ لم تكن تحمل أرقاماً ، وكان بها صندوق وحقائب فى وقت كثرت فيه حوادث النسف فى القاهرة ، فأمر راكبيها الذين كانوا نزلوا منها بأن يلزموا أماكنهم .. ولكن هؤلاء فزعوا لهذه المفاجأة ، وركنوا إلى الفرار تاركين السيارة بما فيها ، واتخذ اثنان منهم سبيلهما ناحية شارع عبده باشا فتبعهما وهو يصيح بأنهما «صهيونيان» يحملان قنابل ، فانضم إليه بعض المارة لم تعقبهما حتى تمكنوا من القبض عليهما ، وتبين أنهما المتهمان الحادى عشر والثانى عشر أحمد عادل كمال ، وطاهر عماد الدين .

«وضبطت فى هذه السيارة كميات من المواد الناسفة من أنواع مختلفة كالجلجنايت والـ بى تى أن وعشرات من القنابل وست لفات من فتيل الاشعال المؤمن وثلاث لفات من فتيل الأشعال البرتقالى ومدفع «ستن» وثلاث خزنات له وسبعة وعشرون مسدساً من أنواع مختلفة وأربعة خناجر ومئات الطلقات النارية وعدد كبير من المفجرات الكهربائية وست ساعات زمنية وقناع أسود ولغم .. كما ضبط أيضاً بها أوراق عديدة لها أهميتها سيأتى بيانها فيما بعد ..» .

ضبط مصطفى مشهور وحافظة أوراقه :

«وبعد نحو ثلثي ساعة من ضبط هذه السيارة ، شوهد شخص يحمل حافظة من جلد يسير فى شارع عبده باشا متلفتا مرتبكاً ، فاسترعى ذلك نظر أحد المارة الذى ظن أنه قد يكون من ركاب السيارة الذين فروا اذ كان يماثلهم فى الملبس (يرتدى صديريا دون جاكتة) فقبض عليه وساقه إلى قسم الشرطة وتبين أنه المتهم الثانى مصطفى مشهور ، وأن هذه الحافظة تحوى أوراقا كثيرة لها أهميتها ولها صلة بالأوراق التى ضبطت بالسيارة ..» .

واستطردت المحكمة فوصفت كيف أن تفتيش منزل مصطفى مشهور أدى إلى القبض على عدد آخر من المتهمين وأن هذا بدوره أدى إلى القبض على عدد ثالث حتى بلغ عدد المتهمين ٣٢ شخصاً ما بين مهندس ومحامى وطبيب وتاجر ... الخ ضموا «نجوم» النظام الخاص وعلى رأسهم عبد الرحمن السندى ومصطفى مشهور والدكتور الملط ... الخ وقدمتهم النيابة بتهمة المشاركة فى اتفاق جنائى الهدف منه الاستيلاء على الحكم بالقوة .. الخ .

وترافع عن المتهمين جهابذة المحامين أحمد رشدى وطاهر الخشاب وسعيد رمضان وعبد المجيد نافع وحسن العشماوى وحمادة الناحل وعلى منصور وفتحى رضوان وزكى عريبى ومحمد هاشم باشا ، وهنرى فارس والدكتور محمد مندور وعبد المجيد عبد الحق ومصطفى المنزلاوى وعمر التلمسانى .. الخ .

وكان حكم المحكمة مفاجأة ودليلاً على ملاحظة القضاء المصرى وتقيد للأصول القضائية وعدم انسياقه وراء الدعايات أو التيارات اذ برأت معظم المتهمين وحكمت على ستة بالسجن ثلاث سنوات وعلى ١١ متهما (منهم عبد الرحمن السندى) بالسجن سنتين ، وعلى متهم بالحبس لمدة سنة .. وأهم من هذا أنها أشادت بالأخوان المسلمين وأهدافها السامية وتلمست الرحمة لنيل غاية المتهمين فقالت :

«وحيث أنه سبق للمحكمة أن استظهرت نشأة جماعة الأخوان المسلمين ومسارعة فريق كبير من الشباب إلى الالتحاق بها والسير على المبادىء التى رسمها

منشئوها والتى ترمى إلى تطهير النفوس مما علق أو عساه أن يعلق بها من شوائب وانشاء جيل جديد من أفراد مثقفين ثقافة رياضية عالية مشربة قلوبهم بحب وطنهم والتضحية فى سبيله بالنفس والمال ، وقد كان لابد لمؤسسى هذه الجماعة لكى يصلوا إلى أغراضهم أن يعرضوا أمام الشباب مثلا أعلى يحتذونه وقد وجدوا هذا المثل فى الدين الإسلامى وقواعده التى رسمها القرآن الكريم والتى تصلح لكل زمان ومكان ، فأثاروا بهذا المثل العواطف التى كانت قد خبت فى النفوس وقضوا على الضعف والاستكانة والتردد وهى الأمور التى تلازم عادة أفراد شعب محتل مغلوب على أمره – وقام هذا النفر من الشباب يدعو إلى التمسك بقواعد الدين والسير على تعاليمه واحياء أصوله سواء أكان ذلك متصلاً بالعبادات والروحانيات أو بأحكام الدنيا ، ولما أن وجدوا أن العقبة الوحيدة فى سبيل احياء الوعى القومى فى هذه الأمة هو جيش الاحتلال الذى ظل فى هذا البلد قرابة سبعين عاماً تخللتها طائفة من الوعود بالجلاء – كما كان بين المحتل وبين فريق من الوطنيين الذين ولوا أمر هذا البلد مباحثات ومفاوضات على اقرار الأمور ليخلص الوادى لأهله ، ولم تنته المفاوضات والمجادلات الكلامية الى نتيجة طيبة – ثم جاءت مشكلة فلسطين وما صاحبها من ظروف وملابسات .

«لما كان كل هذا ، اختل ميزان بعض أفراد شباب جماعة الأخوان ، فبدلاً من أن يسيرو على القواعد التى رسمها زعماؤهم عند انشاء الجماعة والتى كانت تؤدى حتما إلى تربية فريق كبير من الشعب وتثقيفهم واعلاء روحهم المعنوية ، بدلا من السير على هذه المبادىء ، أرادوا أن يختصروا الطريق ظنا منهم أن أعمال النسف تبلغ بهم أهدافهم من سبيل قصير ، فاتجهت ارادتهم على القيام بأعمال قتل ونسف وغيرهما مما قد لا يضر المحتلين بقدر مايؤذى مواطنيهم ... وذهبوا فى سبيل هذا مذهبا شائكا منحرفين عن الطريق السوى الذى رسمه لهم رؤساؤهم والذى كان أساساً قوياً لبلوغهم أهدافهم بالطرق المشروعة ...» .

«وحيث أنه من هذا يبين للمحكمة أن أفراد هذه الفئة الارهابية لم يقترفوا الجريمة وإنما انحرفوا عن الطريق السوى فحق على هذه المحكمة أن تلقنهم درساً حتى تستقيم أمورهم ويعتدل ميزانهم ... على أن المحكمة تراعى فى هذا الدرس جانب الرفق

فتأخذهم بالرأفة تطبيقا للمادة ١٧ عقوبات نظرا لأنهم كانوا من ذوى الأغراض السامية التى ترمى أول ما ترمى إلى تحقيق الأهداف الوطنية لهذا الشعب المغلوب على أمره ...» (انتهى) .

كما أن المحكمة عندما تعرضت للحديث عن الأخوان المسلمين استشهدت بأقوال الأمام الشهيد حسن البنا فى رسالته «مشكلاتنا الاقتصادية والدستور» وقالت :

«وحيث أنه يظهر جليا من أقوال المرشد العام أن الجماعة لاتناهض الحكم القائم فى مصر ، بل تراه متفقا مع النظم الإسلامية ، وأنها كانت تهدف إلى تحقيق نظام شامل والاصلاح طبقاً لأحكام الدين الإسلامى وبالطرق الدستورية المعروفة طبقا لما جاء فى قانونها الأساسى السابق تفصيله ... الخ» .

نرجو أن لانكون قد أطلنا ، والحقيق أن هذه الفقرات هامة لأنها تصور وجهة نظر المحكمة نحو الأخوان .

فمع أن المحكمة كانت متعاطفة مع الفكر الإسلامى (أصبح رئيسها بعد ترك الخدمة من الشخصيات الأخوانية ، وكان هو محامى أسرة آل البنا فى قضية تعويض) .. الا أنها ما كان يمكن أن تأتى بغير ما تضمنته الأوراق .. كما كان لا يمكن أن تتجاهل مستندات تقدمها النيابة ذات مصداقية تدين هذه الجماعة باتباع طرق غير مشروعة .. والا شاب هذا حكمها .. والحقيقة أننا لانرى فى كتابات الأمام الشهيد حسن البنا اشارة واحدة عن «حاكمية الهية» أو اطلاق الكفر على الديمقراطية والنظم النيابية الأخرى .. على العكس إنه كان يرى أنها كلها تدخل فى اطار نظام يتفق مع الإسلام .. فالاختلاف الذى ستراه ما بين تصور عضو النظام الخاص الذى وضع «النظام الإسلامى» عن تصورات الدعوات الإسلامية التى جاءت بها الثمانينات يتوازى مع اختلاف فكر الأستاذ البنا عن أفكار سيد قطب والمودودى وجماعات «الرافضة الجديدة» .

★ ★ ★

مشروع النظام الإسلامي فى العصر الحاضر :

قدمت النيابة الوثيقة التى كتبها المتهم الثانى والثلاثون سليمان مصطفى عيسى قائلة إن المتهم صاغها فى تسع مواد نص فيها صراحة على أن يكون الحكم جمهوريا ، وأن ينتخب رئيس الجمهورية لمدى الحياة ، وفهم من عبارات المشروع الأخرى أن المتهم قصد إلى أن تكون هذه الجمهورية اشتراكية ، وبعبارة أخرى فإن المتهم قد رمى بمشروعه هذا إلى انشاء نظام دكتاتورى اشتراكى ينصب فيه مرشده العام دكتاتورا على البلاد .

وكأن النيابة لم تكتف بتهمة قلب نظام الحكم ، بل أيضاً حددت أن يكون «اشتراكياً» فى فترة كانت الاشتراكية هى أكبر تهمة يمكن أن تلصق بتنظيم ، فضلاً عن أنه يخالف ما كان يدعيه البعض من تقارب بين الأخوان والسراى ، أو ما بين الإسلام والملكية ..

وهذا هو ما سجلته النيابة فى مذكرتها عن هذا المشروع عند حديثها عن المتهم الثانى والثلاثون سليما مصطفى عيسى :

«سبق أن أشرت عند استعراض الوقائع وعند الكلام عن تهمة التآمر على قلب نظام الحكم إلى مشروع «النظام الإسلامى فى العصر الحاضر» الذى حرره هذا المتهم .

وضبط هذا المشروع فى دار المركز العام لجماعة الأخوان المسلمين عند تفتيشه عسكريا عقب صدور الأمر بحلها .

وقد صاغه المتهم فى تسع مواد نص فيها صراحة على أن يكون الحكم جمهورياً وأن ينتخب رئيس الجمهورية لمدى الحياة ويفهم من عبارات المشروع الأخرى أن المتهم قصد إلى أن تكون هذه الجمهورية اشتراكية .

وبعبارة أخرى فإن المتهم قد رمى بمشروعه هذا إلى انشاء نظام دكتاتورى اشتراكى ينصب فيه مرشده العام دكتاتورا على البلاد .

وإليكم نص هذا المشروع :

«النظام الإسلامى فى العصر الحاضر»

الإسلام والعدالة الاجتماعية :

إن البرنامج الصحيح ضرورى لحياة أمة من الأمم حياة قوية عزيزة . هذا شيء جميل ورائع حقا ولكن أجمل منه وأروع أن يقوم رجل نزيه على تنفيذ هذا البرنامج حتى لا يجعل منه حبراً على ورق .

وإن حاجتنا إلى رجل ينقذنا من الهاوية التى نسير نحوها بخطا سريعة ليس أشد الحاحا من برنامج معطل لايساوى المجهود الذى بذل من أجله .

اهداء إلى اليساريين :

﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون إلا أنهم هو المفسدون ولكن لا يشعرون واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء الا أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ .

يجب أن تمتلا نفوسنا بالثورة على هذه النظم الفاسدة البالية وإن اشتد لهيب هذه الثورة فستنتقل من نفس إلى نفس ومن قلب إلى قلب «صبراً آل يسر فموعدكم الجنة» .

ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .

التشريع فى النظام الإسلامى يعتمد على ثلاث مراحل .

(١) القرآن الكريم مرحلة درجة أولى .

(٢) السنة مرحلة درجة ثانية .

(٣) الاجتهاد مرحلة درجة ثالثة .

وفى ذلك قال رسول الله ﷺ عندما أرسل معاذاً إلى اليمن قال له «كيف تصنع

اذا عرض لك قضاء» قال «أقضى بما فى كتاب الله» فقال له الرسول «فإن لم يكن فى كتاب الله» قال «فسنة رسول الله» قال له «فإن لم يكن فى سنة رسول الله» قال «اجتهد رأيى ولا ألو» قال معاذ فضرب رسول الله صدرى وقال «الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله» رواه أبو داود والترمذى .

الحكومة فى الإسلام :

المادة الأولى : الحكوم الإسلامية جمهورية وتتولى الحكم بطريق الانتخاب العام لأن الحقوق السياسية لاتورث . ويستفاد ذلك من قوله تعالى فى سورة البقرة **﴿واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال انى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين﴾ (١٢٤)** .

المادة الثانية : الحكومة الإسلامية ديمقراطية نيابية ويستفاد ذلك من قوله تعالى **﴿وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾** .

المادة الثالثة : رئيس الجمهورية ينتخب لمدى الحياة وذلك لسببين :

(١) لئلا يكثر الطامعون فى الحكم اذا كان الانتخاب كل مدة معينة .

(٢) لئلا يسيء الحاكم استعمال سلطته عندما يرى أنه قد ينحى عن كرسى الخلافة وحتى يكون هناك استقرار فى البلاد .

المادة الرابعة : يعزل رئيس الجمهورية اذا أهمل فى شأن من شؤون الرعية أو قصر ، إن الحاكم ماهو الا وكيل عن الأمة ليحقق العدل بينها ويعمل على رفاهية الشعب وينفذ أحكام دينها . فاذا سقط بند من هذه البنود انتفت الوكالة وسقط حق الوكيل فى مزاولة هذه الوكالة .

المادة الخامسة : السلطة القضائية مستقلة استقلالا تاما عن السلطة التنفيذية أى أن الحاكم ليس له أن يتدخل لمصلحة أحد ولكن عليه أن ينفذ ما توصى به السلطة القضائية — وفى هذا المعنى ما روى من أن أحد المقربين للسلطان صلاح الدين استعداه على رجل فقال له الخليفة «ماعسى أن أصنع لك

وللمسلمين قاضى يحكم بينهم والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيه مشكلة . وإنما أنا عبد الشرع وشحنته والحق يقضى لك أو عليك» .

أما كيف نراقب أعمال الحاكم فهو بتكوين رأى عام قوى يعرف حقه فلا يفرط فيه ويحاسب الحاكم حسابا عسيرا من وقت الخليفة الثانى وقال «من رأى منكم عوجا فليقومه» فوقف أعرابى وقال «لو رأينا فيك عوجا لقومناه بسيوفنا» .

المادة السادسة : الحكومة مسئولة مطلقة عن حماية جميع أفراد الدولة حماية عامة ولا تقتصر الحماية العامة على الحماية الخارجية والداخلية وأداته الجيش والبوليس ولكن مسئولة أيضاً عن حمايته من الفقر والجهل والمرض .

قال سيدنا عمر فى خطبة له استشهد بها مكرم عبيد باشا فى البرلمان «المرء وحاجته والمرء وعمله» والله ما أحد أحق بمال الدولة من أحد والله ما أنا أحق به من أحد فلكل امرىء فى مال الدولة نصيب فالرجل وبلاؤه والرجل وقدره والرجل وحاجته إن فى مصر قوم يعيشون ... وهناك آخرون يمشون حفاه عراه يشربون ماءهم كدرا وطيناً . إن هناك تخلخل فى توزيع الثروات وهذا مما لا شك فيه غبن فادح ويقولون إن نظامنا الرأسمالى تتوافر فيه المنافسة الحرة والله يعلم أنهم لكاذبون ، لأن المجتمعات الرأسمالية تنقسم إلى طبقات غير متنافسة ويترتب على ذلك أن يبقى كثيرون من أفراد الطبقة الدنيا خاملين على حين أنه لو توافرت لهم الفرص لأمكن أن يفيد منهم المجتمع فائدة لايمكن المغالاه فى مقدارها ولا يرجع خمول أفراد هذه الطبقة إلى خطئهم بقدر ما يرجع إلى انعدام الفرص أمامهم أو جهلهم لهذه الفرص .

ولكى نصل إلى العدالة الاجتماعية سنتبع مرحلتين مرحلة تتمشى مع روح الإسلام ومرحلة مادية تتمشى مع قوانينه المادية .

أولا : التضامن الاجتماعى : إن الفقر شىء نسبى ولا يعقل أن يوجد مجتمع كله أغنياء فالفلاح المصرى على تعاسة معيشته محسود عليها من الفقير الهندى جاء الإسلام فجعل من هذه الأمم المفككة أسرة واحدة كبيرة فإذا حلت بانسان

نكبة فإنه سيجد من يقاسمه آلامه المادية والمعنوية ويمد إليه يد المساعدة فكان كل فرد في هذا المجتمع بمثابة شركة تأمين للأفراد الآخرين فإذا لم تقدم له هذه الشركة يد المساعدة فهناك مئات الشركات بل ملايينها لن يعدم أن تمد له أحداً هاما يحتاج إليه وذلك نتيجة للحب بين أفراد المسلمين والأخوة بينهم وفي ذلك يقول الله تعالى **﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾** وقوله **﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾** «وقد رتب الإسلام ذلك ترتيبا تصاعديا وهذا رأي منطقي فقال **﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾** وقوله **﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾** ويكون التضامن الاجتماعي نتيجة للتربية والشعور بالمسئولية ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء ... «هذا جميل جداً ولكن هناك نفوسا لمهمة وستتهرب مما لاشك فيه من هذه المهمة الاختيارية وان الله ليزع بالسلطات ما لايزع بالقرآن ففرضت ضرائب أخرى ؟ سنأتي عليها في حينها .

ثانيا : الايرادات التي يمكن الحصول عليها لمصلحة الفقراء ولسد النفقات العامة .

(١) تحديد الملكية حتى لايتخم قوم ويهلك آخرون جوعا وتوزيع هذه الأراضي على صغار الفلاحين .

(٢) اصلاح الأراضي البور بواسطة الحكومة نفسها لا عن طريق اعطاء امتياز لشركات أجنبية وزراعة الأراضي الصحراوية وتوصيل مياه الري إليها فتزيد بذلك مساحة الأراضي وبالتالي يزيد الانتاج .

(٣) من القوانين التي تحرم على الأجنبي امتلاك عقارات فترجع بذلك ٢٥٪ الأراضي التي يمتلكها أجانب إلى أيدي الشعب .

(٤) فرض ضريبة الزكاة وهي ٢,٥٪ من رأس المال وتقدر حصيلتها بما يقرب من ٢٠ مليون من الجنيهات .

(٥) فرض ضريبة على أيلولة التركات متصاعدة حتى تصل إلى ١٠٠٪ أى درجة المصادرة إن من سيرث مليون جنيه لو ورث نصفه فلن يضيره ذلك شيئاً .

(٦) فرض ضريبة تكميلية على الدخل الكلى متصاعدة أى شخصية .

(٧) زيادة نسبة الضرائب الأخرى مع تخفيف عبئها على الفقراء .

وفى ذلك قال تعالى ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم أن صلواتك سكن لهم والله سميع عليم**﴾ .

ولكن قبل كل شيء يجب أن تطهر الاداة الحكومية الفاسدة حتى يمكنها أن تأتى بحصيلة هذه الضرائب كاملة فإن النقود التى للحكومة طرف الشركات والأفراد تقدر بستين مليونا سقط حق الحكومة فى بعضها بمضى المدة .

وعلى الحكومة أن تصفى شركات الامتياز والاحتكار وتستولى عليها هى حتى تنتفع هى بالأرباح وتخفف عبء تحكمها فى أفراد الشعب وأن تقوم هى أيضا ببعض المشروعات الاقتصادية التى تدر ربحا وتكون للمصلحة العامة بها صلة وأن تسن التشريعات اللازمة لحماية الضعيف من القوى وتراقب تنفيذها تنفيذا تاما .

وأن هذه الأموال جميعا لتربو على مائة وخمسون مليونا لو أحسن استغلالها لقضت على أمراضنا الاجتماعية فى بعض سنين .

(٨) أن يجعل نظام الزراعة تعاونيا .

وفى ذلك يقول رسول الله تعالى «**وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الأثم والعدوان**» .

لأن الفلاح البسيط اذا امتلك شيئاً فهى مبعثرة هنا وهناك وإنه ليفقد جهدا كبيراً فى زراعتها فلو أدخلت الآلات الزراعية على أن يكون لكل زمام آلة من كل نوع من عدة الالات تروى الأرض كلها مرة واحدة ثم تزرع بهذه الالات أيضاً ثم اذا جاء وقت الحصاد ذهب كل مالك إلى أرضه ليحصد زراعته فيستفيد الفلاح من

وجهتين توفير المجهود الهائل الذى يبذله والوقت فيمكن بذلك أن يوجه المرء وجهة صالحة كالاتجاه لانعاش الصناعات القروية .

ويجب أن يكون وجهة الانفاق الأمور الآتية :

(١) تحسين الحالة الاقتصادية ورفع مستوى معيشة الفلاح والعامل وعمل ملاجىء للعجزة واليتامى (الحكومة مسئولة عن كل شخص وفى ذلك قال عمر (لو عثرت بغلة بالعراق لسئلت عنها) .

(٢) تحسين الحالة الصحية فالحالة سيئة كما كل شخص يعرفها وأنى لاذكر أن احدى الكاتبات الانجليزيات خطبت فى النادى الزائل فقالت «إنه يجب أن تظل نسبة الوفيات فى مصر على ماهى عليه حتى لاتحدث مجاعة نتيجة لازدياد عدد السكان» ونسبة الوفيات كما أعلمها هى ٢٧,٥٪ وانى لاذكر عدد المرضى للتذكير فقط ١,٥٠٠,٠٠٠ مرضى بالعيون ، ١٢,٠٠٠,٠٠٠ بالبلهارسيا و ٨,٠٠٠,٠٠٠ بالانكلستوما و ١,٠٠٠,٠٠٠ أصيبوا بالملاريا و ٢,٠٠٠,٠٠٠ بأمراض عادية ... الخ .

(٣) رفع المستوى العلمى والعمل على تشجيع البحوث العلمية ، فيجعل التعليم مجانا للفقراء فى جميع مراحله والزاميا فى مراحله الأولى كالتعليم الابتدائى مثلا .

المادة السابعة : جميع أفراد الشعب لهم حق الملك التام ولا تنزع الملكية الا للمصلحة العامة وحالتى المجاعات والحروب اذا استدعت الظروف ذلك على أن ترد إلى أصحابها عند زوال هذه الأسباب وأن المثل الذى يقول «ان سحر الملكية يحول التراب تبراً» لايزال صحيحاً .

وإننا باعطائنا الفرصة لجميع أفراد الشعب وجعلها متكافئة بينهم فإننا نزيد من كفايتهم وبالتالى سنصل بالانتاج إلى الحد الأقصى مما يزيد من رفاهية الشعب .

المادة الثامنة : جميع أفراد الشعب [illegible] فى [illegible] والوا[illegible]

أولا المساواة – ساوى الإسلام بين جميع أفراد الرعية والأمثلة على ذلك كثيرة فعند شكاية أحد التجار المأمون أجلس المدعى عليه على قدم المساواة ، ساوى بين الخادم والسيد ، وبين المرأة والرجل وفى ذلك يقول رسول الله **«خدمكم خولكم»** وان المرأة المسلمة لها من الحقوق ما حرمت منه نساء كثيرات فبينما المرأة المسلمة لها حق الاتجار اذ تحرم منه المرأة الفرنسية إلا بإذن من زوجها وحتى فى هذه الحالة تمنع من الصرف .

ثانياً العدل – جعل الإسلام العدل بين الرعية وعدم التفرقة بينهم من أشد واجبات الحاكم قال رسول الله **«لساعة من أمام عادل خير من الدنيا ومافيها»** فى رواية أخرى **«لساعة من أمام عادل خير من عبادة ستين عاما»** وقوله **«إنما أهلك الذين من قبلكم أنه اذا سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف حدوه أى أقاموا عليه الحد»** وقوله **«شر الناس منكم الذين تكرهونهم ويكرهونكم وتلعنونهم ويلعنونكم»**، **«وخير الناس امتكم الذين تحبونهم ويحبونكم»** .

وقوله تعالى ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾ .

المادة التاسعة : ليس هناك رق ولا استعباد فى الإسلام . ليس هناك رق فى الإسلام كل ما هنالك أن دائما يحصل أن يقع اسرى فى أيدى المسلمين ويكون التصرف فيهم إما أن يستبدل بهم أسرى المسلمين أو أن يفدوا أنفسهم بأموال والباقى للقائد أن يطلق سراحهم منه أو توزع على جنود الجيش وكانت هذه لأسباب دينية أو اقتصادية أو سياسية .

(١) الأسباب الدينية – أن هنالك ما سموه الدروس العملية فإن الأسير عندما يرى أن سيده به رؤوف رحيم ويرى من معاملته ومن دماثة خلقه سيدهشه حقاً ويراه فى عبادته وقنوته مما لا شك سيكون له أثر طيب فى قلبه مما قد يكون سببا فى دخوله الإسلام .

(٢) الأسباب الاقتصادية – أن قيام الحروب يفقد الأمة جزءً من بنيها فوجود

هؤلاء الأسرى مما يحرر الأيدى العاملة المفقودة وان نداء الروسيا الذى وجهته إلى جميع الأرمن فى العالم لخير دليل .

(٣) أسباب سياسية – وهى أنها تمنع الثورات القوية التى قد تنشب فى وجهها فى يوم من الأيام اذ أن جزءً كبيراً من المحاربين الأشداء سيكونون خارج الميدان فهو نوع من النفى . ولكن الإسلام لم يشأ أن يظل هؤلاء الاسرى مدى الحياة بل سرحهم تسريحا بطيئاً بأن حبب الى من يملك هؤلاء الأسرى بإطلاق سراحهم وأوجب ذلك عليهم فى حالات كثيرة من ذلك عدم القدرة على صوم رمضان وفى القتل غير العمد وفى ذلك قال الله تعالى **﴿ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً خطأً ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة ...﴾** .

فضائل الإسلام وأحكامه التشريعية :

(١) حفظ للمرأة جسدها و لم يجعله سلعة تباع وتشترى وحفظ كيان الأسرة من التفكك فشرع الزواج وحرم الزنا ووضع له أشد العقوبات وهو الجلد مائة جلدة لغير المتزوج والقتل رجما بالحجارة لغيره أى المتزوج يقولون إن فى هذا وحشية لاتوصف وهم الذين يقتلون مئات الألوف دفعة واحدة فى حروب من أجل منافع شخصية . ولكن الإسلام قال يجب أن يكون هناك أربعة شهود ممن نعتد بقولهم حتى لا يساق الناس إلى الموت جزافا وحتى يُحَد من الزنا نفسه ، فهو جاء للإرهاب أكثر من أى شىء آخر .

(٢) حرم الخمر حفظاً لصحة الأفراد وأموالهم فقال **﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما أثم كبير ومنافع للناس وأثمهما أكبر من نفعهما كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تذكرون﴾** .

(٣) حرّم السرقة لأن الإسلام أعطى للفقير حقه فإذا سرق بعد ذلك أى شخص فإنما يكون عبارة عن مجرم تعود الإجرام فسن لذلك قطع اليد ولكنه فى نفس الوقت أعطاه الفرصة لكى يقلع عن اجرامه . بل قال «ادرئوا الحدود بالشبهات» .

انتهى المشروع .

ومن الواضح بالطبع أن المشروع لاتتوفر له «الحبكة» و«الدقة» اللازمة فى مثله ، فضلاً عن ركاكة اسلوبه وأنه فعلا أقرب لأن يكون موضوع مسابقة تعلن عنها احدى المجلات كما قال الدفاع .. ولكن يجب الا ننسى أن كاتبه كان مدرسا فى الرابعة والأربعين من العمر ، ومن أفراد الجهاز الخاص ، ومن أصدقاء الأستاذ فريد عبد الخالق عضو مكتب الارشاد .

والصاق النيابة «تهمة» الاشتراكية لا أصل له ، لأن كل ماجاء فيه عن حقوق المواطن الاجتماعية والاقتصادية هو ماقرره الإسلام بالفعل وما يقتضيه التكافل الاقتصادى والاجتماعى الذى يقوم عليه الإسلام ولها أسانيد من صريح الكتاب وصحيح السنة وقد يلحظ الإنسان تأثر الكاتب بكتاب سيد قطب عن العدالة الاجتماعية التى كانت قد نشرته جماعة الأخوان ، وكان يمثل فكر سيد قطب قبل تحوله إلى الحاكمية .

إن النقطة التى نريد توجيه الالتفات إليها هى أن الفكر الإسلامى — وإلى حد ما الأخوانى — تأثر تأثراً حاسما نتيجة للصدام مع عبد الناصر وما قام به من تنكيل بالأخوان ، وممارسة للتعذيب ، ثم ما وقع فيه من أخطاء قاتلة نتيجة لديكتاتوريته انتهت بكارثة ١٩٦٧ المدوية ... هذه الأحداث رسمت تحولا كاملا فى الفكر الإسلامى بحيث أوجد الفئات التى أطلقنا عليها «الرافضة الجديدة» بكل أطيافها بدءا من مجموعة شكرى مصطفى وصالح سرية وعمر عبد الرحمن ومن جاء بعدهما ، وهذه الفئات كلها تعارض الأخوان ، وفكرهم ، وكانت مناقشاتهم مع الأخوان فى المعتقل سبباً فى اصدار الأخوان لكتاب «دعاة لا قضاة» ، وفى الوقت نفسه فقد تجمد الفكر الأخوانى نتيجة للوضع القاسى الذى وجد الأخوان أنفسهم فيه ، فهم منبوذون ومحاربون من الحكومة ، وهم منبوذون ومحاربون من هذه الفئات الإسلامية الجديدة .. ونحن فى غنى عن القول أن المجتمع «المدنى» أو كما يقولون «العلمانى» يضيق أيضاً بالأخوان .. وهكذا دفع الأخوان إلى الظل .. بينما احتل الساحة وسرق الأضواء المجموعات الشاردة الجديدة ، وإن لم يمنع هذا أن الأخوان بفضل تراثها ، وذكرى الأمام الشهيد ، وتماسكها الادارى ، لا تزال صاحبة الجمهور الأكبر ، ولكنها لاتريد ، وقد لاتستطيع ، تحريك هذا الجمهور :

وصاحب الاختلاف فى الفكر ما بين هذه الفئات الشاردة ، وفكر الأخوان .. اختلاف فى الزى و «النفسية» .. فمن يقرأ كتاب محمود الصباغ (المتهم الثالث فى قضية

عربية الجيب) عن النظام الخاص والمطبوع به صور كل نجوم . وقيادات النظام ، لا يرى فيهم ملتحيا ، أو معمماً ، أو لابساً طاقية ، أو جلبابا مما أصبح فيما بعد من علامات أعضاء الجماعات الإسلامية وإنما يرى مجموعة حليقة ، مطربشة ، كل واحد يرتدى «البذلة» كاملة ومعظمهم يضع المنديل الحريرى فى جيب سترته ...

كما أن من يقرأ كتابات الأمام الشهيد عن النظام السياسى لايجد تعبير «الحاكمية الالهية» وإنما يلمس تقبل النظام الانتخابى القائم على أن الأمة مصدر السلطات مع تعديل نظمة مما يقضى على عيوبة ، ولما كانت الأمة المصرية مسلمة ، ومؤمنة باسلامها فإن تحقيق النظام الإسلامى لايعدو أن يكون تطبيقاً لارادتها ...

★ ★ ★

— ٨ —

– الإخوان المسلمون والعمل النقابي –

تعود صلة الإخوان بالعمال إلى لحظة التكوين الأولى . عندما تأسست الخلية الأولى لها فى الإسماعيلية من ستة من عمال شركة قناة السويس سنة ٢٨ . على أن هذه الملابسة كانت حكم الأمر الواقع أكثر مما كانت اختياراً خاصاً للعمال أو تفضيلاً لهم على غيرهم . ففى الإسماعيلية لم يكن هناك فلاحون . كان الشعب هم العمال الذين يعملون فى خدمة القناة التى أنشأت مدينة الإسماعيلية كما أنشأت مدينة بورسعيد . ومن ثم كان من الطبيعى أن تقدم الدعوة إليهم وعندما امتدت الدعوة زحفت على الكثافة الريفية فى محافظات الشرقية والمطرية دقهلية المصاقبة وجعلت من الفلاحين جمهورها الذى تجاوب معها بحكم الحماسة الزراعية التى تجعل الفلاح مؤمناً . وفى المرحلة الأخرة عندما تركزت فى العواصم اجتذبت عناصر الطلبة والشباب .

وكان للهيئة بعض نشاط مع الحركة النقابية . ففى البحر الأحمر كانت الكتلة الثالثة من كتل العمال القوية التى ظهرت على الساحة فى الأربعينات وهى كتلة عمال البترول (بالاضافة إلى كتلة عمال النسيج وكتلة عمال النقل) تخضع للإخوان تماماً وتولى الأخ محمد رمضان على رآسة النقابة ثم تركها للأخ أنور سلامة . وهما معاً من الإخوان المسلمين . وثمة وثيقة قديمة ذكر فيها الأستاذ البنا — رحمة الله — أسماء مائة شخص من خاصة الإخوان تعهد باستشارتهم قبل اتخاذ أى إجراء رئيسى .

وكان من هذه الأسماء طه سعد عثمان ومحمود العسكرى وهما زعيما كتلة عمال النسيج فى شبرا الخيمة . وظلت نقابة غزل ونسيج شبرا الخيمة مستترة وراء شعبة الإخوان بها حيناً من الدهر ..

ولكن هذه الصلات كانت أقل فيما نرى مما كان يجب أن يكون بالنسبة للإخوان . وتكاد تمثل عزوفاً عن الحركة النقابية وهو يعود إلى أمرين الأول : غلبة بعض العناصر الحزبية والشيوعية على الحركة النقابية مما أوجد نوعاً من الوحشة بينها وبين الإخوان . وأعطى الإخوان انطباعاً سيئاً . والثانى : أن جمرة أعضاء الإخوان كانوا من الريفيين الذين لايعلمون شيئاً عن الحركة النقابية ويجهلونها تماماً ، والإنسان عدو ماجهل . أما الذين يعيشون فى المدن فقد كانوا من البرجوازية الصغيرة التى تحكمها التطلعات وتؤمن بأن الوسيلة «لتحسين الحال» هى الوسيلة الفردية . فكل واحد وحظه من الشطارة أو الذكاء أو اللباقة أو الظروف الخاصة . وهذه الوسيلة لتحسين الحال مما لايوجد فى العمال . الذين اكتشفوا الوسيلة «الجماعية» لتحسين الحال هى طريقة «الاتفاقات الجماعية» التى تبرمها النقابة مع الإدارة وتعد اتفاقية ملزمة للإدارة ويستفيد منها كل العمال حتى وإن لم يكن بعضهم فى النقابة .

كانت هذه هى الأسباب التى جعلت نشاط الإخوان فى النقابات العمالية محدوداً . كما كانت تعود الى بعض الأخطاء التى اقترفها «قسم العمال» ـ الذى لم يتوفر له وعى عمالى ، فى توجيه العمال الإخوان وجهة مخالفة لوجهة زملائهم مما أوجد انطباعاً سيئاً . وأدى فيما بعد إلى انشقاق طه سعد عثمان ومحمود العسكرى وانضمامها إلى معسكرات يسارية كانت أكثر فهماً لهما واحتفاءً بهما .

* * *

على أن الحركة النقابية فى مصر لاتقتصر على النقابات العمالية . ولكنها تضم أيضاً نمطاً آخر من النقابات هى التى يطلق عليها **النقابات المهنية** التى تضم — عادة — خريجى الجامعات . وتوجد نقابات مماثلة للنقابات المهنية المصرية فى بعض الدول الديمقراطية مثل بريطانيا والولايات المتحدة وتدعى «**النقابات الحرفية**» وقد

يطلق عليها «النقابات الأرستقراطية» لأنها لاتضم جمهور العمال ولكن الفئة الماهرة وحدها وهذا هو أبرز وجوه الأختلاف ما بينها وبين النقابات المهنية المصرية . ففى الخارج يتمثل عنصر الامتياز فى «المهارة» ولكنه فى مصر يتمثل فى «الشهادة» ومن هنا جاء تكوين النقابات المهنية مقصوراً على حملة الشهادات وخريجى الجامعات باعتبار أن خريجيها هم «أرستقراطية» العمال كما يتضح من الفرق مابين الميكانيكى والمهندس ، الممرضة والطبيب الخ ... ومثل هذه الفروق لاقيمة لها فى الخارج فالميكانيكى الماهر والممرضة الحاذقة ينالان من التكريم مالا يناله مهندس أو طبيب تقف مهارتهما عند حدود ثقافتهم الجامعية وهى - كائنة ما كانت - تختلف عن منطق وضرورات العمل الفعلى ..

باستثناء هذا الفارق فإننا نجد أن خصائص النقابة الحرفية فى الولايات المتحدة مثلاً هى خصائص النقابة المهنية فى مصر وأبرزها الروح الفئوية والعناية بالمزايا والخدمات والبعد عن الاتجاهات الشعبية والنشاطات العامة وبالطبع أن يكون مناط العضوية هو الحرفة أو المهنة وليس الصناعة (كما هو الحال فى النقابات العمالية التى تضم كل من يعمل داخل المصنع) .

وخلال الأربعينات التى وصلت فيها الدعوة الإخوانية الى الأوج لم تجد الهيئة حاجة - أو لم تفرغ - لدخول النقابات المهنية . إذ كان تركيزها على الطلبة من السنوات الأخيرة للدراسة الثانوية حتى المرحلة الجامعية والفلاحين وصغار الموظفين ومدرسى الإلزامى فى القرى . وكانت الهيئة تضم فى العواصم والبنادر الكثيرين من «المهنيين» من محامين أو مهندسين أو أطباء (فى يوم ماوجد ستة من الأطباء البارزين الأخوانيين يبدأ اسم كل منهم بـ «أنور») ولكن الهيئة لم تتجه إلى النقابات المهنية لأن تكتلها القائم كان يكفيها ولأن النقابات المهنية وقتئذ كانت مراكز للدعايات الحزبية ...

ولكن الأحوال اختلفت فى السنوات اللاحقة فبعد الحرب الشعواء التى شنها عبد الناصر على الإخوان وأراد بها تشريد رجال الإخوان وتعهير نساء الإخوان ومع نهاية ربيع التصالح الذى لم يكن صافياً أو خالصاً مع السادات .. عاد الطوق الحكومى يضغط على التنظيم الإخوانى ... ووجد الإخوان المخلص فى التحالف مع الأحزاب

القائمة والعمل تحت مظلتها وبدأ هذا مع الوفد أولاً .. ثم مع حزب العمل ثانياً وبفضل هذا الحلف الأخير نجح الإخوان فى اختراق الحظر المفروض عليهم وأن يكون لهم ثلاثون نائباً فى انتخابات مجلس الشعب (إبرايل ٨٧) فضلاً عن عدد يماثلهم لحزب العمل .

ومن يقرأ صحف هذه الفترة يلمس أن نوبة من الترقب والخوف تملكت دوائر الحزب الحاكم وظن بعضها أن هذا هو بداية الزحف الإسلامى على الحكم وانتظر البعض الآخر معارك حامية فى المجلس ...

و لم يحدث شىء من هذا . ان الحكومة كانت قد تعلمت دروساً هامة خلال فترة الحكم المطلق الطويلة . بحيث لم تعد تخشى قوة المعارضة . وانتهى الوقت الذى حلت فيه المجلس تخلصاً من ثلاثة من المعارضين الأقوياء . . وقد عهدت الحكومة برآسة المجلس إلى شخص يمثل الصلابة حيناً والصفاقة حيناً آخر .. من الرعيل الذى عايش التنظيم الطليعى الناصرى . ثم هادن السادات وعمل تحت خدمته وحاول الإبقاء على «الاتحاد الإشتراكى» المنكود ولما لم يستطع قنع بأن يركز مواهبه وقواه لحماية النظام الحاكم حتى ولو قام على أنقاض الاتحاد الاشتراكى .

واستطاع هذا الرئيس أن يجعل من المجلس مدرسة يكون هو ناظرها . واستفاد من أحكام اللائحة ومافيها من ثغرات .. ولكن أهم من هذا أن كان وراءه أغلبية مطلقة بحيث لم يكن فى حاجة لمجرد النظر قبل أن ينطق «موافقة .. موافقة» . وتحت يده دائماً طلب من أكثر من عشرين عضواً بإغلاق باب المناقشة ! يمكن أن يستخدمه عندما تتأزم الأمور ...

تبين الإخوان أن مردود العمل السياسى الحزبى وثمرة دخول مجلس الشعب لا يتوازى مع ما انفق عليه وبذل فيه . وأنه يمكن أن يكون نكسة لأنه مالم يحقق نجاحاً فإنه يكون فشلاً .. وأعتقد أن هذا كان من أكبر أسباب التفاتهم نحو الحركة النقابية المهنية . كمجال جديد يمكنهم من مواصلة العمل .

ولعل لنا إسهاماً فى هذا التوجه يعود إلى ماقبل ذلك فقد كوناً «الاتحاد الإسلامى الدولى للعمل» فى سنة ١٩٨١ وأخذنا على عاتقنا إيضاح أهمية العمل النقابى وتجاوبه

مع الإسلام وفندنا بقوة تلك المقولة التى سادت حينا بعض دوائر الإخوان **«كنا ننظر إلى النقابات كما لو كانت رجساً من عمل الشيطان»** !!

وأصدرنا فى هذا الصدد كتاب **«الإسلام والحركة النقابية»** (ثلاث طبعات) فضلاً عن عدد كبير آخر من الكتب والرسائل . وفى كتابنا **«الإسلام هو الحل»** قلنا بعد أن قيمنا مايأتى به العمل السياسى والترشيح لمجلس الشعب . والقيود والمثبطات التى تكتنف الأداء ...

«لاشك فى أن أسلوب العمل السياسى عن طريق مجلس الشعب – ضئيل الجدوى تافه الحصيلة وأن من الممكن أن يكون ستاراً لنوع من الديكتاتورية وأن من الضرورى إما الانسحاب من المجلس والتركيز على العمل الشعبى .. أو اتخاذه أداة لتعزيز هذا العمل الشعبى وحمايته . وبدون ذلك يمكن أن تستمر الأغلبية فى استخدام الأقلية لاعطاء حكمها طابعاً ديمقراطياً .. ولو أن هيئة مثل الإخوان المسلمين ركزت عملها فى المجال النقابى لاستطاعت أن تزود الحركة النقابية بالايديولوجية المطلوبة لانقاذ الحركة النقابية من الخواء الروحى ولضمت جيشاً جراراً يستطيع وحده أن يجعل الحكومة تصغى وتتجاوب وتقابل الإخوان فى منتصف الطريق» .

وأخيراً فقد أصدرنا كتابنا «النقابات المهنية المصرية فى معركة البقاء» الذى يعد «دستوراً» لحركة نقابية إسلامية ومعالم على طريق سيرها ..

وقد نجح الإخوان المسلمون نجاحاً مؤزراً فى اختراق النقابات المهنية والسيطرة على معظم المراكز القيادية فيها . وكان انتصارهم فى نقابة المحامين هو السبب المباشر الذى جعل الحكومة تصدر القانون ١٠٠ لسنة ١٩٩٣ الذى حاولت أن تعرقل به المضى الديمقراطى التقليدى للحركة النقابية بحجة «الأغلبية الصامتة» وأن القلة الإخوانية النشطة تحول دون ظهور هذه الأغلبية ..

والإدعاء متهافت . ففى كل النقابات تكون الأغلبية صامتة . وقد يكون صمتها تأييداً وإقراراً لقياداتها ومن الواضح أنه لاشىء يمكن أن يمنع أغلبية من أن تقرر ماتشاء مادامت أغلبية ومادامت تريد ..

ولم ينجح القانون فيما أراد وإن نجح فى مضايقة القيادات النقابية وشغلها واستنزاف مواردها . فبعد إعلان اجراء الانتخابات طبقاً للقانون الذى سنته الحكومة نفسها وبعد أن تتخذ النقابة كافة الإجراءات من إعداد الأماكن وتجهيزها والإعلان فى الصحف ... إلخ ترجع اللجنة المشرفة على الإنتخابات عن قرارها ربما قبل تاريخ الانتخابات بيوم واحد . بحجة أنها تلقت شكوى من عدم تقييد بعض الأعضاء .. ومن الواضح بالطبع أننا لانعدم فى نقابة تضم مائة ألف آحاداً تكتب مثل هذا الاعتراض بحق أو بدون حق وإذا سلمت اللجنة المشرفة على الانتخابات لادعاءاتهم فمعنى هذا أنها لاتريد عقد انتخابات على الإطلاق ! والحقيقة أنها حرب أعصاب واستنزاف للقيادة النقابية ..

ولانعرف ماذا فى حقيبة الحكومة بعد أن أفلس القانون ١٠٠ لسنة ٩٣ وبعد أن تذرعت القيادات النقابية بالصبر وضبط النفس إزاء تلاعب اللجان الانتخابية . ولكن يغلب أن لن تنجح الحكومة فى استبعاد أو اقتلاع التيار الإسلامى القوى فى النقابات المهنية إذ استطاعت هذه تكوين قواعد وكوادر ونظم فى معظم النقابات . كما أن جمهور الأعضاء قد لمس الفارق الكبير بين طهارة ذمة القيادات الإسلامية وبين الاستغلال الشنيع للموارد وصور الفساد والمحسوبية التى كانت فاشية فى النقابات قبل أن يتقلد الإخوان زمامها . ناهيك بما تبذلة معظمها من نشاط خدمى يتمثل فى تسهيل بيع السلع المعمرة ورفع قيمة المعاشات وعقد المؤتمرات الخ ..

ومع هذا فيظل الوجود الإخوانى فى النقابات المهنية مهدداً مالم تواصل القيادات الإسلامية للنقابات المهنية الجهود لترسيخ نفسها فى النقابة بحيث يستعصى على الحكومة استبعادها . وقد ذكرنا فى كتاب **«النقابات المهنية المصرية فى معركة البقاء»** السياسات والإجراءات ووجوه العمل والنشاط التى يكون عليها أن تسلكها .

* * *

الحال فى الحركة النقابية العمالية مختلف تماماً . فحتى الآن لم يستطع الاتجاه الإسلامى أن يجد له موطىء قدم ...

وهذا الوضع يعود إلى النقابات العمالية وإلى الإخوان المسلمين معاً ..

إن أحداً منهم ليس مستعداً لتلقى الآخر أو الترحيب به ...

النقابات العمالية تتحكم فيها عصبة من الرؤساء الذين اتقنوا اللعبة النقابية وتمرسوا بفنونها وهم يقودونها لأكثر من أربعين عاماً على أساس إدارة شللية تصطنع فيها قيادات النقابات العامة بعض رؤساء اللجان النقابية بحيث تتحقق الاستمرارية فى القيادة النقابية ويدعمها فى هذا أن القانون أعطى كل السلطات للنقابات العامة وجرد اللجان النقابية وهى المنظمات القاعدية من الحقوق التى كانت منوطة بها من قبل .

وهذه القيادات المحتكرة العقيمة التبيعة تجد مناصرة الحكومة التى لن تجد مثلهم فى تبعيتهم الذليلة واستخذائهم الكامل واستعدادهم ليس فحسب لتطبيق سياستها بل وتقديم التصفيق والتهليل والهتاف ..

وبالطبع فإن السلطة التى لم تنجح فى استبعاد الإخوان من اتحادات الطلبة ومجالس هيئات التدريس والنقابات المهنية . ليست مستعدة للسماح لهم بدخول مجال جديد وحساس كالحركة النقابية العمالية . ومن ثم فإنها تساند هذه القيادات التبيعة فى مقاومتها للتيار الإسلامى .

هذا بالنسبة للنقابات العمالية ..

أما بالنسبة للإخوان . فيبدو أن من العسير أن يتخلوا عن طبيعتهم «البرجوازية»[1] التى يعسر عليها أن تسيغ العمل النقابى العمالى أو تتكيف مع مقتضياته . مع أن طبيعة «الطبقة العاملة» وأسلوبها أقرب إلى الإسلام من طبيعة البرجوازية وأساليبها .

---

(١) قد يظن البعض أن وجود الروح البورجوازية لدى الأخوان يتعارض مع ما أشرنا إليه فى مقال «أخوانى الأخوان» فى هذا الكتاب من قيامهم على أساس شعبى وأنهم يمثلون قاعدة وقيادة — جماهير الشعب من فلاحين ، أو معلمى الزامى أو صغار المهنيين الخ .. وهذا اللبس يعود الى أن المُعول هو «الوعى» . فما لم يكن لدى المجموعات الشعبية «وعى طبقى» فانها تتهاوى وتتعرض العناصر النابهة للاستقطاب البورجوازى . وهذا هو ماحدث للأخوان وقد أشرنا الى عدم وعى الأخوان أنفسهم بطبيعتهم الشعبية والجماهيرية بتأثير بعض المفاهيم الإسلامية المغلوطة . فالمهم هو الوعى الطبقى . وهو ما ينقص الأخوان .

فالإسلام الذى لا يطبل للبروليتاريا ولا يستغل اسمها قد فضلها بالفعل على غيرها من فئات المجتمع عندما فضل الرسول من يعيش من عمل يده على غيره والنصوص فى هذا صريحة وواضحة فضلاً عن نصوص القرآن فى انصاف المستضعفين فى الأرض والضيق بالمترفين والحكام .

كما أن أسلوب «الاتفاقية الجماعية» أقرب إلى أسلوب الإسلام من العمل الفردى لأن الإسلام يفضل العمل الجماعى على الفردى . وقد فسرنا الآية ٢٨٢ من سورة البقرة تفسيراً «نقابياً» ليس فيه أى تعسف أو تطويع أو تكلف بحيث تكون الآية داعية للاتفاقيات الجماعية[1] .

فضلاً عما فى الاتفاقية الجماعية من اجتماعات ومناقشات ومساهمات وشورى سواء مابين العمال بعضهم بعضاً أو مع العمال من ناحية والإدارة من ناحية أخرى . وهذه كلها إجراءات وأساليب يحث عليها الإسلام ..

فمن الناحية الإسلامية الخالصة كانت النقابات العمالية أولى بتجاوب الإخوان . علماً بأن قانون النقابات يسمح لكل المهنيين بالانضمام إلى النقابات العامة وان تكون ٢٠٪ من مجالس إدارات المنظمات العمالية من المهنيين **أى أن الطريق أمام الإسلاميين لدخول إنتخابات النقابات العمالية مكفول بالقانون انتخاباً وترشيحاً ..**

ولكن الأمر هو كما قلنا «أمر مزايح ونفسيه» ومستوى طبقى يضع المهنيين فوق اليدويين وينأى بالأولين عن الآخرين .. وهو أمر يفترض ألا يكون فى دعوة الإخوان التى تعلم جيداً أن المؤمنين عدول يسعى بذمتهم أدناهم وتقوم العلاقات مابين اعضائها على أساس «الحب فى الله» وما أشرنا إليه آنفا من تفضيل الرسول للعمل اليدوى .

وإذا كنت أدعو الإخوان لدخول الحركة النقابية العمالية . **فإن هذا يعود إلى** الحرص على مصلحة الحركة العمالية من ناحية ومصلحة الإخوان أنفسهم من ناحية أخرى .

---

(١) أنظر كتابنا «الإسلام والحركة النقابية» ص ٧٨ إلى ٨٣ من الطبعة الثالثة .

لمصلحة الحركة النقابية العمالية . لأن الحركة النقابية لابد لها من دعام نظرى أو عقيدى . وقد وجدت الحركة النقابية الأوروبية هذا الدعام فى الفكر الإشتراكى أو الماركسى . أما الحركة العمالية المصرية فليس لها أى غطاء أيديلوجى ليس لها أى نظرية تهديها وتوفر لها الإيمان وتحميها من الإغراء أو الإنحراف وقد عالجنا هذه النقطة فى رسالتنا «لماذا يجب أن يكون للحركة النقابية المصرية عقيدة» .

بالإضافة إلى أن التنظيم النقابى القائم فاسد من الناحية التنظيمية لأنه لا يحقق مشاركة القواعد مع القيادات وبذلك يحرم الحركة النقابية من قوتها الحقيقية ويحول دون تحقيق الحرية والديمقراطية فيها .

من هنا يكون دخول الإخوان المسلمين للحركة النقابية عامل تجديد وانهاض واستكمال للجانب النظرى/ العقيدى . فضلاً عن الإصلاح التنظيمى الذى يجب أن يتبناه الإخوان . وهذا وذاك فى صميم مصلحة الحركة النقابية .

ومن ناحية الإخوان فلن يكون للإخوان قاعدة شعبية حقيقية مالم يكن لهم وجود فعال فى الحركة النقابية العمالية يحميها عندما يراد البطش بها .

وقد أظهر الصدام مابين النقابات المهنية والحكومة حول القانون ١٠٠ لسنة ٩٣ أن النقابات المهنية رغم الحماسة المتقدة والإمكانيات الوفيرة عجزت عن أن يكون لقومتها أثر شعبى يمكن أن يضغط على الحكومة ويحملها على تعديل القانون — إن لم يكن سحبه — وباءت كلها بالفشل فى النهاية . ولو رزقت تأييد الحركة النقابية العمالية لاختلف الموقف . **من هنا لايعد الوجود الإخوانى فى النقابات المهنية وحده حامياً كافياً ...**

القضية الحقيقية هى أن يؤمن الإخوان بجوهر النقابية العمالية وهى مشتقة من أصول الإسلام . وأن يثقفوا أنفسهم ثقافة نقابية عمالية وأن يتخلصوا من النزعات الفردية والفئوية والبرجوازية التى تتحكم فيهم بدرجات متفاوتة وأن يتخلصوا من فهمهم الشعائرى الطقوسى للإسلام . وأن يمنحوا الأولوية للعمل .

إننا لانريد أن ننقذ الحركة النقابية العمالية من الوصوليين والانتهازيين الذين استغلوها لنحل محلهم الطقوسيين والشكليين الذين لايعرفون شيئاً عن الحركة النقابية .

لابد للإخوان أن يفهموا أن زيادة الأجور وتقصير ساعات العمل وكفالة الكرامة للعامل هي من الأصول الكبرى للإسلام وأنها قربات إلى الله تعدل أو تفضل العبادات والصلوات ... الخ .

إذا كان لدى الإخوان مثل هذا الفهم . فإن دخولهم النقابات العمالية سيكون خيراً وبركة وسيحقق الإصلاح المنشود للحركة النقابية وللإخوان أنفسهم .. فإذا لم يكن لديهم فمن الخير لهم أن يظلوا فى قوقعتهم دون القيام بتجارب فاشلة .

فى معظم الحالات يغلب علىّ اليأس من أن يتمكن الإخوان من فهم هذا الكلام والقيام به ومع هذا فمن يراجع لائحة النظام الأساسى للإخوان سنة ٢٨ بلائحتها سنة ٤٨ يلمس الفرق الكبير بين جماعة صوفية تربوية وبين هيئة تجعل الإسلام منهجاً للحياة .. فليس هناك مايمنع من أن يهديها الله لتقوم بهذا التجديد الذى سينهض بهم وبالحركة النقابية : عمالية ومهنية ...

ولن نتوقف عن الدعوة .. واستحثاث الهم .

لقد قمنا بدورنا الميدانى والتنظيمى فى الخمسينات ولايمكن – ولا يجوز – أن نقوم به الآن فهذا هو مجال جيل التسعينات وعليه أن يعمل ويكافح ويناور ويداور وينظم ويدبر .. وعلينا أن نزوده بالخبرات والتجارب والثقافات والمهارات التى تكفل له النجاح والتوفيق .

ومن الطبيعى أن توجد عناصر هذ الجيل فى إطار الإخوان المسلمين إذا ألموا بما قدمناه .. فإذا لم يفعلوا فسوف ﴿يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله لايخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ (المائدة ٥٤) .

— ٩ —

بعض الخطوط التى تحكم ظاهرة « الصحوة الإسلامية »

مضى قرابة قرن ونصف منذ أن بدأت اليقظة الإسلامية على صوت جمال الدين الأفغانى ، الذى اسمع العالم الإسلامى من مشرقه إلى غربه بادئا مرحلة الانتقال الفكرى والمخاض ، دون أن يظهر الوليد المنشود ، فإن عوامل جديدة وقوى جديدة أخرت الميلاد وأصبحت تهدد باجهاضه ، وهو ما يتطلب من المفكرين الإسلاميين مزيدا من العناية ، فليس شرطاً أن تمر الأمور هوناً ، أو أن يبلغ الأمل محله ، وقد تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن .

وشواهد الحال تحذرنا ، فالمعسكر الإسلامى رغم ظواهر «الصحوة» لايزال متخلفا متقهقراً أمام عالم العصر الحديث ، عاجزاً عن مجابهة تحدياته بحلول صريحة واضحة تقف على قدم المساواة أمام هذه التحديات بحيث تلزمها الحجة ، إن لم تثبت أفضليتها ، والدول الإسلامية على اختلاف مذهبياتها الإسلامية متقاطعة متخاصمة .. مزقتها تيارات السياسة ولم تجمعها وحدة الفكر ، بينما تظهر قوى جديدة فى العالم الأوروبى تحتاز مساحات واسعة من المعسكر الإسلامى ، وتنتقص من أطرافه فى أندونيسيا وبنجلاديش والقدس حتى أصبحت طرقات الأعد يمكن أن تسمع على أبواب الديار المقدسة وصميم العالم الإسلامى .

في هذه الملاحظات سنتعرض لأبرز الخطوط التي تحكم ظاهرة «الصحوة الإسلامية» ايجاباً وسلباً ، فهناك عناصر قوة تدفعها وتدعمها كما توجد عناصر ضعف تعرقلها وتؤخرها ، وبقدر انتصار عناصر القوة على عناصر الضعف تكون قدرة الصحوة الإسلامية على أن تتحول إلى نهضة . وإذا انتصرت عوامل الضعف فستتحول الصحوة إلى نكسة واغفاءة أخرى طويلة وبقدر ما نقول بالنسبة لهذا الأحتمال الأخير «لاقدر الله» بقدر ما يكون علينا أن نعمل لتجنبه **﴿إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** .

وفيما يلي عرض موجز كما لو كان موازنة حسابية لعناصر القوة والضعف ومحاولة لاستقراء النتائج والاحتمالات .

أولا : عناصر القوة :

أ — في الناحية الأيديلوجية :

في قضية كالصحوة الإسلامية لا يجوز لنا أن نضائل من أهمية العوامل الأيديلوجية ، بل اننا لا نبالغ إذا وضعناها في الصدارة ، ومنحناها الأولوية ، لأنها بلغة العصر تمثل «النظرية» التي لايكون التطبيق بدونها الا ارتجاليا وعشوائياً . إن النظرية تضع الطريق السوي الذي يجب أن تسلكه الصحوة حتى لا تتخبط ، وتذهب بهذا الأهواء والمطامع والاجتهادات والمؤامرات الوقتية .

وليس من اليسير أن نجد «نظرية» محكمة لأنها قمة الفكر ونهاية المطاف ، أن الماركسية التي جذبت ازكى العقول الأوروبية وكانت محورا للدراسة لمدة مائة عام .. لم تثبت أمام التطبيق وكشفت سبعون عاماً فحسب عن المآخذ الجسيمة فيها ..

ومن حسن حظ الصحوة الإسلامية أن عناصر قوتها تتجلى في هذه الناحية الأيديلوجية التي تمثل «الثوابت» وأن كانت عناصر الضعف — كما سنرى — اهدرت — ولو لحين هذه الأهمية .

وأهم عناصر القوة فى الناحية الأيديلوجية هى :

أ – وجود القرآن الكريم ان القرآن هو أعظم ذخر للصحوة الإسلامية لأنه العامل الوحيد الذى يجمع مزايا وخصائص لايمكن أن توجد فى غيره فهو حامى الوحدة اللغوية والفكرية .

وقد حفظ اللغة العربية القياسية من أن تتناشها اللهجات الاقليمية وتمزقها . ثم هو الاطار الأعظم للعقيدة والشريعة التى تجمع عليها المسلمون قاطعية وأخيراً فإنه بأسلوبه المعجز وايقاعه المؤثر ومعانيه السامية وأحكامه المثلى لايزال النبع الذى لا يغيض أو ينضب للإيمان الإسلامى . وهو يلهم الإيمان اليوم بالقوة نفسها التى كان يلهم بها الإيمان من أربعة عشر قرنا .. بل إن العصر الحديث يكشف كل يوم أدلة على إحكام القرآن واعجازه تزيد الإيمان به ..

ومن النادر أن نجد أمه فيها مثل هذا القرآن والمثال الوحيد – مع الفارق الجسيم – هو بنى اسرائيل الذين أطلق عليهم القرآن «أهل الكتاب» والذين استطاعوا ، بفضل هذا الكتاب ورغم كل ما لحقه من تحريف وتزييف – أن يتماسكوا وأن يصبح العامل الوحيد الذى يجمع .. وسط عشرات العوامل التى تفرق .

إن القرآن الكريم كان – وسيظل – أعظم رأس مال الدعوة الإسلامية وصحوتها .

ب – شخصية الرسول (سيدنا محمد ﷺ) .

إن هذه الشخصية الفريدة لاتزال منذ ظهورها حتى الآن وهى تبلور وتجسد الشخصية الإسلامية (كان خلقه القرآن) وأقل مايقال عنها إنها بالنسبة للمسلمين جميعا كالملك أو (الملكة) بالنسبة للكومنولث البريطانى ، عنصر يربط كل شعوب الكومنولث برباط ولاء يعود إلى جذور تاريخية ودون أن يتضمن عنصراً من عناصر القسر والالزام . وهو مجرد مثال تقريب جانب واحد من جوانب شخصية محمد ، ونحن نورده ، كما أورد القرآن الكريم المثل لنور الله كمشكاة فيها مصباح .. أو لقدرته بذبابه وبعوضه .. لأن الولاء لمحمد لا مثيل له فى التاريخ فى ناحيتى العمق والمدى على سواء ..

ولما كان الرسول يمثل القيادة - الإنسان - الذات ... فان هذا يكمل للإسلام شقيه وتتضح الحكمة فى ثنائية التشهد الإسلامى **«أشهد أنّ لا إله إلا الله .. وان محمداً رسول الله»** .

وقد تزيد آثار شخصية محمد لأن الرسول قام بجزء كبير من التشريع لأن القرآن بطبيعته وصياغته ونظمه لم يشر إلا إلى الكليات وترك تحديد التفاصيل للرسول . ومن هنا أصبحت السنة مكملة للقرآن .

ويتفق هذان العنصران من عناصر القوة الأيديولوجية فى أنهما محل التسليم من المسلمين كافة . فلا يمارى مسلم فى قداسة القرآن ، وإنه كلام الله وصل إلينا كاملاً غير منقوص أو محرف ولا يمارى مسلم فى أن محمداً قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة وضرب المثل الأعلى للقائد والزعيم وأن شخصيته كرسول ومشرع وقائد ورجل دولة الخ .. فاقت أى شخصية أخرى فى العالم الأوروبى قد بدأ العالم الأوروبى يعترف بهذا مع انكشاف المؤامرة الصليبية على شخصية النبى . ولم يكن عبثا أن يضعه كاتب أمريكى على رأس مائة شخص أثروا فى تاريخ البشرية .

جـ - التراث الحضارى :

إن الفترة التى تلت العهد النبوى مباشرة أى الخلافة الراشدة تمثل تراثا حضاريا ، وتقدم حلا اسلاميا للمشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى جابهت الإسلام عندما خرج من مجتمع المدينة المغلق والمحدود إلى آفاق الامبراطورية المنفسحة والمفتوحة ويمكن أن تعد من باب «السوابق الدستورية» الملهمة للمجتمع الإسلامى .

فإذا كانت عبقرية الخلافة الراشدة قد وقفت فى نهاية هذه الخلافة - بعد قرابة ثلاثين عاماً - فإن المجتمع الإسلامى - حتى فى أظلم عهوده - لم يخل من الشخصيات المضيئة التى قامت بدورها وقدمت اضافتها الخاصة ليس فحسب فى مجال الحكم والسياسة ولكن أيضا فى مجال العلوم والفنون .

وهذا هو ما نسميه «التراث الحضارى» وهو يمثل الامتداد التاريخى السليم ويمكن أن يلهم الصحوة الإسلامية الشىء الكثير ..

على أنه من المهم أن نميز بين شقين فى هذا التراث :

الأول : يمثل الإبداع وهو ما نجده فى تراث الخلافة الراشدة .. وعباقرة الفقهاء والعلماء المسلمين ..

الثانى : وهو مايمثل الاتباع والتقليد الذى بدأ مع اغلاق باب الاجتهاد والعكوف على الفروع والجزئيات وهذا الشق ليس له أهمية الشق الأول . وفى كثير من الحالات تنتفى منه كل آثار الابداع أو الإضافة ويكون استلهامه مضللاً ، لأنه يعنى بالفروع والتفاصيل ، وليس بالكليات والأصول ، لأنه كتب بأقلام «مدرسيّين» فى ظروف وملابسات ومناخ لم تكن هى المثلى دائما .

* * *

من هذا العرض لعناصر القوة فى الناحية الأيدلوجية نجد أن الصحوة الإسلامية يتوفر لها كل مقومات وأركان النهضة فلديها كتاب يرمز لوحدتها ويضم نظريتها ودستورها وعقيدتها وشريعتها . ولديها الشخصية القيادية الملهمة «الأسوة» التى أدت دور القائد والزعيم أداء لم يسبق ووضع ما ينبغى أن يكون عليه القائد ايجاباً وسلباً ، أى ما يجب أن يقوم به وما يجب أن يتنزه عنه ثم لديها تراث حضارى أدبى وعلمى ويمكن أن يسهم فى حل المشكلة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ..

ولا يخالجنا شك فى أن الصحوة الإسلامية من هذه الناحية أفضل من أى «حركة» أخرى . ويمكن لها — من هذا المنطلق ، ليس فحسب أن تتحول إلى نهضة ولكن أيضاً أن تقوم بدور فى انقاذ البشرية المعاصرة الضالة .

ب — فى الناحية المادية :

لا ريب فى أهمية الناحية المادية ، وقد يكون حقا ما يقولونه عن أن المال (عصب الحياة) ولكننا مع هذا نريد أن نوجه الأنظار إلى عدد من الحقائق :—

أ — أن رأس المال ماهو إلا عمل مبلور والعمل بدوره ثمرة للفكر سواء كان

عقيدة أم علم فاليابان مثلا ليس لديها مواد أولية أو قوى محركة وهى تستوردها بأغلى الأثمان وقد خرجت من الحروب العالمية الثانية مدمرة ولكنها استطاعت أن تصبح بعد أربعين عاما أقوى دولة صناعية لأن التراث الحضارى اليابانى يقدس العلم والعمل وفى مقابل هذا نجد فى السودان مساحات شاسعة من الأراضى الصالحة للزراعة والتى تروى بالأمطار ومع هذا لايستطيع السودان أن يسد حاجات العدد المحدود من سكانه ويعمل باستيراد القمح وغيره من المنتجات الزراعية لأن السودان كبقية الدول العربية وكما سيلى لم يفهم من الإسلام وهو تراثه الحضارى إلا جانبه العبادى[1] .

ب – أن الثورات يمكن أن تكون أعظم (الصفقات الاقتصادية) ويمكن أن تدفع الأقتصاد دفعاً إلى الأمام وتستأصل كل المعوقات فى طريقها .

ج – ان الثروة المادية الضخمة وان كانت بلاشك تمثل قوة ضخمة إلا أنها عادة ما تصطحب بسوء الاستخدام وسوء التوزيع بحيث قد تفضلها ثروة معقولة لا تصطحب بسوء الإستخدام أو سفاهة التوزيع . واذا كانت موارد الدول الإسلامية تعجز عن تحقيق الوفرة فإن العدالة الإسلامية يمكن أن تمحو الفاقة .

ومع هذا كله فقد أنعم الله تعالى على الدول الإسلامية وجعل فى بلادها ثروات عديدة وفجر البترول خلالها تفجيرا بحيث أصبحت بعض دوله من أغنى دول العالم .

ثانيا – عناصر الضعف :

أ – الناحية الأيديولوجية :

١ – القصور فى فهم الإسلام .

بعد عشرة قرون من التقليد تقوقع الفكر الإسلامى فى عدد محدود من المذاهب التى عُنيت بفروع الفقه وشكلياته وابتعد عن النظر فى القرآن مكتفيا بما قاله الشراح وغطت طبقات بعد طبقات أساسيات وجوهريات الإسلام وروحه ورسالته بحيث أصبح مدلول الإسلام هو التمذهب بمذهب معين واتباع شكليات معينة كالصلاة والصوم والحج تبعا لشراح المذهب .

---

(١) كتب هذا البحث منذ قرابة عشر سنوات وقبل التطورات الأخيرة فى السودان .

ومن الواضح أن الإسلام لم يكتسح العالم القديم وينتصر على الفرس والروم لأنه يقرر شكلاً معينا فى الركوع والسجود أو الحج والطواف .. الخ وأننا انتصر لأنه كان قوة تغيير كبرى وثورة على المجتمع القديم الذى كان يقوم على شرعة التمييز والطبقية والاستغلال وعبادة الطاغوت . كان الإسلام يحمل رسالة العلم والعدل والمساواة والحرية (الكتاب والميزان) وكان يستأصل بالسيف كل من يرفض ذلك أو يتمسك بالأوضاع الاستغلالية والتحكمية والطبقية .

ومعنى هذا أن حيوية الإسلام وانتصاره الأول إنما يعود إلى أنه دعوة لتحقيق الحياة الكريمة والمجتمع العادل وتحطيم الوثنيات واحلال العلم والحرية والمساواة والعدالة محلها .

ولكن الفكر الإسلامى طوال القرون العشرة الأخيرة تجاهل هذا واقتصر فهمه للاسلام على أنه صورة معينة للعبادة .

صحيح إن العبادة مقوم هام من مقومات الإسلام . ولكن كل الأديان لها عبادات والجديد الذى جاء به الإسلام وميزه على الأديان الأخرى أنه لم يقتصر على العبادة ولكنه عالج بقوة ووضوح القضية الاجتماعية ووضع لها الحلول والخطوط الرئيسية فأوجب فى السياسة مقاومة الاستبداد والطغيان وتأليه الحكام وجعل البيعة والشورى من أركان النظام السياسى للإسلام وفى الاقتصاد أوجب التكافل الاقتصادى وفرض الزكاة وجعل لها مصارفها باعتبارها حق معلوم وحرم الربا والاكتناز وكل صور الاستغلال . وفى النظام الإجتماعى حرر المرأة واسقط كل صور التمييز الطبقى التى كانت تحكم العالم القديم من نسب أو لون أو جنس وحث على الثقافة والمعرفة والتفكير والتدبير وأوجب العمل وندد بالذين يقولون إنا وجدنا اباءنا على أمة وإنا على اثارهم مقتدون .

والإسلام يضع هذا الجانب الإجتماعى والسياسى والإقتصادى فى منزلة العبادة نفسها ولا يفرق بينهما . ومن هنا نفهم (ثنائيات القرآن) فهو لا يذكر الصلاة الا ويقرنها بالزكاة ولا يشير إلى الذى أمنوا إلا ويقرنهم وعملوا الصالحات . والربا ظلم عظيم والظلم شرك وعبادة الملوك والحكام وثنية .

هذا الجانب هو سر حيوية الإسلام لأن المجتمع لا ينهض إلا به وإذا أهمل فقد تؤدى كل صور العبادات من صلاة أو صوم أو حج ويسود مع هذا الظلم والجهل والفاقة فى المجتمع الإسلامى . كما هو حادث فعلا وقد تقبل الذين يقصرون الإسلام على العبادات هذا الوضع وهذه هى مأساة الفكر الإسلامى . وقد يصور هذا الفهم ، وتغلغه أنه عندما نادت احدى الهيئات الإسلامية بأن يكون الإسلام دينا ودنيا مصحفا وسيفا .. الخ فإن كثيراً من اتباع هذه الدعوة نفسها لم يفهموا من هذا الا أن الدولة الإسلامية هى الدولة التى تفرض العبادات وتوجبها على الناس بردع السلطان وقانون العقوبات .

ولو ألقينا نظرة على الصحافة الإسلامية لوجدنا أنها فى الوقت الذى يتحكم الاستبداد السياسى والاستغلال الاقتصادى وتنتشر الفاقة والحاجة وتتعدد المشكلات فإنها لا تشير إلى شىء من هذا كأنها فى عالم آخر وتملأ كل صفحاتها بالأحاديث عن الوضوء والصلاة وأركان الحج .. الخ .

٢ - العجز عن التوصل إلى صياغة (للمبادىء الإسلامية) تثبت وجودها أمام تحديات العصر ، وهذا العجز مرتبط بالخطأ فى فهم الإسلام ، هذا الخطأ الذى حصر الإسلام فى العبادة وأبعده عن الحياة والمجتمع والقضايا العامة والأخذ بأسلوب النقل والأتباع والتقليد وليس إعمال الفكر والتفكير والتمحيص . فلما جوبه الفكر الإسلامى بالعصر الحديث لم يستطع أن يتعامل معه لأنه يعيش فى عالم يعود إلى عشرة قرون خلت . وما مثل علماء المسلمين اليوم الا كأهل الكهف الذين ناموا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ثم بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة ، وورقهم لا يصلح للتعامل .

وهكذا ظلت مجالات عديدة شاغرة من الحل الإسلامى ولم يتقدم المفكرون الإسلاميون الا بصور ساذجة من الحلول لا تتلاءم مع عمق وتعقيد المشاكل سواء كان ذلك فى السياسة أو الاجتماع أو الفنون أو الآداب أو الاقتصاد أو العلاقات مابين العمال وأصحاب الأعمال أو الصحافة أو المرأة .. الخ .

فى هذه المجالات كلها قد نجد الرفض وقد نجد التجاهل وقد نجد الحلول الساذجة

أو الخاطئة نتيجة لاستلهام آراء وضعها الفقهاء منذ عدة قرون وفى ظروف وملابسات تختلف تماماً .

وليس هذا ذنب الإسلام .. فالقرآن الكريم قد أرسى الأسس والمبادىء التى يمكن أن تصلح أساساً لتأصيل الرأى من إعمال الفكر وابتغاء الحكمة أياً كانت وعدم الاعتداد بما قرره بالآباء والأجداد . بل إن الاقتباس نفسه مبدأ إسلامى وإذا كان الشىء المقتبس حسنا فنحن أولى به وقد قال النبى ﷺ عن موسى (نحن أولى به منهم) **فليس هناك حساسية يمكن أن يستشعرها الإسلام نحو الجديد مادام هذا الجديد يمكن أن يدخل فى اطار الأصول الإسلامية العامة وفى سبيل تقبل الأفضل والأحسن أجاز الحديث لمن حلف على يمين فرأى خيراً منها أن يكفر عن يمينه وأن يأتى الذى هو خير (مسلم)** .

٣ — ضعف الهيئات الإسلامية :

كان لابد أن تصاب الهيئات الإسلامية بالوهن نتيجة للعاملين السابقين وعندما رزقت الدعوة الإسلامية قادة اكفاء أو ظروفاً مواتية فإنها لم تترك إلا قليلاً وضربت عندما حانت الفرصة . وقد ضربت الدعوة الإسلامية فى اندونسيا ومصر ونيجيريا وغيرها كما قيدت أو استقطبت فى دول أخرى . وكان من أبرز ما رزئت به الهيئات الإسلامية عدم وجود القادة الأكفاء بحيث أصبحت هذه الهيئات (جيوشاً بدون جنرالات) وظهرت صور من انفلات العيار وغلبه الجموح والتشدد على مجموعات عديدة من شباب الهيئات الإسلامية .

ويجب ألا نخدع بما نسمع عن انتصارات للدعوة الإسلامية فإنها فلتات وأنها لاتعد شيئاً أمام التقدم المستمر والمنتظم للهيئات الأخرى مدنية أو تبشيرية .

٤ — مقاومة النظم الحاكمة :

الحقيقة التى تفرض نفسها على كل مفكر أمين ولا مفر من الاعتراف بها هى أن المنطقة الإسلامية تحكم بنظم ليست هى أمثل النظم أو أقربها إلى الإسلام وإنها على

اختلاف مواقعها وسواء كانت قبلية أو عسكرية فإنها أولاً وقبل كل شيء نظم حاكمة يهمها بالدرجة الأولى الحكم وما يتبعه من سلطات ولما كان الإسلام أقوى منها جميعها . فإن فكرة مقاومته أو التنكر له صراحة مستبعدة تماماً من كل هذه النظم ولكن هذا لا ينفى أن لكل منها وسائله الخاصة لكبت المد الإسلامى حتى لا يضر أوضاعها ومصالحها فبعض النظم تحاول احتواء هذه الدعوات واستقطابها والابقاء عليها فى حدود الأمان والبعض الآخر يكثف المعنى العبادى ويركز الاهتمام عليه يلفت الانتباه عن الجوانب الأخرى من حريات أو عدالة والبعض الثالث يمتص الوعى والحماسة بمختلف الوسائل أو الادعاءات .

وقد تكون الوعود والاستحسان وسيلة لامتصاص الأهتمام كما هو حادث بالنسبة لتطبيق الشريعة الإسلامية[1] فإن المسئولين يبدون اهتمامهم الكبير واستحسانهم المطلق ولكن دون أن يعملوا شيئاً أو لعلهم يعملون فى وضع المعوقات والأشواك فى طريق التطبيق .

يعطيك من طرف اللسان حلاوة .. ويروغ منك كما يروغ الثعلب ...

أما الوسائل البوليسية فإنها آخر المطاف ولكنها موجودة دائماً ويلاذ بها سرا أو جهراً . وقد أصبح الاعتقال والتعذيب أمراً مألوفا ومقرراً لدى معظم نظم الأمن الإسلامية والعربية .

٥ – معارضة «المصالح المكتسبة» :

على امتداد قرن تقريباً استطاع الاستعمار أن يغرس أصول الحياة الليبرالية الحديثة .. وقامت مؤسسات عديدة على أساسها ، وأصبح لها مصلحة فى حماية هذا الوضع .. فكل دور الملاهى والمراقص والحانات وكل مصانع الخمور ووسائل التجميل وحلبات الرقص وكل البنوك والمنشآت المالية التى تقوم على الفائدة وتمارس صوراً من الاستثمار والنشاط الاقتصادى المحرم ونقابات العمال المخدوعة والمضللة

(١) كما كان الحال فى مصر فى الثمانينات .

والصحافة التى تظن أن الفكر الإسلامية ضد حرية الرأى والأحزاب التى استمرأت «قضية الحكم» وأجهزة الإعلام وهيئات الرياضة ... الخ كل هذه الهيئات والمؤسسات تعارض - بدرجات متفاوتة الفكر الإسلامى ، بعضها لأن نشاطها بالفعل يخالف بعض الأصول الإسلامية ولكن الاكثرية لأنها مضللة أو لأن الذين يتحدثون باسم الفكر الإسلامى يقدمونه فى صورة مشوهة .

احتكار المؤسسة الدينية :

يوجد فى العالم الإسلامى مؤسسات دينية تعد كل واحدة نفسها المسئولة عن الإسلام ، ففى السعودية مثلاً نجد هيئات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهيئة البحوث والدعوة والإرشاد والافتاء . وجامعات عديدة تتفق عليها الدولة وتدير شؤونها . وفى مصر الأزهر وكلياته ووزارة الأوقاف . وفى ايران نجد «الحوزات» العلمية والمراجع و «آيات الله» ..

وفى كل حالة من هذه الحالات ، فإن المؤسسة الدينية تظفر وحدها بمؤازرة الدولة ، بينما تُثبط وتحارب أى اتجاه آخر . ومن ناحيتها فإن المؤسسة الدينية ترى أن الدعوة هى وظيفتها وأن تفسير القرآن وتأويل الأحاديث ومعالجة القضية كلها يجب أن تكون حكراً لها . ولايجوز لآخر أن يتدخل فيها ، وحجتها أنها الهيئة المسئولة التى يتوفر لها مالا يتوفر لغيرها من المعرفة الفنية والأحكام النظرى . وفى كثير من الحالات تتترس الدولة وراءها أو تتمحك فيها أو تزجى لها الثناء (كالحديث المعاد عن الأزهر) . وقد تدفعها لمناصرة رأيها ومعارضة مخالفيها أو تغريها بمصادرة كتاب الخ .. وعادة ما تحاول المؤسسة الإسلامية أن تنأى بنفسها عن هذا ولكنها قد تعجز عن المقاومة وتجد نفسها منساقة مع النظام الحاكم .

ظهور شرازم التطرف :

ظهرت الشرازم المتطرفة أول مرة فى السجن الحربى بمدينة نصر فى الحقبة الناصرية وكرد فعل لوحشية سجانيه وجلاديه وما اقترفوه من جرائم منكرة جعلت بعض الشباب يرون أن الذين يمارسون هذه الممارسات ليسوا من الإسلام فى شيء ،

وإنهم إلى الكفر أقرب . وكانت أولاها هى جماعة شكرى مصطفى التى أطلق عليها «التكفير والهجرة» .

وقد حاول الأخوان أن يقتعوا هذه الشرازم بخطأ تكييفها أو أسلوبها . ولكنهم عجزوا .. وفشلوا أمام اجرام النظام ..

وهذا هو التصوير الحقيقى والواقعى لظهور تلك الشرازم الشاردة ، العنيفة ، التى لجأت إلى الإرهاب ، أما العودة بها إلى ما قبل ذلك فإنه تعسف للحقيقة ..

وقد ظهر وتفشى أخيراً الفساد ، بينما ظلت قوى الضغط على الشعب وحكمه حكماً بوليسياً وبأغلبية مزيفة .. تزود هذه المجموعات بدافع جديد ، إذ لم يعد أمامها قناة لاعلان رأيها أو الإصلاح بطرق مشروعة .

والتطرف والشطط ظاهرة معروفة فى مثل هذه الملابسات وقد حدثت فى معظم الدول بصور متفاوتة وحتى الآن فإن سجل «النهليست» فى روسيا القيصرية يعد أضخم سجل للتطرف السياسى شهده العالم واستهدف تحطيم الحكم القيصرى وراح ضحيته مئات من الشبان والشابات .. فهو فكر لا يعد أصيلاً الا لدى القلة التى هى مهيئة بحكم طبيعتها له .. ولكنه «كظاهرة اجتماعية» يعود إلى ظروف استثنائية ويرتبط علاجه أو الحكم عليه .. بهذه الظروف نفسها — لأنه حتى عندما يشط أو يخطأ أو يجاوز الحدود فإنه يعتمد على مبدأ الاستثناء والضرورة التى تبيح المحظورات ولو لم توجد الضرورة لما أبيحت المحظورات .

ولا علاج لظاهرة التطرف والإرهاب ما ظل الفساد فاشياً ، والحكم بوليسيا والحريات مكبلة بالأغلال .

ان الحل الوحيد هو الحرية .. وما ظلت النظم الحاكمة تأباها على شعوبها ، فعليها أن تدفع الثمن ..

خاتمة :

مع أن هذا العرض لعناصر القوة والضعف فى الصحوة الإسلامية قد يعلى عناصر الضعف ومقاومة الصحوة على عناصر القوة فيها ، فتظل الحقيقة الأساسية أن عناصر القوة هى فى الثوابت : الله والرسول الذى يمثل النظرية والتطبيق مما يفسح المجال لإمكان انتصار الصحوة اذا استطاعت توظيف رأسمالها توظيفا حسنا ، يجعلها تنتصر على عناصر المقاومة التى هى كلها «عارضة» .

والأرض لله يورثها عباده «الصالحين» .

★ ★ ★

— ١٠ —

رأى الإخوان المسلمين في الوحدة العربية

فى ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٤٤ أرسل مكتب المرشد العام مذكرة هامة الى **«رئيس وأعضاء اللجنة التحضيرية لمؤتمر الوحدة العربية»** تضمنت رأى الإخوان المسلمين فى قضية الوحدة العربية .

ولمناسبة مرور خمسين عاماً على تاريخ هذه المذكرة . وللأهمية الكبرى لموضوعها رأينا أن نثبتها هنا ، ونجعلها خاتمة مباحث هذا الكتاب .

وكما سيرى القارىء بأن هذه المذكرة الهامة — والتى تكاد تكون مجهولة — تثبت أن الإخوان المسلمين **يناصرون بقوة وحدة الأمة العربية ويؤيدون بشده كل بعناية الاستقلال التى كانت لاتزال غير محققه — (قبل نهاية الحرب العالمية الثانية وقبل قيام جامعة الدولة العربية) — وهى تقضى قضاءً مبرماً على فكره التعارض مابين الوحدة العربية والدعوة الإسلامية . فالوحدة العربية هى القلب من وحدة أكبر منها هى الوحدة الإسلامية ، التى بدورها يمكن أن تدخل فى دائرة أكبر هى العالمية ..**

ونقطع بأن هذه الوثيقة هى من قلم الإمام الشهيد حسن البنا يوحى بذلك الأسلوب السهل السائغ . والمعانى المؤثرة ، والنظرة المتحررة من الرواسب والأفق

الواسع وتفادى الموضوعات الشائكة التى تثير الخلاف وقد صدرت الوثيقة بعد من «مكتب المرشد العام» .

ولم ترد الإشارة الى هذه الوثيقة فيما بين يدينا من كتابات عن الاخوان ، ولم يرد لما ذكر فى كتاب الاستاذ محمد عبد الحليم وهو أشمل ما كتب عن الإخوان ، رغم أنه تحدث طويلاً عن ملابسات تكوين الجامعة العربية ..

وفيما يلى نص هذه الوثيقة .

حضرات الساده الفضلاء رئيس وأعضاء اللجنة التحضيرية لمؤتمر الوحدة العربية .

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته وبعد .

ففى هذه الساعات التاريخية الفاصلة فى مستقبل الأمم والشعوب عامة والأمة العربية خاصة ، قدر لكم أن تعقدوا اجتماعكم هذا وأن تضطلعوا بأجل مهمة فى تاريخ العالم العربى الحديث يتطلع الى جهودكم فيها مائة مليون عربى من أقصى العراق إلى أقصى المغرب ومن ورائهم ثلثمائة مليون مسلم **«والإسلام عروبة بعد العروبة»** والجميع يرقبون بلهفة وشوق وأمل عظيم ما تقررون وينتظرون منكم ، وضوح المؤمنين ، وعزائم المجاهدين، وصلابة الذين لايخافون فى الحق لومة لائم ، وبسعدهم أن يفتدوا حقوقهم بأنفسهم وأولادهم ودمائهم وأموالهم. فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون، والله معكم ولن يتركم.

وأنى باسم الإخوان المسلمين فى أنحاء المملكة المصرية ، وفى بلدان العالم العربى والإسلامى المختلفة ، ارفع إليكم أطيب التهنئات وأجمل التحيات سائلاً الله تبارك وتعالى أن يبارك عملكم وأن يرفع العقبات من طريقكم ، وأن يهيئكم لخير أمتكم وبلادكم أنه نعم المولى ونعم النصير .

أيها السادة الفضلاء :

أنكم لتدافعون عن أعدل وانجح واوضح قضة فى التاريخ . فمن البديهيات التى لاتقبل الجدل (أن العرب أمة واحدة) وأن هذا التعبير لايساوى فى أحقيته ووضوحه واستقراره فى النفوس والأذهان قول القائلين **«السماء فوقنا والأرض تحتنا»** فقد اصطلحت على تكوين هذه الوحدة العربية وتدعيمها كل العوامل الروحية واللغوية

والجغرافية والتاريخية والمصلحية وأن العرب من خليج فارس الى المحيط الأطلسي ليتحدون بوحدتهم أية أمة متحدة فى القديم والحديث وليست تعوز هذه القضية الأدلة والبراهين . ولكنها يعوزها ثبات المؤمنين وعدالة المتصفين . فإذا حققتم فى أنفسكم الأولى ، وهو العهد بكم وحقق حلفاؤكم الثانية وهو الظن بهم فقد عاد الحق الى أهله ووضعت الأمور فى نصابها ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

أيها السادة الفضلاء :

إن بين يدى مؤتمركم ولجنتكم أموراً كثيرة أنتم مطالبون بدراستها وتمحيصها ، وأهدافاً كثيرة أنتم مطالبون كذلك بتحقيقها والوصول إليها وأن من الخير للقضية العامة أن تصارحوا الشعوب والهيئات بما بين أيديكم ، لتكون لكم مدداً وعوناً ، وأن تصارحكم الشعوب والهيئات بما ترى ، ليكون ذلك مكاشفة ونصحاً ، ولهذا اتقدم إليكم باسم الإخوان المسلمين بهذه الخواطر ، راجياً أن نكون بذلك قد أدينا بعض الواجب ، وساهمنا فى هذا الجهاد المبرور .

ومن تلك الأهداف :

أ — تحقيق مظاهر الوحدة العامة .

فهنالك خطوات أولية تعتبر وسائل عملية للوحدة المنشودة وهى فى الوقت نفسه من حق الحكومات العربية الخالص التى لاينازعها فيه منازع ومن تلك الخطوات :

١ — رفع الحواجز الجمركية .

٢ — الغاء جوازات السفر ومنح حرية المرور والتنقل فى أى قطر من الأقطار العربية لكل عربى بعد التأكد من شخصيته واباحة الهجرة والاستيطان على نظام واسع ميسر .

٣ — التوسع فى التعاون الأقتصادى وتأليف الشركات العربية الواسعة النطاق من سكان البلاد العربية جميعاً فى أى قطر من هذه الأقطار ودراسة المشروعات العربية العامة دراسة مشتركة وإحياء ماتعطل منها كمشروع سكة الحديد الحجازية التى انشئت بأموال العرب والمسلمين جميعاً وأوقافهم .

٤ — تنمية التعاون الثقافى والتشريعى والعسكرى بتوحيد براج التعليم ومناهجه وتوحيد منابع التشريع وقواعده ، وتوحيد نظم التدريب العسكرى وأساليبه ، ومؤتمر الوحدة العربية مطالب من العرب جميعاً بأن يعمل على تقرير هذه الخطوات ورسم الخطط الموصلة الى تحقيقها وجميع الحكومات والشعوب العربية عليها .

ب — تحقيق الأماني القومية ومساعدة الأمم الناشئة على نيل استقلالها واستكمال نهوضها .

وتأتى بعد الخطوة السابقة خطوة ثانية ، فإن للبلاد العربية مطالب قومية وحقوقاً سياسية لم تنلها بعد . ولافائدة من ذكر العوامل التاريخية والحوادث التى أدت الى انتقاص هذه الحقوق واغتصابها ولكن الذى يفيد ويجدى الآن أن نواجه الأمر الواقع والوضع القائم ونجاهد فى سبيل تحقيق هذه المطالب وتخليص تلك الحقوق ، وعلى مؤتمر الوحدة العربية ولجنته التحضيرية أن يرسم للشعوب والحكومات طرائق هذا الجهاد المشترك وأن يقرر تكاتف الجميع فى سبيل كسب هذه القضايا التى منها :

١ — العمل على استكمال استقلال مصر والمحافظة على وحدة وادى النيل ، فكل محاولة يراد بها انتقاص استقلال مصر أو تقييد هذا الاستقلال أو تمزيق وحدة وادى النيل عمل ظالم ، يؤثر فى كيان الأمة العربية العام ، وعلى كل شعب عربى وحكومة عربية أن يشد أزر مصر وحكومتها وشعبها فى سبيل هذه القضية حتى تفوز فيها . ويجب أن يكون مفهوماً للرأى العام العربى العالمى كله أن مصر حين تتمسك بوحدة وادى النيل لا تعتدى بذلك على شعب من الشعوب ولاتستعبد أمة من الأمم ولاتطمع فى توسعة حدودها ، أو زيادة مساحة أرضها أو تنمية ثروتها على حساب غيرها ، فكل هذه المزاعم باطلة لاوجود لها ، ولكن مصر حين تتمسك بالنيل الأعلى تحقق بذلك وحدة شعبها . فمصر والسودان أمة واحدة . وتحافظ على صميم كيانها وتضحى بكثير من مواردها وثروتها وجهودها . وأن حاجة هذا الجزء من الأرض الى مصر لأعظم بكثير من حاجتها هى إليه .

٢ — العمل على استكمال استقلال البلاد الشامية على اختلاف أقسامها . وإذا أصرت لبنان ومثيلاتها على المحافظة على استقلالها فليكن ذلك لها حتى يقنعها الزمن وتثبت لها الحوادث أن من خيرها بل من الزم اللوازم لها أن تعود الى أحضان أمها «سورية الكبرى» وأن ذلك لقريب فنحن فى عصر الوحدات القوية والكتل الشعبية الجامعة — ومادامت ستتفق مع غيرها من الشعوب العربية على كل مقومات الوحدة العملية فحسبنا ذلك منها الآن ولعل من الخير للمؤتمر وللبلاد الشامية خاصة والعربية

عامة ألا تجعل من هذه القضية عقبة تصطدم بها فى فورة الشعور وثورة الحماسة حتى يفصل فيها الزمن والزمن جزء من العلاج .

٣ – العمل على حل قضية فلسطين حلا يتفق مع وجهة النظر العربية ويؤدى الى سلامة هذا الجزء من الوطن العربى – وهو منه بمثابة القلب من الجسد – والى المحافظة كل المحافظة على أن يظل عربياً خالصا والى دفع العدوان اليهودى وذبذبة السياسة الدولية عنه بكل الوسائل ، فإن العرب جميعاً وفى مقدمتهم أعضاء اللجنة يدركون مدى الأخطار العربية التى تهدد كيان الأمة العربية وتحطم أمالها اذا استقرت قدم اليهود فى فلسطين . والشعوب العربية كلها قد وطدت العزم على أن تستنقذ فلسطين مهما كلفها ذلك من الجهود والتضحيات .

وإننا لنعطف على اليهود فى محنتهم ولكن ليس معنى هذا العطف أن يكون انصافهم بظلم غيرهم وايواؤهم باخراج سواهم من ديارهم أومضايقتهم فى أوطانهم . وفى ممتلكات الدول الحليفة وأراضيها مايتسع لاضعافهم وماهو فى حاجة ماسة الى كفايتهم ونشاطهم .

٤ – مساعدة بقية أقطار الجزيرة العربية «العراق وملحقاتها» – والمملكة العربية السعودية وملحقاتها – واليمن وملحقاتها على استكمال استقلالها ونهضتها ودفع الدسائس السياسية المختلفة عنها وبخاصة وهى الآن فى مهب عاصفة قوية من التنافس الدولى الشديد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً هى أمامها أحوج ماتكون الى من يشد أزرها ويبصرها بمواقع الخير والشر لحاضرها ومستقبلها وليست هناك فرصة للنظر والأختيار أبدع ولا أوسع من هذه الفرصة التى إن افلتت اليوم فلن تعود إلا بعد حين .

٥ – العناية بتحرير الأقطار العربية فى شمال أفريقية وأدخالها فى دائرة الوحدة . فلوبيا بقسميها «برقة وطرابلس» يجب أن تعود إليها حريتها واستقلالها وأن تظل قطراً واحداً تحت لواء حكومة من أهلها بعد أن زال عنها سلطان الغاصب المعتدى وأن شأنها فى ذلك شأن الحبشة سواء بسواء فإذا كان البريطانيون قد حاربوا وحدهم الطليان حتى أجلوهم عن الحبشة ثم سلموها موحدة مستقلة لامبراطورها السابق فإن من واجبهم وقد طردوا هذا العدو البغيض عن لوبيا بمساعدة أهلها ومساعدة الشعوب العربية لهم فى ذلك أن يعيدوها لأهلها موحدة مستقلة كذلك وليس هناك مايدعو الى

تمزيق وحدتها وتقسيم أرضها ومعاملتها بغير الأسلوب الذى عوملت به سابقتها .

وتونس والجزائر ومراكش بلاد عربية وقعت تحت الاستعمار الفرنسى باسم الحماية تارة والاستعمار تارة أخرى وقد جاهدت فى سبيل حريتها واستقلالها جهاد الأبطال و لم تعترف بهذه الأوضاع التى رسمتها لها السياسة الاستعمارية فى يوم من الأيام . ثم ساهمت أخيراً فى المجهود الحربى للحلفاء مساهمة عظيمة اطلقت ألسن زعماء الأمم المتحدة بالثناء عليها وسجلها المستر تشرشل فى خطبه بالأعجاب والأكبار ، وما كان جيش فرنسا الحرة الذى حارب فى صفوف الحلفاء فى شمال افريقية وفى ايطاليا وفرنسا إلا هؤلاء الجنود البواسل من أبناء هذه الديار العربية الصميمة ومن واجب المؤتمر العربى أن يطالب بحقوق هذه البلاد كاملة وأن ينقذ من براثن الظلم والعدوان عشرين مليونا من العرب لازالوا متمسكين بعروبتهم مطالبين بحرية بلادهم مهما أراد المستعمرون أن يظهروهم بغير هذا اللون - لقد حاول هؤلاء الغاصبون خلال هذه السنوات الطوال أن ينالوا من وطنية هؤلاء العرب المجاهدين بالتجنيس وبالارهاب والضغط الشديد ، وأن ينالوا من عروبتهم بالثقافة الأجنبية ومحاربة اللغة العربية والغزو الأجتماعى ، وأن ينالوا من دينهم بالتبشير ومقاومة الأوضاع الإسلامية بمثل الظهير البربرى فلم يجدهم كل ذلك نفعاً ومازال شمال أفريقية وسيظل عربيا مسلما .

ويرى أ ن من واجب اللجنة أن تدعو الى المؤتمر ممثلين من أبناء هذه البلاد ومن أبناء فلسطين ليبسطوا أمامه قضاياهم ومطالبهم .

ونحن حين نرى أن يطالب مؤتمر الوحدة بهذه الحقوق للبلاد العربية ويلح فى المطالبة بها والثبات عليها وأن يحتفظ لنفسه وللشعوب العربية والحكومات العربية بحق التمثيل فى مؤتمر الصلح القادم . لانعتمد فى ذلك على قوة السلاح وكثرة الجيوش والأساطيل فحسب العالم ماقاسى من الأعتماد على القوة ونبذ القانون والعدالة . ولكنا نعتمد :

وعلى أن ميثاق الأطلنطى الذى قيد به الحلفاء أنفسهم وأيدوه بكثير من التصريحات قد ضمن هذا الحق لكل الشعوب .

وعلى أن الشعوب العربية قد ساهمت فى المجهود الحربى مع الحلفاء مساهمة جليلة لاشك أنها كانت من عوامل النصر والظفر لهم . وقد اعترفت بذلك حكوماتهم وشعوبهم وصحافتهم .

ونعتمد أخيراً على هذا التطور فى التفكير العالمى وهذه اليقظة فى الضمير الإنسانى ، وياويح الدنيا إذا كانت ستسودها وتصرفها من جديد الأفكار الرجعية وتتحكم فيها المطامع الاستعمارية .

وإنا لنعلم حق العلم أن الطبيعة البشرية فى كثير من الأحيان تنسى انصافها الذى اعلنته ساعة الشدة لتعود الى ظلمها الذى الفته حين الرخاء «واذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ماكان يدعو إليه من قبل» ولكنا نعلم كذلك أن الدرس الحاضر كان من القسوة والفظاعة وعمق الأثر فى النفوس والأرواح والشعوب والحكومات بحيث لايعرض لهم نسيانه بمثل هذه السهولة .

ولاشك أن من الخير كل الخير للأمم المتحدة أن تقوم فى الشرق أمة عربية قوية لها من خلقها ومجدها وجلال تقاليدها فى ماضيها وحاضرها ما يجعلها أقوى دعائم السلام فى آسيا وأفريقية خاصة وفى مستقبل البشرية عامة .

جـ — الكيان السياسى العام للأمم العربية المتحدة .

وتأتى بعد الخطوة السابقة خطوة ثالثة يكمل بها بناء الوحدة العربية تلك هى لون الكيان السياسى العام لهذه الحكومات العربية المتحدة — ولا نظن أن الوقت قد حان أو أن الظروف قد تهيأت لمثل هذا البحث كما لانظن أن من مهمة المؤتمر أن يختار شكل الحكومات فإن ذلك متروك للشعوب نفسها يتخير كل شعب منها لنفسه النوع الذى يريد ولكن الذى يجب أن يعمل له المؤتمر بهذا الخصوص ويقرره من الآن :

أن يحتفظ بالحكومات العربية المستقرة بحق التمثيل فيما إذا أجرى استفتاء للشعوب العربية المحررة أو التى لم تستقر حكوماتها الوطنية بعد .

وان يقرر من الان لوناً من الوان الارتباط السياسى بين الحكومات العربية

كمجلس استشارى أعلى تستطيع بواسطته أن يتصل بعضها ببعض بطريقة دائمة منظمة ويكون أساساً لوحدة أتم وأكمل فى المستقبل ان شاء الله .

د – تحديد الصلة بين البلاد العربية وجاراتها من الممالك الإسلامية غير العربية :

وهذا المعنى وإن كان لايتصل بمهمة المؤتمر صلة مباشرة إلا أنه مما يعزز الوحدة العربية وتهتم له الحكومات والشعوب معا – فهناك أقطار ليست عربية ولكنها تجاور بلاد العرب وتجمعها بها جامعة المصلحة والجوار من جانب والعقيدة الإسلامية والذكريات التاريخية من جانب آخر كالافغان وتركيا وإيران .

وإذا كنا فى العصر الذى تحاول فيه كل أمة من الأمم أن تتلمس الروابط والجامعات بينها وبين غيرها فإن من واجب المؤتمر العربى أن يقرر أن بين العرب وبين هذه الأمم لمحالفة طبيعية وأن يعلن أن من خير العرب وخير هذه الشعوب معا أن تدعم هذه المحالفة الطبيعية بمحالفات سياسية واتفاقات يتحقق بها تعاون الجميع على خيرهم وخير الإنسانية وبذلك يضع المؤتمر لبنة أخرى فى بناء التعاون الإنسانى المنشود .

هـ – المطالبة بحقوق الشعوب الإسلامية المظلومة ورعاية الأقليات المسلمة فى مختلفة البلاد والأقطار :

وهناك شعوب اسلامية وأقليات وجاليات عربية فى كثير من البلاد والأقطار بلاد الحلفاء وبلاد الأعداء كالشعب الاندونوسى والتركستان والمسلمين فى الهند والمسلمين فى الصين والفيلبين والمسلمين فى روسيا وفى البلقان وكل هؤلاء يضرب عليهم الاستعباد باسم الاستعمار وتهضم حقوقهم ويحال بينهم وبين الرقى والنهوض فإذا كان هذا الوقت هو الذي يترقبه المظلومون لينالوا حقوقهم وليصلوا الى حريتهم فإن أولى من ينطق بلسان هؤلاء ويطالب بحقوقهم هو المؤتمر العربى بحكم الروابط الكثيرة بين العرب وبين هذه الجماعات فعلى المؤتمر أن يطالب باسم الإنسانية وباسم التطور الجديد فى نظام العالم لتحرير الشعوب المستعبدة من هؤلاء .. وإنصاف المظلومين من هذه الأقليات ودراسة القضايا المعلقة التى طال عليها الأمد ولم تمتد إليها يد العدالة والانصاف .

و – لون الحضارة التى يجب أن تصطبغ بها الأمة العربية :

ولعل من أهم واجبات المؤتمر أن يعنى بدراسة هذه الناحية دراسة دقيقة وأن يكوّن لنفسه رأياً يوجه إليه الأمم والحكومات العربية فذلك أجدى علينا من هذه الذبذبة فى التفكير والتنفيذ معاً . ولعل هذه الناحية الإجتماعية لاتقل أهمية عن الناحية السياسية إن لم تزد عنها .

والرأى العام العربى يذهب فى هذه الناحية مذهبين مختلفين فمن الناس من يدعو إلى الحضارة الغربية ويحض على الأنغماس فيها وتقليد أساليبها (خيرها وشرها ، وحلوها ومرها ونافعها وضارها مايحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب) ويرى أنه لا سبيل للنهوض والرقى إلا بهذا (ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع) .

ومن الناس من ينفر من هذه الحضارة أشد التنفير ويدعو إلى مقاومتها أشد المقاومة ويحملها تبعة هذا الضعف والفساد الذى استشرى فى الأخلاق والنفوس ، ولاشك أن كلا الفريقين قد تطرف وأن الأمر فى حاجة الى دراسة أعمق وأدق والى حكم أعدل وأقرب الى الإنصاف والصواب .

لقد وصلت الشعوب الغربية من حيث العلم والمعرفة واستخدام قوى الطبيعة والرقى بالعقل الإنسانى الى درجة سامية عالية ، يجب أن تؤخذ عنها وأن يقتدى بها فيها وهى الى جانب ذلك قد عنيت بالتنظيم والترتيب وتنسيق شئون الحياة العامة تنسيقاً بديعاً يجب أن يؤخذ عنها كذلك ، وهذه الحقائق لا يكابر فيها إلا جاهل أو معاند .

ولكن هذه الحياة الغربية والحضارة الغربية التى قامت على العلم والنظام فأوصلها الى المصنع والآلة وجبى إليها الأموال والثمرات وملكها نواصى الأمم الغافلة التى لم تأخذ فى ذلك أخذها ولم تصنع صنيعها – هذه الحياة المادية الميكانيكية البحته مع ماصحبها من خصومة حادة بين علماء الدنيا وحراس الدين – قد أغفلت هذه الأمم عن أخص خصائص الإنسانية فى الإنسان – عن الغرائز ومستلزماتها وللمشاعر ومطالبها والنفس وعالمها وطرائق تنظيم ذلك كله وضبطه ضبطاً يضمن خيره ويجنبهم شره .

ودفعت بها دفعاً عنيفاً الى التبرم بالعقائد والأديان والخروج عليها خروجاً قاسياً شديداً وإقصائها اقصاء تاماً عن كل نواحى الحياة الإجتماعية العملية .

فاسقطت الحياة الغربية من حسابها جلال الربانية ، والتسامى بالنفس الإنسانية ، والاعتقاد بالجزاء الأخروى . واضطربت بذلك بين يديها المقاييس الخلقية وانطلقت غرائز الشر من عقالها تحت ستار الحرية الشخصية أو الاجتماعية ، ونجم عن ذلك أن تحطمت الفضائل فى نفوس الأفراد وتهدمت الروابط بين الأسر وفسدت الصلات بين الأمم وصارت القوة لا العدالة شريعة الحياة واندلعت نيران هذه الحرب فذاق حرها المحاربون والآمنون على السواء .

وقد ادرك هذه الحقيقة أخيراً ساسة الأمم الغربية أنفسهم فهبوا ينادون بوجوب العناية بالشئون الروحية ويتغنون بالمثل الخلقية العليا ويهيبون بالحكومات أن تصبغ المدارس ومناهج التعليم والتربية بعد الحرب بهذه الصبغة وأن تعود بالشعوب الى الأديان والعقائد الموروثة وفى الكتاب الأبيض الذى أصدرته الحكومة الإنجليزية عن التعليم بعد الحرب وفى تقارير الأحزاب التى وضعت فى ذلك وفى مناقشة مجلس العموم واللوردات لهذا الكتاب من هذا الشيء الكثير .

ونحن العرب قد ورثنا مفاخر هذه الحياة الروحية ومظاهرها فاقطاب الرسالات العظمى وانبياؤهم المطهرون فى أوطاننا نشأوا وعلى أرضنا درجوا ورموز الديانات المقدسة لازالت شامخة باذخة فى ديارنا تهوى إليها قلوب المؤمنين بالكتب والرسل فى انحاء الأرض — وهذا القرآن الكريم الذى ورثناه نحن العرب فخلد لغتنا ورفع الله به ذكرنا وخاطب به نبينا فقال **﴿وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾** كما خاطبنا فقال «**لقد انزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾** هذا القرآن قد حدد اهداف الحياة الروحية تحديداً دقيقاً مبسطا بعيداً عن الأوهام الخيالية والفروض الفلسفية ووفق بينها وبين مطالب الحياة العملية توفيقاً عجيباً لم يستقم لغيره من الكتب ولم يتح لسواه من مناهج الحياة ونظمها .

فإذا كنا نحن العرب نملك هذه الثروة الروحية الجليلة التى :

تصل القلب الانسانى بجلال الربانية فتملؤه بذلك اشراقا وربما
وتكرم فى الإنسان معنى الإنسانية فترفع فى عينه قيم الفضائل العليا
وتذكر الناس بجزاء الآخرة فتسمو بهم عن الوقوف عند اغراض الحياة الدنيا
وتوثق بين بنى الإنسان رابطة من الأخوة لاتمتد إليها يد التفريق والبلى
وتقيم ميزان العدالة الإجتماعية بين مختلف الطبقات على أساس من التعاون والرضى
وتضع لأصول المشاكل حلولاً ترتكز على الحق لا على الهوى
إذا كنا نملك ذلك كله فإن من العقوق لمجدنا وكتابنا وللإنسانية كذلك إلا نتقدم
للدنيا بهذا الدواء والعلاج الشافى .

ولهذا نعتقد أن من واجب المؤتمر أن يقرر وجوب استمساك البلاد العربية بقواعد حضارتها التى تقوم على ماورثت من فضائل نفسيه وأوضاع أدبية ودوافع روحية على أن نقتبس من الحياة الغربية كل ماهو نافع مفيد من العلوم والمعارف والصناعات والأساليب وعلى أن ندعو أمم الغرب الى الإنتفاع بهذا الميراث الروحى الجليل ونبصرها بمافيه من خير ونذكرها بما يحتويه من نفع وضر وبذلك تقوم الصلة بيننا وبينها على أساس من التعاون المشترك يتآزر فيه العقل والقلب على انقاذ الإنسانية واستقرار الأمن والسلام .

ولقد يقال إن هذا المعنى يتحدر بالعاملين له والداعين إليه الى معنى من التعصب الدينى أو التحزب المذهبى يمزق وحدة الوطن المجتمع ويفرق بين المسلم وغير المسلم وهذا وهم خاطىء فنحن إنما ندعو الى الفضائل الروحية والمثل الدينية العليا التى يدعو إليها أهل الأديان جميعاً كما ندعو الى الانتفاع فى حياتنا العملية بهذا التراث القرآنى المجيد الذى هو للمسلم دين ونظام ولكل عربى قومية ومجد وللدنيا بأسرها طمأنينة وسلام .

أيها السادة الفضلاء :

حين نريد لأوطاننا وشعوبنا على أيديكم الوصول الى هذه الأهداف والحصول كل كامل الحرية والأستقلال لاننكر ولا نغفل أن بيننا وبين دول العالم وأممه وشعوبه صلات يجب أن تبقى ومصالح يجب أن تنظم حتى يقوم التعامل على أساس من الحب

والتعاون والأنصاف وأن من واجب مؤتمركم الموقر أن ينظم ذلك كله بحيث لاتسوى مصالح الدول والشعوب على حساب العرب كما لا يحال بين دوله وبين مصلحة من مصالحها الحقيقية التى لا تنتقص من استقلالنا ولا تقف عقبة دون رقينا ونهوضنا .

أيها السادة الفضلاء :

إن يومكم هذا له مابعده وإنكم لتضعون بقراراتكم التى تقررون لبنات الأساس فى نهضة العرب الحديثة بل فى نهضة العالم الإسلامى كله وانكم متى سموتم عن الاعتبارات الشخصية ونصحتم بتقديم المصلحة العامة على المصالح الفردية فإنكم بأذن الله موفقون فاقدروا تبعتكم وحققوا الأمل فى وطنيتكم وثقوا بمقدرة شعوبكم وتأييد الله اياكم والله معكم .

وسلام الله عليكم ورحمته وبركاته ؛

حسن البنا
المرشد العام للأخوان المسلمين

الفهرست

الصفحة

بقلم المؤلف

أ ـ مؤلفات

١ — ثلاث عقبات فى الطريق إلى المجد	(١٩٤٥)
٢ — ديمقراطية جديدة	(١٩٤٦)
٣ — على هامش المفاوضات	(١٩٤٧)
٤ — مسئولية الانحلال بين الشعوب والقادة كما يوضحها القرآن الكريم	(١٩٥٢)
٥ — ترشيد النهضة (صودر قبل التوزيع)	(١٩٥٢)
٦ — الأزمة والبطالة فى الرأسمالية	(١٩٥٣)
٧ — موقف المفكر العربى تجاه المذاهب السياسية المعاصرة	(١٩٥٧)
٨ — قصة فرسان العمل	(١٩٦٢)
٩ — دور المنظم فى الحركة النقابية	(١٩٥٧)
١٠ — القانون والقضاء فى المجتمع الاشتراكى	(١٩٦٣)
١١ — نشأة الحركة النقابية وتطورها (طبعتان)	(١٩٦٦)
١٢ — التنظيم والبنيان النقابى (ثلاث طبعات)	(١٩٦٦)
١٣ — فى التاريخ النقابى المقارن (طبعتان)	(١٩٦٧)
١٤ — دور النقابات فى المجتمع الاشتراكى	(١٩٦٧)
١٥ — مسئولية القيادات النقابية — ملحق مجلة العمل ، العدد ٣٦	(١٩٦٧)
١٦ — الثقافة العمالية بين حاضرها ومستقبلها	(١٩٦٩)
١٧ — منظمة العمل الدولية — ملحق مجلة العمل ، العدد ٦٤	(١٩٦٩)
١٨ — الحركة العمالية الدولية — ملحق مجلة العمل ، العدد ٧٢	(١٩٧٠)
١٩ — العمل فى الإسلام — ملحق مجلة العمل ، العدد ٨٥	(١٩٧١)
٢٠ — محاضرات فى الإدارة النقابية	(١٩٧٢)
٢١ — الحرية النقابية — ملحق مجلة العمل ، عدد شهر مارس	(١٩٧٢)
٢٢ — روح الإسلام	(١٩٧٢)

٢٣ – العمال والدولة العصرية – ملحق بمجلة العمل ، عدد شهر مايو (١٩٧٥)
٢٤ – قضية الانتاج (١٩٧٣)
٢٥ – ظهور وسقوط جمهورية فايمار (١٩٧٧)
٢٦ – حرية الاعتقاد فى الإسلام (طبعتان) (١٩٧٧)
٢٧ – بحوث فى الثقافة العمالية (١٩٧٨)
٢٨ – الدعوات الإسلامية المعاصرة مالها وما عليها (١٩٧٨)
٢٩ – من محو الأمية حتى الجامعة العمالية – ملحق بمجلة العمل ، عدد شهر مايو (١٩٧٨)
٣٠ – الجامعة العمالية (١٩٧٩)
٣١ – الأصول الفكرية للدولة الإسلامية (١٩٧٩)
٣٢ – بيان رمضان (طبعتان) (١٩٧٩)
٣٣ – الأصلان العظيمان : الكتاب والسنة (١٩٨٢)
٣٤ – الفريضة الغائبة : جهاد السيف أم جهاد العقل (١٩٨٤)
٣٥ – الحكم بالقرآن وقضية تطبيق الشريعة (١٩٨٦)
٣٦ – الربا وعلاقته بالممارسات المصرفية والبنوك الإسلامية (١٩٨٦)
٣٧ – الحركة العمالية الدولية (كبير) (١٩٨٨)
٣٨ – مشروع لإصلاح الحركة النقابية (١٩٨٧)
٣٩ – تاريخ الثقافة العمالية فى مصر (١٩٨٧)
٤٠ – الحساسية الدينية (وسيط) – دار الزهراء (١٩٨٨)
٤١ – الإسلام هو الحل (٣١٨ صفحة) (١٩٨٨)
٤٢ – تفسير حديث «من رأى منكم منكراً» ... الخ (١٩٨٨)
٤٣ – خطابات حسن البنا الشاب إلى أبيه (١٩٩٠)
٤٤ – الإسلام والعقلانية (١٩٩١)
٤٥ – العمل الإسلامى لإرساء سيادة الشعب والحكم الدستورى (١٩٩١)
٤٦ – رسالة إلى الدعوات الإسلامية من دعوة العمل الإسلامى (١٩٩٢)
٤٧ – البرنامج الإسلامى (١٩٩٢)
٤٨ – الإيمان بالله (١٩٩٤)

٤٩ – كلا ثم كلا (١٩٩٤)
٥٠ – الجمع بين الصلاتين (١٩٩٤)

ب – كتب الاتحاد الاسلامي الدولي للعمل

٥١ – أزمة النقابية (١٩٨٠)
٥٢ – الاسلام والحركة النقابية (١٩٨٠)
٥٣ – الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل (كتيب تعريفي) (١٩٨٠)
٥٤ – الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل يبدأ المسيرة (١٩٨١)
٥٥ – رسالة الإسلام (١٩٨١)
٥٦ – أخت الصلاة المهجورة (١٩٨٢)
٥٧ – الخيار الصعب (١٩٨٢)
٥٨ – الحركة النقابية من منطلق اسلامي (١٩٨٣)
٥٩ – الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل فى عامين (١٩٨٣)
٦٠ – الحساسية الدينية (وجيز) (١٩٨٣)
٦١ – العودة إلى القرآن (١٩٧٠)
٦٢ – نظم الثقافة العمالية فى الوطن العربى (١٩٨٤)
٦٣ – وجوه الائتلاف بين الرأسمالية والشيوعية والإسلام (١٩٨٤)
٦٤ – الدولة العصرية (١٩٨٥)
٦٥ – رؤية لمضمون الحكم بالقرآن (١٩٨٥)
٦٦ – محكمة العدل الدولية الإسلامية (١٩٨٥)
٦٧ – العودة إلى القرآن (١٩٨٥)
٦٨ – لا حرج (قضية التيسير فى الإسلام) (١٩٨٦)
٦٩ – نحن ودعوتنا (١٩٨٦)
٧٠ – لست عليهم بمسيطر (قضية الحرية فى الاسلام) (١٩٨٦)
٧١ – تعميق حاسة العمل (١٩٨٦)

٧٢ – العهد (١٩٨٧)
٧٣ – الشورى فى الإدارة (١٩٨٨)
٧٤ – الحركة العمالية الدولية (وسيط) (١٩٨٨)
٧٥ – عمال السودان والسياسة (مع آخرين) (١٩٨٨)
٧٦ – الحرية النقابية (ثلاثة أجزاء) (١٩٨٩)
٧٧ – الحركة النقابية السودانية تجد نفسها (١٩٨٩)
٧٨ – نحو حركة نقابية مثقفة ودون الكتاب فى ذلك (١٩٩٠)
٧٩ – الحركة النقابية حركة إنسانية (١٩٩٢)
٨٠ – الاضراب والمواثيق الدولية التى تعترف به (١٩٩٢)
٨١ – النقابات المهنية المصرية فى معركة البقاء (١٩٩٣)
٨٢ – لماذا يجب أن يكون للحركة النقابية عقيدة (١٩٩٣)
٨٣ – منظمة العمل الدولية (١٩٩٤)
٨٤ – نحو تعددية نقابية دون تفتت أو احتكار (١٩٩٤)

ج – مترجمات ومراجعات

٨٥ – النقابات فى الولايات المتحدة (١٩٦٢)
٨٦ – النقابات فى المملكة المتحدة (١٩٦٢)
٨٧ – النقابات فى الاتحاد السوفيتى (١٩٦٢)
٨٨ – النقابات فى السويد (١٩٦٢)
٨٩ – النقابات فى بورما (١٩٦٣)
٩٠ – النقابات فى الملايو (١٩٦٣)
٩١ – الأزمة المقبلة (١٩٦٣)
٩٢ – العمالة والتنمية الاقتصادية (١٩٦٦)
٩٣ – مدخل لدراسة الأجور (١٩٦٦)

٩٤ — الإدارة العمالية فى يوجوسلافيا (١٩٦٧)
٩٥ — العمل يجابه عصراً جديداً (١٩٦٨)
٩٦ — الديمقراطية النقابية (١٩٦٩)
٩٧ — دستور منظمة العمل الدولة (١٩٧٠)
٩٨ — توصيات منظمة العمل الدولية (١٩٧١)
٩٩ — اتفاقيات العمل الدولية (فى مجلدين) (١٩٧١)
١٠٠ — البرنامج العالمى للعمالة «تقرير المدير العام لمكتب العمل الدولى» (١٩٧١)

وكل هذه الكتب باستثناء كتابى الديمقراطية النقابية والأزمة المقبلة من مطبوعات منظمة العمل الدولية .

يصدر قريباً للمؤلف

نظرية العدل
مابين الفكر الأوروبى والفكر الاسلامى

* * *

المعارضة العمالية
فى عهد لينين

رقم الايداع ١١٧٠٠ / ٩٤

دار الطباعة الحديثة
٧ كنيسة الأرمن – أول شارع الجيش
تليفون ٩٠٨٣١٨

هــذا الكتــاب

يعرض البحث الرئيسى فى هذا الكتاب مسئولية فشل قيام دولة اسلامية فى العصر الحديث ، كما يقدم الحل . ويتلو هذا البحث (٤٠ صفحة) بحث آخر بعنوان «اخوانى .. الاخوان» يقدم فيه المؤلف الحديث الى الأخوان ويعرض جوانب خافية فى دعوتهم كما يقترح الخطوات التى يكون عليهم القيام بها تحقيقاً لدعوتهم ويناقش البحث الثالث «غياب الرؤية الإسلامية» ناحية لم تحظ بما هى جديرة به من الاهتمام . بينما يتصدى بحث «بين التقوقع والتميع» لمحنة المبعوثين والجاليات الإسلامية فى الدول الأوروبية وكيف يحققون المعادلة الصعبة مابين الإفادة من ثمرات الحضارة الأوروبية والاحتفاظ بشخصيتهم دون أن يتنكر لهم هذا المجتمع ويعرض الحلول بصراحة تامة . ويضم الكتاب بحثاً بعنوان «دستور اسلامى وضعه أحد أفراد النظام الخاص فى الاربعينات» ويجرى مقارنة مابينه وبين أفكار الجماعات الإسلامية . وهناك بحثان أحدهما عن «الأخوان المسلمون والعمل النقابى» وآخر عن «نحو إطار لامركزى لحماية وحدة الأمة الإسلامية» ويختم الكتاب بوثيقة شديدة الأهمية عن «رأى الأخوان المسلمين فى الوحدة العربية» قدمها المرشد العام فى سبتمبر سنة ١٩٤٤ للقيادات العربية التى اجتمعت للنظر فى تكوين جامعة الدول العربية . وتثبت هذه الوثيقة أن ليس هناك تعارض مابين الفكرة الإسلامية وفكرة الوحدة العربية .

ويعد الكتاب إضافة منشئه فى موضوعه يقدمها كاتب عرف بإحكامه وصراحته ..

دار الفكر الإسلامى

الثمن ٦ جنيهات